من رسائل
أبي حيان التوحيدي

- المؤلف: أبو حيان التوحيدي
- العنوان: من رسائل أبي حيان التوحيدي
- طبعة آفاق الأولى 2020
- تصميم الغلاف: عمر الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠١٩ / ١٣٤٨٥
الترقيم الدولي: ISBN
978 - 977 - 765 - 220 - 9

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st.- From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO- EGYPT- Tel: 00202 25778743- 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com- www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني- ميدان طلعت حرب- القاهرة- جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢- موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

مِنْ رسائل
أبـي حيان التوحيدي

اختيار وتحقيق

خميس حسن

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

التوحيدي، أبو حيان

رسائل أبي حيان التوحيدي

اختيار وتحقيق: خميس حسن

ط 1 القاهرة –آفاق للنشر والتوزيع – 2020

256 ص، 24 سم.

رقم الإيداع 13485 / 2019

الترقيم الدولي 978 – 977 – 765 – 220 – 9

1 – تراث

أ – التوحيدي ، أبو حيان

ب – العنوان

مقدمة

الحمدُ لله حمدَ الشَّاكرينَ، والصلاةُ والسلامُ على رسوله النبي الأمين. وعلى آله وصحبه وسائر الصالحين.

وبعد، فقد تبوأ النثر الفني في القرن الرابع الهجري مكانة رفيعة وسامية بين الفنون الأدبية؛ إذ بلغ شأوًا بعيدًا من الجودة والتنوع حتى أصبح يداني فن الشعر، ويسابقه في أغراضه وخصائصه، ووقف شامخًا يصور آفاق الحياة المختلفة، ويعبِّر عن نوازع الأدباء الكتَّاب في شتى الأمور، إذ إن النثر الفني بحكم المرونة والطواعية التي يتفرد بهما دون سائر الفنون الأدبية، وخاصة الشعر، أكثر قدرة على حمل الأفكار على تنوعها، والتعبير عن المعاني على اختلافها، والتي قد يعجز الشعر أحيانًا في التعبير عنها.

وفي هذا القرن- الذي يُعَد بحق أزهى عصور الإسلام حضارةً وثقافةً- أصبح للرسائل الأدبية بخاصة، القدح المعلى على سائر الأجناس الأدبية الأخرى، بما هيأ لها جهابذة الكتاب من لمسات فنية ساحرة، تجلت في رقة الألفاظ وتناغمها وائتلافها في تراكيب لغوية رصينة، تتفتق فيها أكمام المعاني الجديدة، وتزهو بين سطورها أدق المعاني والأفكار، وتُصوَّر من خلال كلماتها أرق المشاعر الإنسانية، وتتجسد النوازع الوجدانية على اختلافها بكل عمق ووضوح. حتى صارت الكتابة كما يذكر القلقشندي في (صبح الأعشى): أشرف مناصب الدنيا بعد الخلافة؛ إليها ينتهي الفضل، وعندها تقف الرغبة.

ومن أجل ما سبق نقدم هذه المجموعة المختارة من رسائل الأديب الفَذِّ أبي حيان التوحيدي، أديبِ الفَلاسِفةِ وفيلسُوفِ الأُدباءِ، يتناول فيها مجموعة من القضايا الأدبية واللغوية والفلسفية والاجتماعية التي كانت تشغله حينها، وكانت محل نقاش بينه وبين معاصريه من العلماء والأدباء والوزراء والكبراء في وقته في المجالس الأدبية والندوات الفكرية. وقد تردد التوحيدي على مجالس وزراء كثيرين من أمثال المهلبي، وابن العميد، والصاحب بن عبَّاد، وابن سعدان، فكان رسول الثقافة الرفيعة والفكر الممتاز في كل منتدى من هذه المنتديات.

تناولت هذه الرسائل أيضًا بعض المسائل التي تبدو شخصية بالنسبة لأبي حيان ولكنها قضية عامة تمس حياة الأدباء وما يعانيه بعضهم من بؤس وفقر وتضييق عليهم في الرزق، وعدم بلوغهم لما يأملوه من طموح وجاه ورغد في في العيش بالقدر الذي يوازي عبقريتهم وقدراتهم التي يرونها في أنفسهم، تلك القدرات التي لا يجنون ثمارها في حياتهم، بل يلقون التقدير بعد مماتهم وانقطاع أعمالهم.

ويقف وراء اختيار هذه الرسائل لأبي حيان التوحيدي عدة أسباب نوجزها فيما يلي:

السبب الأول: يعود إلى أبي حيان نفسه، فقد كان واحدًا من الذين أعطاهم الله فصاحة لسان، وحسن بيان، وسيلان قلم الإبداع، والتنويع اللفظي؛ فقد كان أديبًا بارعًا، أُوتي قدرة فائقة على استدعاء المعاني اللطيفة، واختيار الألفاظ المليحة، فهو صاحب عقلية من أكثر العقليات الإسلامية خصوبةً ، وعطاءً ، وتفجرًا بالنفيس من القول ، والسديد من الرأي ، والوفير من الإنتاج ، والسخي من العطاء.

وقد وصفه لنا ياقوت الحموي في معجم الأدباء فقال إنه «فيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق المتكلمين، ومتكلم المحققين وإمام البلغاء .. فَرْد الدنيا الذي لا نظير له ذكاءً وفطنةً، وفصاحةً ومُكْنةً».

وأبو حيان التوحيدي شخصية أثارت بين القدماء جدلًا واسعًا أكثر مما تثيره منه بيننا اليوم، ولكن ذلك الجدل لم يمنع القدماء أن يجمعوا على أن أبا حيان عَلَمٌ من أعلام عصره، بل على أنه أحد الذين جعلوا عصره عصر ريادات. فالوقوف عند هذه الشخصية هو وقوف عند محطة من محطات التراث، واستقراء ما ترك لنا هو استنطاق قرينة لا تسلم نفسها إسلامًا واحدًا؛ لأن طبيعتها من طبائع القرائن التي تتعدد أبعادها بذاتها على قدر تعدد شهاداتها وتعدد قرائها.

نعم، إن دراسة ما أنتجه أبو حيان التوحيدي هي في الحقيقة دراسةٌ لنموذج من أروع النماذج التي أنتجتها الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري، ذلك القرن الذي عاش فيه التوحيدي فعاصر رقيَّ الحياة العقلية، وتقدم العلوم والفنون، وتنوع الثقافات والحركات الفكرية، وظهر أثر كل هذا في كتبه ورسائله، حتى لقد اعتبره بعض الباحثين- كما يقول الدكتور زكريا إبراهيم- الناطق بلسان الثقافة العربية في القرن الرابع الهجري.

السبب الثاني: هو خِصب نصوص الرسائل الأدبية، وحيويتها وثراء مضامينها في هذا القرن الذي عاشه أبو حيان التوحيدي، وما تميزت به من نضج التجربة، وثراء الصياغة، والحرص الدائب على التجديد في المعاني، والابتكار في صور الخيال.

ولا يفوتنا بالطبع التأكيد على أن النصوص الأدبية التي أبدعها الكتاب تتأثر بمقومات ذاتية تتصل بذات الأديب وبالأدب نفسه، ومقومات خارجية (موضوعية) تحيط بها وبالأديب المنشئ، وفي مقدمة تلك المقومات الخارجية: البيئة التي يستلهم منها الأديب صوره ودعائم وجوده وأحاسيسه، فضلًا عن الزمن، أي الأطوار الفنية التي تتعاصر أو تتعاقب، مكونة تاريخ الأدب، وما تتميز به كل مرحلة من خصائص فنية، أو وشائج أسلوبية متقاربة.

وهذا واضح وضوح الشمس في تلك الرسائل التي نوردها هنا لأبي حيان، فهي

نتاج بيئته، وعصارة تجربته في الحياة بكل ما فيها من مُر وحلو، فقر ويسار، استقرار وتشرد ومطاردة من ذوي النفوذ والسلطان الذين لم يعجبهم تمرده، ونقموا منه على نقده لهم وتسلطه بقلمه عليهم.

إن هذه الرسائل قيمة أدبية كبيرة للدارسين والباحثين في الأدب العربي، وخاصة في القرن الرابع الهجري بما تحمله من ثراء تجربة كاتبها، وبراعته في النظم والتأليف وصياغة التراكيب، وسَبْر أغوار النفس الإنسانية وكشف لمشاعرها وأحاسيسها المختلفة، كما تعبر عن غزارة علمه، وتعدد المناهل والمنابع التي كان ينهل منها.

وفي النهاية أحب أن أشير إلى أنني خصصت ثلاث رسائل فقط بالتعقيب، وهي رسالة السقيفة، ورسالة إخوان الصفاء، ورسالته إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد يبرر فيها إحراق كتبه؛ لما تشكله هذه الرسائل من قضايا شائكة التبست على كثير من الباحثين ودارسي حياة وإنتاج أبي حيان التوحيدي، وقد وضحنا في التعقيب الوارد عقب كل رسالة من الرسائل الثلاث تلك الأمور التي التبست، على قدر ما نستطيع.

وختامًا، نحمد الله تعالى، ونتضرع إليه بالشكر، ونتوسل إليه بالدعاء أن يجعل عملنا هذا خالصًا لوجهه الكريم، إنه نعم المولى ونعم المجيب.

خميس حسن

القسم الأول

أبو حيان التوحيدي

(حياته ورسائله)

١- أبو حيان التوحيدي

(٣١٢هـ - ٤١٤هـ)

أ- مولده ونسبه ونشأته :

شأن أبي حيان التوحيدي شأنُ غيره من العلماء والأدباء الذين غفل المؤرخون عن التأريخ بدقة لحياتهم، فلا نعرف تاريخ مولدهم ولا وفاتهم بدقة، بل لقد كان العلماء والأدباء أنفسهم لا يهتمون بالتأريخ لأنفسهم إلا فيما ندر، أو أو يأتي ذكرهم لهذه المعلومات عند سؤال مستفهم، أو التعليق على شيءٍ ما. ولكننا سنحاول هنا أن نستكنه المراجع ونبحث في كتب أبي حيان التي تركها لنا لنرسم صورة ولو شبه كاملة لفارس جولتنا، وسمير جلستنا، أديبنا المفوَّه أبي حيان.

اسمه الكامل الذي اتفقت عليه المصادر هو عليُّ بْنُ مُحمَّدٍ بن العبَّاس، أبو حيَّان التوحِيديّ. هذا هو الاسم الذي وصلنا، وإن شذ عن هذا الاسم قليلٌ لا يُعتد به. هذا هو الثابت عنه. أما المعلومات الأخرى عن نسبه ومكان مولده فلا يعدو أن يكون ظنًّا وترجيحًا؛ أما اليقين فلا يكاد يتجاوز ما ذكره أبو حيان بنفسه عن نفسه في كتبه ورسائله، ولعل هذا راجع إلى تجاهل أدباء عصره ومؤرخيه له، وهو موقف أثار استغراب ياقوت الحموي واعترف في ترجمته له بأننا نجهل تمامًا أصله ونشأته، خصوصًا وأن «أحدًا لم يذكره في كتاب ولا دمجه في خطاب وهذا من العجب العجاب»[١] وحدا به إلى التقاط شذرات مما أورده التوحيدي في كتبه عن نفسه

(١) ياقوت الحموي - معجم الأدباء (٥ : ١٩٢٤).

وتضمينها في ترجمة طويلة نسبيًّا شغلت عدة صفحات من معجمه، ولم يكتف بهذا بل لقَّبه أيضا بشيخ الصوفية وفيلسوف الأدباء؛ ربما كنوع من رد الاعتبار لهذا الأديب.

يقول ياقوت الحموي في ترجمته له : «شيرازي الأصل ، وقِيل نيسابوري ، ووجدت بعض الفضلاء يقول واسطي»[١]، وكلامه هذا يدل على أنه فارسي الأصل ، وقد أكد على أنه فارسي في موضع آخر من ترجمته لها فقال: «وعمدة لبني ساسان». وبنو ساسان هم الفرس.

وقد تناقل القدماء والمحدثون هذا الكلام ، فذهب السيوطي إلى أنه فارسي ، وذهب الدكتور زكي مبارك إلى أنه فارسي الأصل وقال عنه في عبارة مؤثرة: «لا تسأل متى وُلد، ولا أين وُلد، فذلك رجل نشأ في بيئة خاملة لم تكن تطمع في مجد حتى تقيد تاريخ ميلاد، ويكفي أن تعرف أنه فارسي الأصل، وأنهم ترددوا بين نسبته إلى واسط أو نيسابور أو شيراز»[٢]، وكذلك حسن السندوبي في مقدمة تحقيقه لكتاب «المقابسات» للتوحيدي[٣].

وهناك فريق آخر يميل إلى أنه عربي الأصل، منهم الأستاذ محمد كرد علي الذي استند في ذلك إلى مجموعة من الأدلة منها أن اسم أبي حيان التوحيدي واسم والده وجده ليس فيه أسماء فارسية ، كما أن أبا حيان التوحيدي لم يكن يعرف اللغة الفارسية ولا يوجد في كتبه ما يدل على أنه فارسي . كما لم يذكر عنه تعصبه للفارسية في فترة انتشر فيها الافتخار بالفارسية ، وكانت حركة الشعوبية في أوج نشاطها ، بل على العكس من ذلك عُرف عنه حبه للعربية وتعصبه لها ضد الفارسية[٤].

ويسوق الدكتور زكريا إبراهيم دليلًا آخر حيث يقول : «وأما القائلون بعربيته فإنهم

(١) معجم الأدباء : (٥/ ١٩٢٣).
(٢) زكي مبارك، عبقرية النثر الفني، ص ٤٨٧.
(٣) مقدمة تحقيق كتاب المقابسات لحسن السنديوني ص ٨.
(٤) أيمن علي عبد اللطيف – عبقرية النثر الفني، ص ٢٧.

يؤكدون أنه ليس في مؤلفاته ما يشير إلى فارسيته ، فضلا عن أنه لو كان يمتُّ إلى فارس بصلة النسب ، لباهى بذلك في عصر كانت الدولة فيه للفرس ، وكانت صلته بأمرائهم وحكامهم في القرن الرابع أمله وهدفه . على أننا نلاحظ أن أبا حيان قد زار بلاد فارس ، وكتب رسالة «في العلوم» وجَّه فيها رسالة إلى الفارسيين فقال : «أطال الله بقاءكم ، وجعل حظ الغريب السلامة بينكم ، إذا فاتته الغنيمة منكم . وبعد فإني لم أرد بلادكم من العراق مباهيًا بكم ، ولا حضرت مجالسكم طاعنًا فيكم ، ، ولا تأخرت عنكم متطاولًا عليكم ..إلخ» وواضح من هذه العبارات أن أبا حيان كان يعتبر نفسه غريبًا في بلاد الفرس ، ولو أنه كان فارسيَّ الأصل ، لانتهز هذه الفرصة للتقرب من الفارسيين أو التودد إليهم[١].

ويميل بعض الباحثين إلى القول بأن التوحيدي كان من أولئك الموالي الذين اختلطت فيهم الدماء والعناصر ، فكونت مزيجًا غريبًا . على أنه كان يشعر بواشجة قربى مع الغرباء والأفاقين ، حتى أنه كان لا يخالط إلا الغرباء والمجتدين الأدنياء الأردياء ، وما هذا إلا لشعوره بأنه واحد منهم ، إذ كان يرتد إليهم ، مهما زجره عن ذلك زاجر من كبار القوم . وأصحاب هذا الرأي يستنتجون أنه من المرجح أن يكون أبو حيان فارسي الأصل ، مع احتمال دخول عناصر أخرى في تكوينه العنصري[٢].

مما سبق نستنتج أن الباحثين ، قديمًا وحديثًا، لم يصلوا إلى رأي قاطع ، ولم يتفقوا على رأي واحد فيما يتعلق بنسب التوحيدي وأصله . ليكن أبو حيان فارسيًّا أو عربيًّا ، فإنه في كلتا الحالتين لن يكون إلا إنسانًا مفكرًا يحاول أن يكمل نفسه بالعلم والدين والأخلاق ، ويسعى جاهدًا في سبيل العمل على ربط الحكمة النظرية بالحكمة العملية[٣].

(١) د. زكريا إبراهيم – أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء (١٣-١٤) .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٣.
(٣) د. زكريا إبراهيم – أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، ص ١٥ .

أما النسبةُ في التوحيديِّ ففي فهمها اختلافٌ؛ ذهب معظمُ المؤرِّخين إلى أَنها نسبْةٌ إلى مهْنةِ والدهِ الذي كان يبيعُ بالعراقِ نوعًا من التَّمْر يُسمَّى (التوحيد) ، مُسْتشْهدين بما «ذَهَبَ إليه بعْضُ شُرَّاح الْمُتنبِّي الَّذين حملوا (التَّوحيد) في البيت التَّالي على الْمعْنى السَّابق»:

يَتَرَشَّفنَ منْ فَمِي رَشَفــاتٍ هُنَّ فيه أحْلــى مِنَ التَّوحيـــــدِ

ولكنَّ فريقًا آخر من شُرَّاح المتنبّي اتَّجه إلى أنّ المقصودَ من التَّوحيد في البيت السَّابق – ولا يُسْتبْعدُ مثلُ هذا عن المتنبي– هو قولُ لا إله إلَّا الله، وتباينوا في الْكشْف عمَّا أرادهُ أبو الطَّيِّب المتنبي ضمْن هذا الإطار. والأمْرُ ذاتُهُ حدث مع النِّسْبة في التَّوحيديِّ، حيثُ اتّجه فريقٌ آخرُ إلى أنَّ النِّسْبةَ هُنا نِسبةٌ إلى عقيدة أهْلِ العدْلِ والتَّوحيد الَّذين عُرفوا بالْمُعْتزلة، ولكن هناك اختلاف آخرُ هُنا أيضًا في انْتماءِ أبي حيَّان إلى هذه الفِرْقة.

أما عن تاريخ مولده فقد أغفله كل من كتب عنه، غير أنه قد حدد سنه في رسالته التي كتبها في سنة أربعمائة إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد حيث قال له: «فإني في عشر التسعين» إذن تعين أن ميلاده كان في العشرة الثانية بعد الثلاثمائة، وعليه يمكن أن نقول: ولد أبو حيان التوحيدي في بغداد سنة ٣١٢ هـ وبها نشأ[١]، وإن اختلف مع هذا التاريخ زكريا إبراهيم في كتابه عن التوحيدي، حيث حدد تاريخ مولده بـ (٣١٠هـ)[٢]، وهو اختلاف بسيط لا يؤثر في الأمر بقليل أو كثير.

كما اختلف الدارسون أيضًا في تحديد السنة التي تُوفي فيها التوحيدي ، وذلك اعتمادًا على آراء المترجمين. فقد ذكر الصفدي في (الوافي بالوفيات) أنه توفي في

(١) مقدمة المقابسات، ص ٨.

(٢) انظر: أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، ص ١٥.

حدود الثمانين والثلاثمائة، أو ما بعد الثمانين[1]. وهذا غير صحيح؛ فقد ذكر أبو حيان في كتابه (الصداقة والصديق) أنه كتبه سنة أربعمائة، وهذا دليل على بقائه إلى ما بعد الأربعمائة. وجاء في تاريخ شيراز أنه توفي سنة ٤١٤ هـ وفي هذا ما يرجح أنه من أهل شيراز[2].

ب - عصره:

عاش أبو حيان التوحيدي في القرن الرابع الهجري، وامتد به العمر- على أرجح الروايات- إلى العقد الأول من القرن الخامس، فعاصر رقي الحياة العقلية ، وتقدم الفنون ، وتنوع الثقافات والحركات الفكرية.

ولكن هذا القرن شهد فيه المسلمون تناقضًا لم يشهدوا مثله من قبل، حيث تناقضت فيه حياتهم العامة أشد التناقض، فكانت سيئة أشد السوء، مجدبة أقبح الإجداب من ناحية، وكانت حسنة قيمة خصبة منتجة من ناحية أخرى، فسدَت فيه حياتُهم السياسية فسادًا ظاهرًا فانحل سلطان الخلافة في بغداد، وأصبح أمر الخلفاء إلى المسيطرين عليهم من رجال القصر ونسائه، يعبثون بهم ويحتكمون فيهم، ويكلفونهم صروف الذلة والهوان، واضطربت الدولة كلها فاستقلت عنها الأطراف البعيدة استقلالًا تامًّا، وطمحت الأقاليم القريبة إلى شيء من الاستقلال الداخلي يختلف قوة وضعفًا باختلاف ما لهذه الأقاليم من حظ في حياتها الاقتصادية والاجتماعية، وباختلاف مَن ينجم فيها من الزعماء وأصحاب المطامع، بحيث أصبح العالم الإسلامي في هذا العصر ميدانًا للتنافس وازدحام الأهواء والشهوات والاستباق إلى مظاهر الفوضى والاضطراب، وصلحت فيه من ناحية أخرى حياتهم العقلية صلاحًا لم يعرفوا له مثيلًا من قبل، فأزهر الشعر والنثر، ونضج العلم والفلسفة، ونمت علوم اللغة وفنونها،

(١) الوافي بالوفيات، ٢٢/ ٢٨.

(٢) عبقرية النثر الفني، ص ٤٨٧.

ونهض التاريخ والجغرافيا بحيث إنك تنظر إلى هاتين الناحيتين من نواحي الحياة الإسلامية في هذا العصر فلا تكاد تستريح إلى أنهما تمثلان أمة واحدة هي الأمة الإسلامية، متأثرة بحضارة واحدة هي الحضارة الإسلامية، وخاضعة لسلطان واحد هو سلطان الإسلام.

وظهر أثر كل هذا في كتب أبي حيان التوحيدي ورسائله ، حتى لقد اعتبره بعض الباحثين الناطق بلسان الثقافة العربية في القرن الرابع الهجري . ووصفه ياقوت الحموي في معجم الأدباء فقال : «فهو شيخٌ في الصوفية ، وفيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة ، ومحقِّق الكلام ، ومتكلم المحققين ، وإمام البلغاء .. فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاءً وفطنةً وفصاحةً ومُكنةً ، كثير التحصيل للعلوم في كل فن حفظه ، واسع الدراية والرواية».

تنقل أبو حيان بين بغداد ، والرّي ، ونيسابور ، وشيراز، وغيرها؛ إما لطلب العلم أو بحثًا عن الرزق . ولو أننا نظرنا إلى حياة أبي حيان في عهد الطلب ، لوجدنا أن «حب التنويع» الذي اتسمت به أخلاق هذا الرجل قد دفعه إلى الأخذ من كل علم بطرف ، فكان من ذلك اهتمامه بدراسة الفقه والحديث ، وانشغاله بالكلام والتوحيد ، وعنايته بمسائل المنطق والفلسفة ، وانصرافه إلى البحث في اللغة والنحو ، ثم اشتغاله أخيرًا بالتصوف . وليس من شك في أن محاولة الجمع بين كل هذه الأصناف المختلفة من المعارف قد تعرِّض صاحبها لخطر السطحية أو الضحالة ، ولكن الملاحظ – بالنسبة إلى أبي حيان – أنه كان شخصية فلسفية مطلعة تستخلص الأسئلة من كل ما يقع أمامها، سواء أكانت المسائل خلقية أو اجتماعية أو لغوية أو اقتصادية أو نفسية. فلم يكن اهتمام أبي حيان بكل هذه المعارف سوى مجرد نتيجة لميله إلى الدهشة ، ونزوعه نحو التساؤل ، واستعداده للبحث .فإذا أضفنا إلى هذا أن القرن الرابع الهجري كان عصرًا ثقافيًّا خصبًا ظهر فيه الكثير من نوابغ الأدب والفلسفة والمنطق والنحو الفقه

والتفسير والكلام والتصوف ، أمكننا أن ندرك السرَّ في تلك «الروح الموسوعية» التي أتاحت لأبي حيان الفرصة للمزج بين هذه كل تلك الثقافات[١].

جـ - مكانته وثقافته :

يُعد أبو حيان التوحيدي أحد علمائنا الموسوعيين. يقول الدكتور مصطفى الشكعة: واحد من ألمع ثمرات الفكر الإسلامي خصوبةً، وعطاء، وتفجرًا بالنفيس من القول والسديد والوفير من الإنتاج والسخي من العطاء[٢]. كما يعد التوحيدي مرآة ناصعة لثقافة عصره التي قطف ثمارها الفلسفية والصوفية والبلاغية والإسلامية.

لقد حصَّل أبو حيان ثقافته من تلك الكتب التي قرأها في مكتبات بغداد، ومن الكتب التي كان ينسخها وتنوعت مصادر ثقافته فأخذ الحديث عن أبي بكر الشافعي، وأبي سعيد السيرافي، وجعفر الخُلدي، وأخذ الفقه عن أبي حامد المروزي، وأخذ اللغة والبلاغة عن الرُّماني. قال الذهبي: وكان من تلامذة علي بن أبي عيسى الرماني[٣]. وكذلك عن أبي سعيد السيرافي وهو شديد الإعجاب به كما درس الفلسفة على يد أبي زكريا يحيى بن عدي المنطقي، وقرأ في بغداد على أبي سليمان المنطقي وهو دائم الذكر له في كتبه.

د- آثاره العلمية :

ولم يكن غريبًا بعد ذلك كله أن تتعدد مؤلفات أبي حيان التوحيدي لتشمل أغلب فنون المعرفة الإسلامية ، وقد ترك خلفه إرثًا نفيسًا تزهو به المكتبة العربية في مجالات متعددة منها الأدب والأخبار والفلسفة والتصوف واللغويات ، وقد ذكر لنا ياقوت الحموي في معجم الأدباء طائفة من تلك المؤلفات القيمة ، مثل :

(١) زكريا إبراهيم – التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، ص ٢٠.
(٢) مصطفى الشكعة، معالم الحضارة الإسلامية، ص ١٨٣.
(٣) سير أعلام النبلاء، ص ١١٧.

- كتاب الإمتاع والمؤانسة : وهذا الكتاب هو ثمرة لمسامرات لسبع وثلاثين ليلة نادم فيها الوزير أبا عبد الله العارض. يحادثه فيها ويطرح الوزير عليه أسئلة في مسائل مختلفة فيجيب عنها أبو حيان.
- كتاب الإمتاع والمؤانسة.
- كتاب المقابسات.
- الرسائل البغدادية.
- كتاب الصداقة والصديق.
- كتاب الهوامل والشوامل، وهو شركة بينه وبين مسكويه.
- كتاب البصائر والذخائر .
- مثالب الوزيرين .
- كتاب تقريظ الجاحظ.
- كتاب الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي.
- النوادر. (مفقود).
- الرد على ابن جني في رسالة المتنبي. (مفقود).

*** هذه كلها التي ذكرناها هي الآثار الأدبية، أما الآثار الفلسفية والفكرية فهي كثيرة نذكر منها :**

- كتاب المحاضرات والمناظرات.
- كتاب الإقناع (مفقود).
- التَّذكرة التوحيديَّة (مفقود).
- كتاب الإشارات الإلهية (جزءان).
- كتاب الزلفى.

- كتاب رياض العارفين.
- كتاب الرسالة الصوفية (مفقود).

*** الرسائل:**

- رسالة في الحنين إلى الأوطان. (مفقودة).
- رسالة في ضلالات الفقهاء في المناظرة. (مفقودة).
- المناظرة بين أبي سعيد السِّيرافيِّ ومتَّى بن يونس القُنَّائي. وردت في هذا الكتاب.
- رسالة في العلوم. وردت في هذا الكتاب.
- رسالة الحياة. وأوردنا هذه الرسالة في هذا الكتاب.
- رسالة إلَى أبي الوفاء المهندس البوزجاني. وردت في هذا الكتاب.
- رسالة إلَى أبي الفتح بن العميد. وردت في هذا الكتاب.
- رسالة إلَى القاضي أبي سهل عليِّ بن محمد. وردت في هذا الكتاب.
- رسالة إلَى الوزير أبي عبد الله العارض يوجه إليه بعض نصائحه. وردت في هذا الكتاب.
- رسالة إلَى الوزير أبي عبد الله العارض يتملقه ويطلب فضله. وردت في هذا الكتاب.
- رسالة في علم الكتابة. وأوردناها في هذا الكتاب.
- رسالة السقيفة. أوردناها في هذا الكتاب.
- رسالة إلى أبي بكر الطالقاني. (مفقودة).
- رسالة في علم الكتابة. أوردناها في هذا الكتاب.

٢- رسائل أبي حيان

لقد شهد القرن الرابع الهجري ازدهار الثقافة، والحياة العلمية والأدبية ازدهارًا كبيرًا في سائر الإمارات والممالك الإسلامية المستقلة. كما شهد تطور الحياة العقلية ونضجها على الرغم مما مُني به هذا العصر من تدهور الأمور السياسية واضطرابها، وما تبع ذلك من تجزؤ أوصال الدولة الإسلامية، وسوء الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وتداعياتها الخطيرة، كما سبقت الإشارة إليه من قبل، وفضلًا عما كان عليه كثير من العلماء والأدباء في هذا القرن من بؤس وحرمان واضطهاد، ومنهم أديبنا أبو حيان التوحيدي، فقد كان من الذين عانوا مرارة الحرمان والاضطهاد.

وقد تهيأت عوامل عديدة في هذا القرن أسهمت مجتمعة في خلق هذه النهضة العلمية الرائدة، وإيقاد جذوتها، كما هيأت لخصب الحياة العقلية، وانطلاق الفكر في آفاق رحبة من الحرية والتسامح، بعيدًا عن التزمت المقيت، فكان ذلك كله حافزًا قويًّا لفتح باب النقاش والجدل، وعقد المناظرات والمساجلات في المحافل والمنتديات في مختلف العلوم التي كان يشتد فيها الجدل والخلاف، لاحتواء هذا الفيض العلمي المتنامي، والتعبير عما آل إليه الفكر الإسلامي من نضج واستيعاب لأدق القضايا العلمية والمسائل الدينية أو الفلسفية العميقة.

ونرى أثر تلك الحرية ونضج الفكر في هذا الفيض العلمي في رسائل أبي حيان ومناظراته وحواراته الرائعة مع أبي سليمان السجستاني عن العلاقة بين النحو والمنطق، وإخوان الصفاء، والمناظرة الطويلة بين أبي سعيد السِّيرافي ومتى بن يونس

القُنَّائي. كما نرى هذا المستوى العالي من النثر الفني المحبوك والمسكوك سكًّا فنيًّا عاليًا في رسالة السقيفة والتي هي من تأليف أبي حيان نفسه ومن انتحاله ولكن روعة أسلوبها كان دافعًا بين الشادين لتعلم الأدب، وذهبا إلى أن الدافع لنشر هذه الرسالة هو أسلوبها العالي، وموضوعها الراقي، ومعانيها الفريدة، وعباراتها البليغة، وألفاظها المنتقاة، وكلماتها المصطفاة؛ لأنها من أفضل الرسائل التي يحذوها الكاتب.

وفي هذا الكتاب نقدم أربع عشرة رسالة كتبها أبو حيان التوحيدي في مناسبات شتى وظروف مختلفة، منها ما هو فلسفي مثل الرسالة الأولى وهي رسالة الحياة والتي يتناول فيها حيوات الإنسان ومستوياتها، وتظهر فيها ثقافته الواسعة وبراعته اللغوية التى لا تبارى ولا يشق لها غبار. ومثلها رسالته في العلوم.

كما تضم أيضًا بعضًا من الرسائل التي يصور التوحيديُّ فيها حاله ويصف دخيلة نفسه، ويشكو إلى من يراسله ما فيه من بؤس وشقاء، أو يبرر له ما أقدم عليه من حرق لكتبه بعد أن أصابه اليأس من بلوغ ما يصبو إليه.

وهذه قائمة بالرسائل المنشورة في هذا الكتاب وأماكن وجودها، سواء مستقلة، أو بين ثنايا مؤلفات أبي حيان، مرتبة حسب ورودها في الكتاب:

١- رسالة الحياة: رسالة فلسفية صوفية، فهي تتناولُ أَنْواع حيوات الإنْسان ومُسْتوياتها، وهي رسالةٌ قَيِّمةٌ وشَيِّقةٌ، طَبَعَها الدُّكْتُورُ إبْراهيمُ الْكيلانيُّ مَرَّتين؛ الأُولى ضمْن «ثلاث رسائل للتَّوحيديِّ» التي نشرها المركز الفرنسي للدراسات العربية عام ١٩٥١ م. والثَّانيةُ ضمْن «رسائل أبي حَيَّان التَّوحِيديِّ».

٢- رسالة السقيفة: رسالة تمثل جانب النضال بين السنة والشيعة في عصر بين بويه، ذلك العصر الذي اشتدت فيه النزاعات السياسية والمذهبية والفكرية، واشترك فيها الناس على اختلاف مذاهبهم وأعراقهم، وتفاوت أنصبائهم من العلم والمعرفة. وقد طَبَعَها الدُّكْتُورُ إبْراهيمُ الْكيلانيُّ ضمْن «ثلاث رسائل للتَّوحيديِّ» التي نشرها

المركز الفرنسي للدراسات العربية عام ١٩٥١م. ووردت في كتاب المقابسات للتوحيدي بتحقيق حسن السندوبي، وذكرها ابن أبي الحديد (عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله بن محمّد بن محمّد بن حسين بن أبي الحديد المدائنيّ، وهو أحد أبرز الكتاب والعلماء، والفقهاء في عصره) في نهج البلاغة. وأوردها القلقشندي في الجزء الأول من كتابه (صبح الأعشى). وقد أشرتُ إلى الزيادات الموجودة في صبح الأعشى.

٣- رسالة عن إخوان الصفاء: وردت في كتاب (الإمتاع والمؤانسة) أول الجزء الثاني، وهي رسالة مهمة تكشف كثيرًا من الأفكار في رسائل إخوان الصفاء التي ظهرت في القرن الرابع الهجري، وهي من أهم المصادر للفلسفة الإسلامية، كما اعتمد عليها الكثيرون في الكشف عن بعض أسماء محرري وكُتَّاب تلك الرسائل المنسوبة إلى إخوان الصفاء.

٤- رسالة في العلوم: نشرها أَحْمدُ فارسُ الشِّدْياقُ مع «الصَّداقة والصَّديق» في كتاب: «رسالتان للعلَّامة الشَّهير أبي حَيَّان التَّوحِيديِّ» عام ١٨٨٤م في مطبعة الجوائب بقسطنطينية. وقدْ حاول التَّوحِيديُّ في هذه الرسالة الرَّدِ على ادِّعاء من ينفون أيَّ صِلَةٍ بين الْفلْسَفَةِ والدِّين، وعلى منْ عاب الْمنْطق ولْم يجدْ لهُ مدْخلًا في الْفقْه. إلى جانب تصْنيف الْعُلُوم الْعربيَّة الإسْلاميَّة وتعْريفات دقيقةٍ لها.

٥- رسالة في علم الكتابة: طبعها الدُّكْتُورُ الْكيلانيُّ مَرَّتين؛ الأُولى ضمْنَ «ثلاث رسائل للتَّوحيديِّ» والثَّانيةُ ضمْن «رسائل أبي حَيَّان التَّوحِيديِّ». وهي من الآثار الفريدة في اللغة العربية أثبت فيها التوحيدي بحكم مهنة الوراقة التي زاولها سعة اطلاعه ومعرفته بالخطوط وأنواعها ودقائق صنعة الخط. وبعد أن أنهى التوحيديّ حديثه عن الخطّ وأنواعه وشروط جماله، ساق في رسالته أقوالًا لحكماء وعلماء أدركوا قيمة هذا الفنّ الإسلامي الرائع.

والرسالة محفوظة في مكتبة فيينا كما ذكر بروكلمان، ومنها نسخة مصورة في مكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٩٠.

٦- المناظرة بين أبي سعيد السِّيرافي ومتى بن يونس القُنَّائي: رَوَى أَبُو حَيَّان هذه الْمُناظرة في الجزء الأول من كتابه: «الإمْتاعُ والْمُؤانسةُ» ورواها أيضًا ياقوت الحموي في (معجم الأدباء) عند ترجمته لأبي سعيد السيرافي، كما ذكرها حسن السندوبي في تصديره لكتاب المقابسات لأبي حيان.

موضُوعُ هذه الْمُناظرة هو المُفاضلةُ بين علْم النَّحْو الْعربيِّ والْمنْطقِ الْيُونانيِّ الْمعْرُوف بالْمنْطق الأرسْطِيِّ نِسْبةً إلى واضعه أرسْطُو Aristotle. وهذه المناظرةُ تدلُّ على قوةٍ عجيبةٍ في التوحيديِّ، وهي مَثَلٌ أعلى في لُغة الجَدل والحوار بين المتناظرين.

٧- في ما بين النحو والمنطق من المناسبة: هي المقابسة رقم (٢٢) في كتاب المقابسات لأبي حيان التوحيدي، وهي استكمال للمناظرة السابقة بين أبي سعيد السيرافي ومتى بن يونس القنائي. وهي عبارة عن محاورة بين أبي حيان وأبي سليمان السجستاني، يطرح فيها أبو حيان الأسئلة ويجيب عنها أو سليمان، وتدور الأسئلة حول ما بين المنطق والنحو من المناسبةً والمشابهة، والفرق بينهما، وهل يتعاونان بالمناسبة، وهل يتفاوتان بالقرب منه.

٨- من محاورات السيرافي: هذا النَّص من كتاب المحاضرات والمناظرات أو محاضرات العلماء، ذكره ياقوت الحموي في ترجمته للحسن بن عبد الله المرزباني النحوي (السيرافي). ويُدْرجُ كتاب المحاضرات والمناظرات أو محاضرات العلماء ضمْن الآثار الصُّوفيَّة الَّتي خَلَّفَها التَّوحِيديُّ، وقد ذكرهُ ياقُوتُ الْحمويُّ مَرَّةً تحْتَ عُنْوان: «مُحاضراتُ الْعُلماء». وجاء بالْعُنْوان ذاته عنْد الصَّفديِّ في «الْوَافِي بالوفيات». وعنْدَ السَّيُوطيِّ في «بُغْية الْوُعَاة».

٩- مقتطفات من رسالة أبي حيان في تقريظ الجاحظ: هذه الرسالة عبارة عن مُقْتطفاتٍ أوردها ياقُوتُ الْحمْويُّ صاحبُ «مُعْجم الأُدباء» في ترْجمته لأحْمد بْن داوُد الدِّينوريِّ وأبي سعيدٍ السِّيرافيِّ. وعنْهُ نقل النَّاقلُون نُصُوصهُمْ لدى الْحديث عنْ هذه الرِّسالة.

١٠- رسالة إلى أبي الفتح بن العميد: كَتَبَ أبو حيان هذه الرِّسالة سنة ٣٦٣هـ عنْدما قَصَدَ الْوزيرَ الْبُويهيَّ أبا الْفتْح بْن الْعميد آملًا بجزيل عطائه. وأوردها ياقوت الحموي في معجم البلدان، وقد طَبَعَها الدُّكْتُورُ إبْراهيمُ الْكيلانيُّ في كتاب: «رسائلُ أبي حَيَّان التَّوحِيديِّ» بدمشْق. وطبعها حسنُ السَّنْدُوبيُّ في مُقدِّمة كتاب «الْمُقابسات».

١١- رسالة إلى أبي الوفاء المهندس البوزجاني: يشْرحُ التَّوحِيديُّ في هذه الرسالة ما وَصَلَ إليه حالُهُ منْ البُؤس واليأس، ويرْجُو صاحبهُ الْبُوزجانيُّ أنْ يُنْقذهُ مما هو فيه. وهذه واحدةٌ منْ رسائل كثيرة تبادلها الصَّديقان، وقد جاءت في الجزء الثالث من كتاب الإمتاع والمؤانسة. طبعها الدُّكْتُورُ الكيلانيُّ ضمْن كتاب: «رسائلُ أبي حَيَّان التَّوحِيديِّ».

١٢- رسالة إلى الوزير أبي عبد الله العارض: في هذه الرِّسالة يُحاولُ التَّوحِيديُّ توجيه الْوَزِيرِ أبي عبد الله العارض وزير صمْصام الدَّولةِ الْبُويهيِّ ونُصْحَهُ في بعْض أُمُور الدَّولة؛ لما بينهما من صداقةٍ وثيقةٍ أسْقَطَتِ الْكُلْفةَ فيها بينهُما. وهي موجُودةٌ في الْجزْء الثَّالث من «الإمْتاع والْمُؤانسة»، وطُبعتْ هذه الرِّسالةُ ضِمْنَ كتاب «رسائل التَّوحِيديِّ» الَّتي عُني الدُّكْتُورُ الكيلانيُّ بجمْعها والتَّقْديم لها.

١٣- رسالة إلى الوزير أبي عبد الله العارض: تخْتلفُ هذه الرسالةُ عن الرسالة السَّابقة في موضُوعها، ففيها يمدح أبو حيان الوزير أبا عبد الله العارض، ويتملّقه. وهي موجُودةٌ في الْجزْء الثَّالث من «الإمْتاع والْمُؤانسة» وقد طبعها الدُّكْتُورُ الكيلانيُّ ضمْن «رسائل أبي حَيَّان التَّوحِيديِّ».

١٤- رسالة إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد: كان أبو حيان قد أحرق كتبه في آخر عمره لقلة جدواها- في رأيه- وضنًّا بها على من لا يعرف قدرها بعد موته، فكتب إليه صديقه القاضي أبو سهْلٍ يلومه على إحْراقه كُتُبَهُ، وقد بيَّنَ فيها التوحيديُّ في رسالته الدَّوافعَ الَّتي قادتْهُ إلى فعْلته هذه. أورد ياقُوتُ الْحمْويُّ هذه الرسالة في مُعْجم الأُدباء. وطبعها حسنُ السَّنْدُوبيُّ في مُقدِّمة كتاب «الْمُقابسات» عام ١٩٢٩م. كما قام بطباعتها الدُّكْتُورُ إبْراهيمُ الْكيلانيُّ ضمْنَ «رسائل أبي حَيَّان التَّوحِيديِّ».

ولكن هل أحرق التوحيديُّ كتبَه حقًّا؟ أرجو أن تقرأ التعقيب الذي يلي هذه الرسالة.

والآن أتركك مع القسم الثاني، لتتصفح وتستمتع بما كتبه أديب العربية الأول ورائد النثر الفني أبو حيان عليُّ بْنُ مُحمَّدٍ بن العبَّاس، أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، كما ذكر ياقوت الحموي.

* * *

القسم الثاني

منتخبات من رسائل التَّوحيدي

(١)

رسالة الحياة

بسم الله الرحمن الرحيم

وهو حَسْبي ونِعْمَ الوكيلُ. رَبِّ تمِّمْ بالخير

الحمدُ لله، والصَّلاةُ والسَّلامُ على رسولِ الله. اللهمَّ اجعلْ فِكرَنا في مَلَكُوتِ سمائِكَ وأرضِكَ وما بينهما، عائدًا علينا بمعرفتكَ، وبَحْثَنا عَنْ أسرارِ حِكمتكَ، مُحَرِّكًا لنا إلى خالص توحيدِكَ، وَتَصَفُّحَنا لظاهرِ عِلْمِكَ وباطِنِه، مُفضيًا بِنَا إلى الثِّقَةِ بك، واستيحاشَنا عن كُلِّ ما يُبْعِدُنا عنك، بابًا مفتوحًا للأنسِ بذكركَ، وبراءتنا من عبادكَ الجاهلين بك، الضَّالِّينَ عنك، موصولةً بِطَاعَتِكَ ومرضاتِكَ، ومهما أَثْبَتَّ في أمرنا فاخَصُصْنَا بِتَأييدكَ، واعْمُمْنا بتسديدكَ، وأَمْتِعْ قلوبَنا بالرِّضا عنك، واهزُزْ أرواحنا بالشَّوق إليك، واشحَذْ ألسِنَتَنا بالدُّعاءِ إلى عبادتكَ، وطَهِّرْ أفئدَتِنَا من أدناسِ الشَّكِّ والرَّيْبِ في طَلَبِ القُرْبَةِ عندكَ، وَأَرِنا الحقَّ في معرِضِهِ البهيِّ المُونِقِ حَتَّى نَنْتَحِلَهُ مُوقنينَ، وَبَيِّنْ لنا الباطلَ في منظره الزَّرِيِّ حَتَّى نُوَلِّي عنه مُعرضين. وفي الجملةِ والتَّفصيلِ كُنْ لَنَا ناصرًا، ومُعينًا حاضرًا، وإلينا ناظرًا، وهيِّئنا للحَذَرِ من خَطَرَاتِ الحَيْرةِ، ونَظَرَاتِ الحسْرةِ، واملأ قلوبنا بالنُّورِ الذي مَنْ خُصَّ به أبصرَ ما دونه فَتَوَقَّاهُ، وما فوقه فَتَلَقَّاهُ، وما عن يمينه فاختاره، وما عن شماله فاحترَزَ منه، وما أمامه فانتظره،

وما وراءه فاحتقره، وَحَلِّنَا بشِعارٍ لا نَتَحَدَّثُ به إلا عنك، ولا ندعو به إلا إليك، ولا نثني به إلا عليك، ولا نتهالك إلا من أجلك، ولا نخضع ولا نَضْرَعُ إلا لوجهك، يا ذا الجلالِ والإكرام، ويا مُصَرِّفَ الأيَّام بين النَّقْض والإبرام.

جَرَتْ، أدام الله رَوْحَ قلبك، وبَرْدَ فؤادك، مذاكرةٌ في البيانِ عن أصنافِ الحياة الَّتي هي محبوبةُ كُلِّ نفسٍ، ومطلوبةُ كلِّ ذي حسٍّ، وكان الكلامُ فيها يقسو مرَّة ويلينُ أُخْرَى، ويخمدُ طَوْرًا، ويتَّقدُ طَوْرًا، ولا يأتلف ائتلافًا. له فنونٌ تُرْسَمُ بالعِلْم، وتنبسطُ باللفظ، وذلك لِكُلول[1] الحِدَّة، وعلوِّ السِّنِّ، ونضوبِ ماءِ الوجه، وانفضاخِ[2] متن الحال، وبَيْدِ[3] قوى الطَّبيعة، وتهافتِ قوَّة الفطرة، وخلوقة[4] الأدَمَةِ والبَشَرة، وعوارض آفات القريحة، وتباعد أقطارِ العبارة عن الحقائق المحدودة، ثُمَّ إنِّي نعمتُ بشيء منها على [....][5] في الحديث السَّانح المعهود عند بعض الرؤساء، ممن آتاه الله عبرةً في أمره، وصِحَّةَ استبانةٍ في شأنه، فَعَرَفَ ما عليه وله، وقَصَرَ زمانَه على اختيار النَّافع عاجلًا، واجتناب الضَّارِّ آجِلًا.

هذا مع أشغاله المتكاثفة، ونظره المتوزَّع، وفكره المتعَب أخذ الله بيده، وأعانه على ما يحمل من أمره، فَلَمَّا فهم أُعجب، ولما أُعجب، حَضَّ على تأليفه في كتاب، وتَلَطَّفَ في ذلك بأحسنِ قول، وَوَعَدَ عليه أجْزَلَ ثواب، وفَيَّل[6] الرَّأي في النُّكول عنه، والرِّضى بالجواز عليه. وقال:

(١) من الفعل كَلَّ، يَكِلُّ، كَلًّا وكَلالًا وكَلالَةً كُلُولًا ، فهو كليل وكَلٌّ ، و هو كالّ ، والمفعول مكلول عنه. نقول: كَلَّ العَامِلُ: تَعِبَ ، أَعْيَا. وكَلَّ السَّيْفُ: لَمْ يَقْطَعْ فهو كَليلٌ، وكَلٌّ. والكَلُّ : قفا السِّكِّين والسَّيف.

(٢) انفضَخَ: مطاوع فَضَخَ. وانفضَخَ الشيءُ: اتَّسَع وعَرُض .وانفضَخَ السِّقاءُ وهو ملآنُ: انْشَقَّ وسال ما فيه .وانفضَخَ القارورةُ: تكسّرت فلم يبق فيها شيءٌ .

(٣) بَيْد : مصدر (بادَ) بمعنى هلك أو انقرض.

(٤) من خلُق الثوب خُلُوقًا إذا عتق وبلي.

(٥) نقص في الأصل.

(٦) فَيَّل الرأي: ضعَّفه.

في نَشْرِ الحكمةِ ثوابٌ رُوحانيٌّ، وذكرٌ دهريٌّ، وصِيتٌ باقٍ، وبهجةٌ موموقةٌ[1]. ولو لم يكن فيه إلا التَّلَذُّذُ به، واستنتاج بابٍ بعد بابٍ يليه لكان يجب ألا يُكْسَلَ عنه، ولا يُجْنَحَ إلى التَّفريطِ والتَّقاعد دونه.

وهذا الذي قاله هذا السَّيدُ ظاهرُ الصَّوابِ، ناصعُ الدَّليلِ، موجودُ البرهانِ، غيرُ مشكوكٍ فيه، ولا مرتابٍ منه. ولكن أين البالُ الرَّخيُّ، والفؤادُ الذَّكيُّ، واللسانُ الحليف، والصديقُ المساعِد، والمستمع الواعي، والطَّالبُ الرَّاغب، وأنَّي لي الأمان من الخطأ والسَّلامةُ على المنحنى.

هذا وقد قال سقراط[2] الإلهيُّ: افرحْ بِمَا لم تَنْطِقْ به من الخطأ أكثر من فَرَحِكَ بِمَا لم تَسكُتْ عنه من الصَّواب.

وهذا كلامٌ نفيسٌ يحثُّ على معرفة مواقع النُّطْق والصَّمْت، وهذه المعرفةُ نِتَاجٌ للفكر الصَّحيح، آتيةٌ بالحقِّ، جَلُوبةٌ للرُّشدِ. هيهاتَ، غامت سَماءُ العلم، وأظلم جوُّ البيانِ، وانكسر فِقَارُ الدِّينِ، وتَحَطَّمَ عَمُودُ الشَّباب، وقلَّ نصيرُ الأدبِ، وتَقَوَّضَ بناءُ الخيرِ، وبَلِيَ ثَوبُ المروءةِ، وغارتْ عينُ الحياةِ، وعقمتْ أمُّ الوفاء. فلا جَرَم؛ لا بابَ للعُرْفِ إلا وهو مَسدودٌ، ولا جُرُفَ[3] للعقل إلا وهو مُنْهارٌ، ولا جانبَ للفَيْض إلا وهو مُنْثَلِمٌ، ولا ثَغْرَ للحكمة إلا وهو مُسْتباحٌ. فالمصيبة عامَّة، وإن كان العزاءُ خاصًّا، والبلاءُ شاملٌ، وإن كان المكترثُ به قليلًا، والعَجَبُ حاضرٌ، وإن كان المتعجِّبُ غائبًا، والعليلُ مستغيثٌ، وإن كان الطَّبيبُ مفقودًا.

وأقِفُ عن هذا الحديث فإنَّهُ قد قيلَ مُسلسَلًا ليس بين يديهِ حاجزٌ يصدُّ، ولا مانعٌ

(١) اسم مفعول من الفعل (وَمَقَ) بمعنى أحب.

(٢) سقراط فيلسوف يوناني من أثينا ، ولد نحو ٤٦٩ ق. م وتوفي عام ٣٩٩ ق . م ، عُرف بفكره، وآرائه، وطريقة حياته التي اعتُبرت ذات أثر عميق على كلٍّ من الفلسفة القديمة والحديثة.

(٣) الجُرُف: شِقّ الوادي إذا حَفَرَ الماءُ في أسفله، مَثَلٌ ضربه الله للذين بنوا مسجدهم للإضرار بالإسلام ، وقُرئتْ (جُرْف) بسكون الراء.

إلَّا أن يأْذن الله بفرحة يقيِّضُها[1]، ونشأةٍ أُخْرَى يُعيدها، ونظرةٍ يجبُرُ بها كسر الزَّمان، وجذْم[2] أصله وفصله الحَدَثان، ومن دون ذلك ما يتزحزحُ عن هذه البقعة الغاصَّة بأنواع الأسى والحُرقة. نسأل الله العظيم أن يقضي ذلك مرفوعًا بغفرانه قبل أن يُتمنى بالقلب واللسان، فالأوَّل يقول:

فالموتُ خيرٌ للفتى فَلْيَهْلِكَـــنْ وبــه بَقيَّــهْ
مِنْ أنْ يُرى تَهْديــهِ وِلْدانُ المُقامَةِ بالعَشِيَّه[3]

فإنَّهُ وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

نعم أبقاكَ اللهُ وأتمَّ نعمَتَهُ عليكَ، ومع الذي قَدَّمْتُ وأخَّرتُ، وصعَّدتُ وصوَّبتُ، فإنِّي لَمْ أرَ من حقِّ هذا الصَّديقِ الكريم أنْ أُخالِفَه عامدًا، وأنحرفَ عن مرادِه معاندًا، بل رأيتُ أنْ أتقلَّدَ الكلامَ في ذلك بالغًا وقاصرًا، ومنتهيًا، ومتوسطًا، لأنجُوَ من عَتْبِه، وأفوزَ بمرضاته، وليكونَ وجهيَ في طاعته أغرَّ واضحًا، وصوابيَ عنده مقبولًا، وخَطَئي لديه مُحْتملًا.

وأعودُ فأقولُ في شرحِ أصناف الحياةِ بمبلغِ العلمِ الذي عندي، فإذا فَرَغْتُ منه أضَفْتُ إلى جُملَتِه فِقَرًا شريفة، بعباراتٍ مألوفة، على قَدْرِ الرِّسالةِ؛ فإنَّ تلكَ أشبهُ للحال، وأجلبُ للفائدة، وأحسمُ لمادَّةِ التَّكلف، وأبلغُ إلى الغرض المَنْحُوّ، وآتى على المراد المقصود إن شاء الله تعالى.

(١) قَيَّضَ الله له كذا: قدّره له وهيأه.

(٢) الجذم: سرعة القطع؛ جذمه يجذمه جذمًا فهو جذيم، والجذمة: القطعة من الشيء يقطع طرفه ويبقى جذمه، وهو أصله.

(٣) ينسب هذان البيتان لزهير بن جناب الكلبي كما في الأمالي للسيد المرتضي (١/ ١٧٤) ويروى البيت الثاني منهما:

من أن يُرى الشيخَ البَجَا لَ إذا يُهادى بالعشيَّه

والبَجَالُ من الأشخاص: الشخص ذو الهيبة والنُّبْل.

أصناف الحياة[1]

أصنافُ الحياةِ عشرة: ثمانيةٌ مُتِّعَتْ بها البَشَرُ على التَّفاوت الواقعِ بين الحيِّ والحيِّ كَمَا سَنُبَيِّنُ من بعد، واثنان مُرتْقيانِ إلى ما يشكَل العلم به إلَّا في الجملة، ويعتاصُ المرادُ منه إلَّا مع التَّسليم:

فالصِّنفُ الأوَّل يقالُ له: حياةُ الحِسِّ والحركةِ.

والصِّنفُ الثَّاني يقالُ له: حياةُ العلم والبصيرة.

والصِّنفُ الثَّالثُ يقالُ له: حياةُ العمل والكَدْح.

والصِّنفُ الرَّابع يقالُ له: حياةُ الخُلُق والسَّجيَّة.

والصِّنفُ الخامسُ يقالُ له: حياةُ التَّدينِ والسَّكينة.

والصِّنفُ السَّادسُ يقالُ له: حياةُ الكمال الأوَّل.

والصِّنفُ السَّابعُ يقالُ له: حياةُ الظن والتوهّم ويقال له أيضًا: حياة الذِّكر.

والصِّنفُ الثَّامن يقالُ له: حياةُ الكمال الثَّاني وهي حُبُّ العاقبة.

فهذه ثمانية أصناف، ويتدرَّجُ فيها الواحدُ بعد الواحد من البشر بِحَسْبِ السِّهام العُلْوية، والمكاسِبِ السُّفْليَّة، والتَّأهيل الإلهيِّ بالمواهب السَّابقة، والتَّكاملِ البشريِّ والمساعي السَّابقة. والصِّنْفان الآخران أحدُهما حياةُ الملائكة، والآخر ما يقال له: إنَّ الله عزَّ وجلَّ حيٌّ، وهاتان الحياتان نقتنع في أمريهما بالكتابة عنهما، لإشكال الكُنْهِ فيهما، ولإضراب العقل عن تحديدهما، وَحَرَج الصَّدْرِ عن تَوَهُمِهِمَا وتمثيلهما فيك، فنقول:

(١) هذا العنوان والعناوين التالية غير موجودة في الأصل، وأدرجناها للتوضيح.

١- حَيَاةُ الحسِّ والحَركَة

أما الحياةُ الأولى فهي حياةُ الإنسان الَّتي بِهَا يُحسُّ ويتحرَّك ويلذُّ وينعم ويشتكي ويألم، وهذه مشتركة، أعني أنَّ ضروبَ الحيوان من فَرَسٍ وحِمَارٍ وخنزيرٍ وقردٍ وغير ذلك لها هذه الحياة الَّتي تشتمل على الحسِّ والحركةِ والقَوْمِ إلى الغذاء، والحاجة إلى البقاء، وبِهَا يَتَعَلَّقُ إلى تحلُّل المُنْحَلِّ منها، وبها يتشوَّقُ إلى استجلابِ أمثاله إليها.

ولا تفاوتَ في تلك الحياة بين هذه الضُّروبِ، بل كُلُّها تجتمعُ في الصِّفاتِ، وتقبل بالطَّبع الأول هذه الحالات؛ فلهذا لا يقال: هذا الحي أحْيا من هذا الحيِّ. وقد يُقال: زيدٌ أحْيا من عمرو، أي أنه أكثرُ حياءً منه.

ولَعَلَّهُ يقال أيضًا: هذا الحيوانُ أحيا من هذا الحيوان، أي أطول مدَّةً في الحياة، فأمَّا في نفس الحياة فهي في الجنس والنَّوعِ والشَّخصِ واحدٌ. فقد بانَ أنَّ الصِّنْفَ الأوَّلَ من أصنافِ الحياةِ قد اشترك فيه، وهذا الاشتراك وقع بالحكمة كالأَساس لباقيها، وكالغَرْسِ لِكُلِّ ما يدخل في حَوْزتها.

٢- حَيَاةُ العِلْمِ والبَصيرَة

وأمَّا الحياةُ الثَّانيةُ فهيَ حياةُ العلم والمعرفة والفَهْمِ والدِّرَايَةِ والحِفْظ والرَّويَّةِ والحكمة والبحث والاستنباط والمسألة والجواب. وهذه الحياة تُستفادُ بالتَّأييد الإلهيِّ؛ والاختيار البشريِّ، مع النيَّةِ الْحَسَنَةِ، والسَّعي الدَّائم، والمحبَّةِ النَّفْسِيَّةِ، واللطافةِ الرُّوحيَّةِ، والرِّقَّة المِزاجيَّةِ.

فأمَّا الحياةُ الأولى فهي مع الجِبلَّة والفِطْرة، وهي صورةُ الطِّينة؛ ولذلك وَقَعَ فيها الاشتراك من الجميع. وهذه الحياة هي الهاديةُ لصاحبها إلى نَيْلِ الكمالِ وبُلُوغِ

الآمال. والتَّفاضُلُ الواقعُ في هذه بِحَسْبِ الحظِّ والاطِّلاع والسُّلوكِ والزَّمَاع[١]، فإنْ عَرَضَ النَّقْصُ في سلوك هذه الحياة فإنَّ صاحبها يصيرُ شبيهًا بضروب الحيَوان الَّتي وصفناها من قبلُ. وإن كان أرْفَعَ منها في الجواهر، والسِّنْخ[٢]، والعُنْصرِ، والشَّكْلِ، والنَّفْس. وإن استمرَّ صاحبُ هذه الحياة على أخذ الفوائد المُجْدية، واقتباس المعارف المحقَّقَةِ صارَ شبيهًا بالملائكة الذين بسائطهم مُرَكَّبَةٌ على تركيباتهم، وجسميتهم مَلُوكة[٣] بروحانيَّتِهم، وكثافتهم مغلوبة بلطافتهم. فعلى هذا إنْ قيل: إنَّ العَالِمَ أحْيا من الخامل، أي أكثرَ حياةً في هذه الحياة الَّتي فَسَّرْنا لم يَكُنْ مُنكَرًا ولا بعيدًا.

٣- حياة العمل الصالح

وأمَّا الحياةُ الثَّالثةُ فهيَ حياةُ العمل الصَّالحِ بالرَّفْعِ والوَضْع، والأخْذ والعَطاء، والعِشْرَةِ، والصَّداقة، والوَداعةِ، وحُسْنِ العهد وصِدْقِ الوعد. وهذه الحياة إذا انضمَّت إلى الحياتَيْن الأُوليَيْن كَمَّلَتِ الإنسانَ، وزادتْ في قيمته، وعَلَّت من درجتِه، وأفادتهُ شَرَفًا أبديًّا، وعِزًّا سَرمديًّا، وألبستْهُ جِلْباب البَقَاء، وسلَّكتهُ إلى كَنَف السَّعادة، وخَلَطته بزُمْرة الملائكة.

٤- حَيَاةُ التَّدَيُّنِ والسَّكينة

وأمَّا الحياةُ الرَّابعةُ فهي حياة الدِّيانة والسَّكينة، وبها يَنَالُ صاحبُها خَيْرَ العاجلة والآجلة، لأنَّ سِرْبالَ الدِّين صافٍ، وقُلَّتهُ[٤] عَلِيَّة، وعُقْباهُ مأمولة، وسريرته ظاهرة، وعلانيَّته مَرْضيَّة. فَبالتَّدَيُّنِ يكملُ النَّاقصُ، ويزدادُ الرَّاجِحُ، وينجو المُشْفي[٥]، ويَبْرَأُ

(١) الزَّماعُ: العزم على الأمر، والمضيُّ فيه، ومنه قولنا: أزمعت على كذا.
(٢) السِّنْخُ: الأَصْلُ من كلِّ شيءٍ.
(٣) ملوكة: من لاك يلوك، أي أن روحانيتهم مخلوطة وممتزجة مع روحانيتهم.
(٤) قُلته: قمته.
(٥) المشفي: من الفعل (أشْفَى) واشفَى على الشيء : اقْتَرَبَ منه. يريد ينجو المريض الذي اقترب من الموت.

العليلُ، ويرشُد الغويُّ، ويستبصرُ العَميُّ، ويهتدي الضالُّ، ويستقيم المعوجُّ، ويُدْرَكُ الفائتُ، ويُسْتبان الغَيْبُ. وتمجيدُ الدِّين طويلٌ لا غايةَ له فيوقَف عندها، ولا حدَّ له فَيُنْتَهَى إليه؛ فلذلك نبسط عُذْرنا في الإمساك عنه بعد الدَّلالةِ على نَصِّهِ.

٥- حَيَاةُ الخُلُقِ والسَّجِيَّة

فأمَّا الحياةُ الخامسةُ فهي حياةُ الأخلاق الَّتي مَنْ هذَّبها، ومَنْ تهذَّب بها، ونَفَى خَبيْثَهَا، وتَحَلَّى بطيِّبها، هَنُأَ عيشُهُ وعيشُ من يعايشُهُ، وصَفَتْ سريرتُه من الكَدَر، وبرَّ سعيُهُ في كُلِّ ما حلا وأمَرَّ. وإنَّما أفرَزنا الأخلاق من الدِّيانة والسَّكينةِ والعملِ الصَّالح لأنَّ الخُلُقَ تابعٌ للخَلْقِ بالمضارعة اللفظية، وهو ينقسمُ بين ما يزول بالرِّياضةِ كُلَّ الزَّوال، أو يقلُّ بعض الإقلال، وبين ما يكونُ صورةً للنَّفسِ لا يُطْمع في البراءَة منه، والطَّهارة عنه. وقد صَنَّفَ الحكماءُ الأوَّلون والآخرون كتبًا في الأخلاق وذكروا أعيانَهَا بأسمائِهَا وصفاتِها، وحدودها ورسومها، ومجملها ومفصَّلِها، ودلُّوا على الحَسَنِ والقبيحِ منها، ودَعَوا إلى التَّحَلِّي بأحسنها، والتَّعَرِّي من أَسْمَجِها[1]، فضربوا لها الأمثال، وسَحَبُوا عليها ذيولَ المَقَال، فلذلك كَفتِ الإشارة في الجملة إليها دون التَّفصيلِ الدَّالِّ على خُلُقٍ منها، ولو مَيَّزنا الأخلاقَ بالشَّرحِ في هذا المكان للزم أيضًا أن نشرح الدِّينَ والعمل وجميع ما سَلَفَ اللفظ به وأتى الذِّكرُ عليه.

٦- حَيَاةُ الكَمَالِ الأوَّل

وأما الحياةُ السَّادسةُ فهيَ أنْ نُستجمعَ من جملةِ الحَيَوات المتقدِّمةِ لأنَّا كما رسمنا كُلَّ واحدةٍ منها باللفظِ الوجيز، والعبارة الخاصَّةِ دَلَلْنَا في هذا المكان على صورة أُخْرَى تَحْدُثُ لَهَا بالتَّناظم والتَّلازم والاجتماع والتَّأليفِ لم تكن من قبل؛ لأنَّ الأشياءَ المفردةَ صُوَرُها مخالفةٌ للأشياء المتضامَّة، وكذلك الأشياء المتباينة ليست كالأشياء

(١) سمُج الشَّيءُ: قبُح، والسمج: الذي لم يكن فيه ملاحة.

المتلائمة، وهذا عِيان وهو غنيٌّ عن البرهان، فمن فاز بهذه الحياة علا شأنُه، وشرُفَ مكانُهُ، وبلغ إلى فَجْوة النجاة.

٧- حَيَاةُ الظَّنِّ والتَّوهُّمِ

وأما الحياةُ السَّابعةُ فهي حياةُ الظَّنِّ والتَّوهُّم. أعني ما يغلب على الإنسان من الذِّكْر والصِّيت والشُّهرة بأيِّ وجهٍ كان، ولذلك قال الأوَّل: إنَّ الثَّناءَ هو الخُلْدُ.

ولما شَعَرَ الإنسانُ بالبقاء جَدَّ في طلبه بكلِّ وجهٍ، وشامَ برقَهُ[١] بكلِّ طَرْفٍ، وحَلُمَ به في كلِّ نُعاسٍ، وتَمَنَّاهُ في كلِّ انتباه، وكلُّ أحدٍ يتوهَّمُ نوعًا غير نوع صاحبه بِقَدْرِ مزاجِهِ، ونقصه وزيادته، وعقله ورأيه، وبديهته ورويَّتِهِ وعلى هذا وهمًا[٢] الناس.

وصاحب هذا الغَرَضِ لما غفل عن البقاء الحقِّ سَعَى في كسب الحياة الَّتي كأنَّها بالذِّكرِ والصِّيتِ والاشتهار كالحياة المألوفة بالحسِّ والحركة، ومن هذا الضَّرب طَلَبَ الإنسانُ النَّسْلَ لأنَّهُ يَتَخَيَّلُ لبقاء النَّوع شبهًا لبقائه الشَّخصيِّ؛ ولهذا يقال: نَسْلُهُ أي نُسِلَ منه، وسُلالَتُه أي سُلَّ منه، ومُصاصتهُ أي مُصَّ منه.

والفرق بين الحياة والبقاء، والعيش والدَّوام، والثَّباتِ والخُلْدِ، والكونِ والوجودِ، مشهورٌ واضحٌ. فإنْ تركنا ذكره ميلًا إلى تخفيف الرِّسالة جازَ، وإن هَشَشْنا للإشارة إليه ساغ. وتقول في ذلك بعد هذا الشَّرح عليه ما يتيسَّر، وإنْ كان غيرَ آتٍ على الغاية. أمَّا البقاءُ فهو أعمُّ من الحياة لأنَّا نقولُ في الحيِّ باقٍ. وفي غيرِ الحيِّ أيضًا نقول: باقٍ. والحياة أدْخلُ في الحِس لأنَّها أعلق بالحركة، والباقي قد يكون بحركة وغير حركة، فأمَّا العيشُ فإنَّهُ أشدُّ لطافةً بمادَّةِ الحياة، وكذلك يقال: خرج فلان في طلب المعاش. فأما الحياة فقد كانت قبل هذا الخروج، ولذلك يقال في الله تعالى حيٌّ ولا يقال عائِش.

(١) شَامَ السَّحَابَ والبرقَ: نظر إليه يتحقَّق أَين يكون مَطَرُه.
(٢) هكذا في الأصل.

وأما الثَّباتُ فالإشارةُ فيه إلى الرُّسوخ، والامتداد منه عارض.

وأما الدَّوامُ فالامتداد فيه أبْيَنُ إلا أنه في المحسوس أحْرى.

وأمَّا الخُلْدُ فكأنَّه أدخلُ في الامتداد الذي لا طَرف له.

وأمَّا الكون فهو من حركات الزَّمان وأثر الحِدْثان.

وأمَّا الوجودُ فليسَ من هذا القبيل لأنَّهُ في الحقيقة في حِضْنُ[1] الدَّهرِ إلَّا أنَّ الدَّهر لَمَّا كان أُمَّ الزَّمان استعير منه، ونُعِتَ بولده الذي هو الزَّمان.

وفي الجملة إذا تشابهت الأسماء دَقَّ الفرقُ بينها كما أنَّه إذا تباينت الأسماء شَقَّ الجمعُ بينها، والنَّعتُ إنَّما يصحُّ إذا كان عليه نور الحِس ويَتَحَقَّقُ إذا طافَ به نور العقلِ، وكلُّ خفيٍّ في ساحةِ الحِسِّ فهو بادٍ في فضاءِ العقلِ، وكلُّ بادٍ في فَضَاءِ العقل فهو خفيٌّ في ساحة الحِسِّ، ولولا هذا البَوْن لكان الاستدلالُ من الشَّاهِدِ على الغائب سهوًا، والاستنباط من الغائب في الشَّاهد لغوًا، أو لكانت الأمور ظاهرة على سِيَرٍ لا يُختلف في تناولها وإدراكها والإحاطة بها، ولكن ليس الأمر هكذا، وإذا لم يكن ما تريد فأرِدْ ما يكون، فَعَلَى هذا لا تَثِقْ بشهادةِ الشَّاهدِ في كلِّ زمانٍ، ولا تَرْتَبْ بحجة الغائب في كل زمان، لكن أضِفْ أبدًا إلى حُجَّةِ الشَّاهد أثَرًا من الغائب، وأضف إلى الغائب أثَرًا من الشَّاهدِ حَتَّى يَبين لك القياس، فإنَّ العالم متلبس، أعني أنَّ بَلَد الحسِّ مُتَاخِمٌ لِبَلَدِ العقلِ، إلا أنَّ نورَ الحسِّ وإن كان شائعًا فهو قَمَريٌّ، ونور العقل وإن كان غير شائع فهو شمسيٌّ. وأنَّ دائرة هذا، أعني القمر، من دائرة هذا، أعني الشَّمس، فافهم فإنَّ هذه النُّكتة متلقَّاة بالتَّحيَّة، وهذه العويصة مُوَشَّحةٌ بالرَّحْمَةِ.

قد بَعُدْنا عمَّا كنَّا فيه بهذا الاعتراض، والرَّأي الرُّجوع إليه، فالكلام إذا وَجَدَ مسرحًا لم يقف، والخاطرُ إذا أصاب سَحًّا[2] لم يكفَّ.

(١) الحِضْن من كُلِّ شيء: ناحيته وجانبه.

(٢) السح: المطر، والمراد هنا التداعي والتوارد.

٨- حَيَاةُ العاقبة

نعم، وأمَّا الحياةُ الثَّامنةُ فهي حياةُ العاقبة. وهي الَّتي تُنال بعد المفارقة الَّتي تُسمَّى الموت ويستفظعُها الجمهور، والاجتهاد والسَّعي والكَدْح والدُّؤوْب والاعتماد والتَّجَمُّل والتَّكَلُّف والقيام والقعود والعِبادة والزهادة والتَّعب والمشقَّة والقلق والسُّؤال والجواب والاستعانة كلها لهذه.

وإنَّما احتيجَ إلى جميع ما سَلَفَ القول فيه من أجلها لأنَّها الغرض الأقصى وإليها المنتهى. وهي بالتَّمثيلِ شخصٌ، وما سواها ظِلٌّ، وعَيْنٌ وما عداها أثرٌ، ويقظةٌ وما قبلها حُلم، وإنَّما كان كدح الفلاسفة اليونانيين والإلهيِّين والطبيعيِّين والمتقدِّمين والمتأخِّرين [...] بهذه الحياة الجامعة بين السُّرور والبقاء السَّرمديِّ في حظيرة القدس ومراد الأُنس، حيث لا يَتَعَذَّرُ مطلوبٌ ولا يُفقَد محبوبٌ، حيث الطمأنينةُ والرُّوحانيَّة عند ربوةٍ ذات قرارٍ ومَعين، وحيث لا عبارة لنا عن كنهه لأنَّه بَلَدٌ لا عهد لنا به، ولا ألفةَ بيننا وبين شكله، وإنَّما شعرنا بهذا كُلِّه بنورٍ إلهيٍّ سَرَى إلينا فشاع فينا ووجدناه يقينًا لا ريب فيه، وشهدناه عِيانًا لا مِرْيةَ به، والعِيان العقليُّ فوق القياس الحسِّي، لأنَّ العَقْلَ مَوْلى والحِسَّ عَبْدٌ، وشهادة المولى مقدَّمَةٌ على شهادة العبد، فلذلك عرَّينا أنفسنا جُهْدَنا وطاقاتنا عن كُلِّ أصفرَ وأحمرَ، وعن كُلِّ حلوٍ وحامضٍ، وعن كُلِّ لَيِّنٍ وناعمٍ، وعن كُلِّ زِبْرِجٍ[1] رائقٍ، وفاخرٍ فائقٍ. وفي الجملة عن كلِّ ما أَوْثَقَ القيدَ، وأَوْبَقَ[2] النَّفسَ، وأوقعَ الدَّيْنَ، وبالغَ في اجتلاب الهَلكةِ.

نعم، ورفعنا قرناء السُّوءِ من داخلٍ وخارجٍ رغبةً في تلك الحياة، وشوقًا إلى هذا الملكوت ووجْدًا بهذه الغبطة، وطربًا إلى هذا النَّسيم، وشقًّا للجيب على هذه النِّعمة، تَدَرُّجًا إلى هذه العَاقبة. ولعمري إنَّ من سافر إلى بَلَدِ العدلِ والأمنِ والخِصْبِ مرَّ في

(١) الزِّبْرِجُ: الحليةُ والزينة من وشي أَو جوهر أَو نحو ذلك.
(٢) أوبقَ النفسَ: أهلَكَها.

طريقه على كلِّ مشقَّةٍ، وقلَّة أعوانٍ، وجَدْبٍ. وما هذا والله بالصَّعبِ ولا بالشَّديدِ، مع هذا العمر القصير، والعيش العسير، والعوارض المؤذية، والشَّدائد المعترضة والآفات المتردِّدة.

نسأل الله الذي بيده ملكوت كلِّ شيءٍ أن يُحَوِّلَنَا من هذا العَناء المحشوِّ بالعَناءِ بعد العناءِ إلى ذلك الجِوارِ المكنون بالقرارِ بتيسيرٍ وتسهيلٍ، ورضى قلبٍ، وتسليمِ نفسٍ، ورِقَّةِ بالٍ، وفؤادٍ مجيد قريب مجيب.

الحياتان الباقيتان

فهذا شَرْحُ أصنافِ الحياة الثَّمانية على ما جادت القريحةُ، وساعدت العبارةُ عليه، فأمَّا الحياتان الباقيتان اللتان أحدهما للملائكة، والأُخْرى الَّتي بها يقال لله تعالى جَدُّهُ حَيٌّ فليستا من الأصنافِ الَّتي يَلِجُ الوهم في كُنْهِها، أو يُلِمُّ النُّطق بحقيقتها، ونُعُوتها لم تقع إلينا جملةً في عَرَضِ التَّسليم والتَّعظيم، وكم من جملةٍ نَبَا التَّفصيلُ عنها، وكم من تفصيلٍ وقف عن جملته البيانْ، ولهذا حَسُنَ أن نسلو عن كلِّ فائتٍ من تلك المعان[1]، ونتَعَلَّلَ بما وضَحَ لنا في هذا المكان، ولا نَتَكَلَّف ركوبَ البحرِ بلا سفينة صحيحةٍ، ولا آلةٍ حاضرةٍ، ولا ملَّاحٍ ماهرٍ، وذلك الجِرْم[2] محروس من إشراق الوهم، ومن تغلغل العقل، ومن رسوم الذَّواتِ، ومن حدودِ الصِّفاتِ، ومن الْجَسَارَةِ على ما يجلُّ عنه، ويعتلي عليه.

نَحْنُ مكانيُّونَ، زمانيُّون، خياليُّونَ، وهميُّونَ، ظِنِّيُّونَ، مُتَقَسِّمونَ مِمَّا كانَ وما يكون، حَرِيِّونَ بالجهلِ، جديرونَ بالنَّقْص. وإنَّما نُدْرِكَ بعضَ ما ندْرك إذا صَفَتْ طينتُنا، وزالَ عنَّا تَقَسُّمُنَا، وفارقنا وَهْمُنا، وزال حِسُّنا، وعَلا زمانُنا إلى دهرنا، وعَطَفَ علينا العقلُ

(١) الأصل أن يقول: المعاني، ولكنه جاء بها هكذا للسجع مع كلمة (البيان) السابقة.

(٢) الجِرْم: الجسد، وجسم كُلِّ شيء من حيوان وغيره، والأجرام الفلكيّة: الأجسام التي في الفلك مع ما فيها.

بِشُعَاعِهِ، وأودعنا ما هو من جواهِرِهِ ودُرَرِه. فأمَّا ما دمنا نرتكض في ظلِّهِ الهيولى[1] فإنَّا نفقد كلَّ حظٍّ جسيم، ونَتَّجِهُ على كلِّ فائت متمنًّى، فإذا أقررنا بهذا الإشكال العويصِ فقد حَرُمَ الكلامُ في هاتين الحياتين اللتين ليستا من باب الهيولى والصُّورة وتخطيط الطِّينة المهينَة، إلا من جهة الدَّلالةِ عليها من ناحية الاسم المستعارِ لها، فَذَا هذا. وقد سقنا كلامًا لزمنا من حثٍّ على نظمٍ منتثر، وجمعٍ منتشر، على أَنَّا لو أَردنا شرحَ ذلك بنوعٍ آخرَ من البيان لَكُنَّا نعجزُ عنه، أو نتَعَرَّضُ لحدوثِ الْمَلَلِ منه، ونرجع إلى ما وعدنا من إضافة لُمَعٍ من كلام فلاسفة اليونان وغيرهم إلى ما تَقَدَّمَ، فإنَّ في ذلك معونةً لما مضى، وتنبيهًا على حقيقته، ونفيًا للشُّبهةِ إنْ عَرَضَتْ فيه، وإن وجدنا قُوَّةً في الكلام على شيءٍ منها وصلنا بما يزيدها صقالًا عند السَّمْعِ، ويزيدها جمالًا عند الفَهْم، ويُكْسبها ثقةً عند النَّفسِ إن شاء الله تعالى.

* * *

الحيوات عند الفلاسفة

عند أوميرُس:

قَالَ أوميرُس[2]: إنِّي لأعْجَبُ من النَّاس وهم يُمْكِنُهُم الاقتداء بالله سبحانه وتعالى فَيَدَعُونَ ذلك إلى الاقتداء بالبهائم والسِّباع.

فَقَالَ تلميذُه: لَعَلَّ هذا هو لأنَّهُم قد رأوا أنَّهم يموتونَ كما تموتُ البهائم.

فَقَالَ أوميرُس: فلهذا السَّبب يكثر تعجُّبي منهم؛ من قبل أنَّهم يحسبون أنَّهم

(١) الهَيُولَى: مادَّةُ الشيء التي يصنَع منها، كالخشب للكرسيِّ، والحديدِ للمسمار، والقطنِ للملابس القطنية. أما الهَيُولَى (عند القدماء): فهي مادةٌ ليس لها شكل ولا صورة معيّنة، قابلةٌ للتشكيل والتصوير في شتَّى الصور، وهي التي صنع الله تعالى منها أَجزاءَ العالم الماديّة. والهيولي نسبةً إليها.

(٢) هو هوميروس، وهو شاعر إغريقي شهير وهو كاتب الملحمتين: الإلياذة والأوديسا. قام بتخليد حرب طروادة شعرًا بدقة متناهية والتي يُعتقد حدوثها العام ١٢٥٠ ق.م، ويُعد مع هسيودوس ينبوع الشعر الإغريقي وذروته.

لابسون بَدَنًا مَيِّتًا ولا يحسبون أنَّ في ذلك البَدَنِ نفسًا حيَّة غير مائتةٍ.

وفي هذا الذي قال هذا السَّيدُ تنبيهٌ تامٌّ، وزجْرُ نافعٌ، وإيضاحٌ لبعض ما يمرُّ بأطرافه الشَكُّ. ويبعد في أحكام الحكمة أن يكون الإنسان مع فضائله الَّتي هي العقلُ والتَّمييزُ والمعرفةُ والعلمُ يفارقُ البهيميَّةَ والسَّبُعيَّة في الأوَّل بالتَّحقيق، ثُمَّ يصيرُ مشاكلًا لهذا الثَّاني أَعني في الفناء والبُطْلان، كأنَّ الخيرات الَّتي مُنحَها وخُصَّ بها إنَّما كان الغرضُ فيها أن يَعْتَملَها في منافع هذه الحياة النَّاقصة المنقصة والأحوال البائدة المنتهية. لا وحَقَّ العقل الذي إذا شهد صَدَق، وإذا بَيَّن حَقَّقَ، بل وقعت الميزة والخصُوصيَّةُ في هذا الطَّرف لتكونَ مستصحبةً للتَّضاعفِ والتَّزايد والاستثمار إلى الطَّرف الآخر، ولا تضيع ولا تضمحلُّ بل تبقى وتثبت وتنمو وتزكو لأنَّها لو انقضت بانقضاء الإنسان، ولم تُثمر في الثَّاني بعد أن أَزهرت في الأوَّل، ولم تخفف آنفًا كما وعدت سابقًا، ولم تتم بباطنها كما نقصت بظاهرها، ولم ترمز لغايتها كما أفصحت لشاهدها لكانت الحكمةُ مبتورةً، والقُدْرَةُ مقصورةً، والجودُ مَشُوبًا، والكَرَمُ مروبًا[1]، واليأسُ واقعًا، والخيبةُ غالبةً، والرَّجاءُ ضائعًا، ومعاذ الله من ذلك.

بل لَمَا كان مبدأ السِّباعِ والبهائم مخالفًا لمبدأ الإنسان بالصُّورةِ المشاهَدةِ بالعين والصُّورةِ المدْرَكةِ بالعقل كان الإنسان مخالفًا لمنتهى البهائم والسِّباع بالاعتبارِ المستفادِ من العقلِ، والتَّمييزِ الحاكم بالأولى والأُخرى، والرَّأي المصفَّى من الهوى.

(١) الشَّوْبُ : ما اختلط بغيره من الأشياء وبخاصّة السوائل. والرَّوْبُ: اللبن الرائب. وفي الحديث النبوي: «لا شوْبَ ولا روْبَ في البيع والشراء» أي لا غِشَّ ولا تخليط ، وأصل الشَّوْب الخلط ، والرَّوب من اللَّبن الرَّائب لخلطه بالماء.

عند سقراط:

قال سقراطُ[1]: نَحْنُ نعيش عيشًا طبيعيًّا كي نعيشَ عيشًا عقليًّا. فإذا كان العيشُ الطبيعيُّ إنَّما نحتاجُ إليه للعيشِ العقليِّ فلا نعطي القوَّةَ الطبيعيَّةَ شيئًا أكثر مما تدعو إليه الحاجة والضَّرورة.

وهذا الذي قاله هذا الفاضلُ بَيِّنٌ، وهو غنيٌّ عن التَّفسيرِ، وقد نَضَّرَ ما تَرَدَّدَ الخطابُ فيه، وتألَّف القول عليه، وسارت العبارة الصَّريحةُ والإشارة الكُلِّيَّةُ نحوه.

عند زيد بن رفاعة:

وقَالَ زيدُ بن رفاعة[2] لتلميذه: لا تَخَفْ مَوْتَ البَدَنِ، ولكن يجب عليك أَن تخافَ مَوْتَ النَّفْسِ.

فَقَالَ تلميذه: لِمَ قلت: خافوا مَوْتَ النَّفْسِ، والنَّفْسُ النَّاطقةُ لا تموتُ عندك.

فَقَالَ: إذا انتقلت النَّاطقةُ من حدِّ النُّطقِ إلى حَدِّ البهيميِّ، وإنْ كان جوهرها لا يبطل، فإنَّها قد ماتت من العيش العقليِّ.

قَالَ أبو سليمان[3]: صَدَقَ هذا السيِّدُ، لأنَّ النَّفسَ كما تستنيرُ بالمعارف الصَّحيحةِ

---

(١) سقراط هو فيلسوف يوناني، ولد في أثينا عام ٤٦٩ ق.م وتوفي عام ٣٩٩ ق. م، ويعتبر أحد مؤسسي الفلسفة الغربية. لم يترك سقراط كتابات، وجُلُّ ما نعرفه عنه مستقى من خلال روايات تلامذته عنه. ومن بين ما تبقى لنا من العصور القديمة، تعتبر حوارات «أفلاطون» من أكثر الروايات شموليةً وإلمامًا بشخصية «سقراط».

(٢) هو زيد بن عبد الله بن مسعود بن رفاعة أبو الخير الهاشمي، من إخوان الصفاء. عاش في الري والبصرة، تبحر في معظم علوم عصره وفنونه، توفي بعد سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م.
وقد ذكره أبو حيان التوحيدي في أيضًا في رسالة (إخوان الصفا) التالية وذكر فيها أنه كان ذا ذكاء وذهن وقاد ويقظة واتساع في الفنون من النظم والنثر والكتابة والبراعة في الحساب والحفظ لأيام الناس ... إلخ.
وكان قد صحب المقدسي والمهرجاني والريحاني، وَغيرهم وهم الذين كانوا وضعوا رسائل إخوان الصفا وراموا الجمع بين الفلسفة والشريعة وقصتهم في ذلك مشهورة وساق أبو حيان قصتهم بطولها.

(٣) هو أبو سليمان المنطقيّ السِّجِستانيّ (محمد بن طاهر بن بهْرَام)، فارسي الأصل، عربي المربى. كان أنبغ فيلسوف في بغداد في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري. ذكره أبو حيان كثيرًا في كتبه. توفي في بغداد عاد ٣٨٠ هـ . انظر ترجمته في الوافي بالوفيات للصفدي (٣/ ١٣٨).

والعقائد اليقينيَّةِ، والحركات المعتدلة، والفِعَالِ الواجبةِ كذلك تصدأ وتُظلمُ وتثوي بالجهالات الرَّاكدة، والآراءِ الفاسدةِ، والحركات المختلطة، والأعمال الشَّنيئة، والحالاتان في طرفين متباعدين وليس الصَّدِئُ كالْمَجْلُوِّ، ولا الطَّالع كالغارب، ولا الوجه كالقفا، ولا العالي كالسَّافل، الأمور موزونةٌ، والمثالُ واضحٌ، والقياس صَدُوقٌ، والاعتبار حَقٌّ، والتَّقصيرُ وَبَالٌ، والهويناء سَفَهٌ، والاحتياطُ محمودٌ، والمستظهِرُ مغبوطٌ، والرَّاغبُ إلى الفاني فانٍ، والرَّاغب في البقاء باقٍ، ومن طلب وَجَدَ، ومن جَبُن استنجد.

عند سويقلس:

قَالَ سويقلس[1]: إنَّ الذي لا يعلم أنَّ له حياةً إلا طبيعيَّةً فَقَطْ فهو شقيٌّ. وذلك أنَّ هذه الحياة الطَّبيعيَّةَ شبيهةٌ بالظِّلِّ الزَّائلِ، والنَّباتِ السَّريع الجفوفِ، وبقاء صاحبها على الأرض قليلٌ، يسيرُ بسيرةِ البهائم، فأمَّا الذي يعلمُ أنَّ له مع ذلك حياةً نفسيَّةً يغدوها بالنُّطق فإنَّهُ غيرُ مائتٍ، وهو مغبوطٌ باقٍ يقتدي بأفعاله بالله عزَّ وجلَّ.

عند أفلاطون:

قَالَ أفلاطون[2]: لِتَكُن مبادرتُكُم إلى الخروج من الدُّنيا كمبادرتكم في الخروج من الوليمة إلى أَهاليكم.

هذا مَثَلٌ صحيحٌ واضحٌ ولو قال: لتكن مبادرتكم إلى الخروج من الدُّنيا كمبادرتكم في الخروجِ من السِّجنِ إلى أحبَّتكم في الجنان الملتفَّة، والحدائق المونقَة لكانَ أَبلغ، وفي الحقيقة أَوْغل.

(١) سويقلس: سوفوكليس، روائي مسرحي يوناني قديم (٤٩٦ ق.م – ٤٠٦)، له مسرحيات كثيرة أشهرها، أوديب ملكًا، أوديب في كولون، إلكترا، ثم: نساء تراخيس، أنتيجونة، أجاكس، فيلو كتيت، وغيرها.

(٢) فيلسوف يوناني قديم، وأحد أعظم الفلاسفة الغربيين، عُرف من خلال مخطوطاته التي جمعت بين الفلسفة والشعر والفن. عاش في الفترة من (٤٢٧ق.م – ٣٤٧ ق.م).

وقال أفلاطون: الموتُ موتان؛ موتٌ إراديٌّ وموتٌ طبيعيٌّ، فمن أماتَ نفسه موتًا إراديًّا، كان موته الطبيعيُّ حياةً له.

هذا أيضًا في غاية الظُّهور، ونزيده نُورًا بالعطفِ عليه، فإنَّ الكلام يكونُ تارةً خافيًا، وتارةً في غاية الخفاء، ومرةً بيِّنًا، ومرة في غاية البيان، فالحاجة إلى تفسير ما في غاية الخفاء أشدُّ من الحاجة إلى ما هو في أوَّل الظُّهور، وهذا كشعاع الشَّمسِ لما كان في غاية الظُّهورِ والانتشار كان صعب المدرك، وما هكذا القمر، فإنَّه إذا كان دون ذلك أمكن إدراكه، ويستريح النَّظرُ فيه. فبِهذا العُذْر نجسر على تفسير ما هو ظاهر بما هو أظهرُ منه، أو على تفسير ما هو أظهرُ بما هو أعدل منه، أي أقرب إلى الفهم، وألْوَط[1] بالذِّهنِ، وأقرب منالًا من العقل. فنقول:

الموتُ الإراديُّ هو قمعُ الشَّهواتِ المُرْدية، وإخماد نيرانها المُحْرِقة، وتسكين سوانحها المُتْلِفَة، ونفي نوازيها[2] الجامحة. فهذه الحالة تفرغُ النَّفسَ العاقلة لاقتناء كمالاتها الإلهيَّة، وإفاضة حركاتها العدليَّة، وإبراز سكناتها الكماليَّة، فأمَّا إذا كانت الشَّهواتُ واقدة، واللذات مطلوبة، والعادات غالبة، فإنَّ النَّفسَ العاقلة إما أن تكون ذليلةً في مكانها، أو مهزومةً عن أوطانها، أو في حرب دائرة الرَّحى، مَخُوفة العاقبة والمنتهى. وأما الموت الطَّبيعيُّ فهو غير مشكوكٍ فيه لأنَّه حائلُ الأخلاطِ، ذو قُوَّةٍ متناهيةٍ، والأخلاط مقاديرها محدودةٌ، والذَّوَبَان والسَّيلان يعملان عليها في الجملة والتَّفصيل والزَّمان بتصاريفه بمدِّ الفناء، وتحيُّفِ البقاءِ حَتَّى يكون آخر ذلك بالفراق الحسِّي. لكن بهذا الفراق الحسِّيِّ يقع ذلك الوصال العقليُّ. فهذا هذا.

وأمَّا قوله: فَمَنْ أماتَ نفسه فإنَّما أراد النَّفْسَ الشَّهْويَّة، فلا تغلط في الاسمِ إذا شابَه الاسمَ، فالأسماء قد تقترن في مواضع ومعانيها مفترقةٌ، والمعاني قد تنتظم

(١) ألوط: ألصق.

(٢) النوازي: جمع مفرده النازية، وهي الحدة والسَّوْرة. وقال الليثُ كما في (لسان العرب، مادة نزا): النازيةُ حِدَّة الرجل المُتَنَزِّي إلى الشر.

في أماكن وأسماؤها منتشرةٌ، ولهذا احتيج إلى الآلة المنطقيَّةِ والأمثلة القياسيَّةِ في الأمور الجزئيَّةِ.

وأمَّا قوله: كان موتُه الطَّبيعيُّ حياةً له، فقد تَقَدَّمَت شهادة الحقِّ في طيِّ ما سَلَفَ من الشَّرح.

عند دمقراطيس:

وقال دمقراطيس[1]: أمِت الشَّهواتِ في النَّفسِ، ولا تُمِتِ النَّفسَ في الشَّهواتِ، فإنَّكَ إذا أمتَّ الشَّهواتِ فيها فقد ألقيتَها في الشَّهوات وإذا أمتَّها في الشَّهواتِ فقد حَرَمْتَها الشَّهوات.

يريدُ بذلك أنَّكَ إذا حَرَمْتَهَا حظوظها العاجلة فقد وهبتَ لها حظوظها الآجلة، وإذا غَمَسْتَها في حظوظها العاجلة فقد حُلْتَ بينها وبين حظوظها الآجلة، وهذا واضحٌ.

وقال فيثاغورس[2]: النَّفْسُ بَحْرُ الشَّهواتِ، والعقلُ بحرُ النَّجاةِ، والحكمة بَحْرُ الخيرات، والجهل بَحْرُ الضَّلالاتِ؛ والْمَوْتُ بَحْرُ الحياةِ.

المَوْتُ بينَ الخيرِ والشَّرِ

وقيل لدوفنطس[3]: ما تقول في الموت: أخَيْرٌ هو أو شَرٌّ؟

فقال: أيُّ خير في فرقة الأحباب، وذوي المودَّات لولا الفَكُّ من الأسرِ، والرَّاحة من الجبر والكسر.

(١) دمقراطيس أو ديموقريطس: فيلسوف يوناني (٤٦٠ ق. م- ٣٧٠ ق. م) اشتهر بفلسفته الذرية، من كتبه: فيثاغورس، في جهنم، في الفضيلة، في الأفلاك، في طبيعة الإنسان، مسائل في السماء.

(٢) فيثاغورس: فيلسوف يوناني اشتهر بفلسفته الرياضية والصوفية، وبنظرياته الرياضية، عاش في الفترة من سنة ٥٧٠ ق. م حتى سنة ٥٠٠ ق.م.

(٣) هو ديوفنطس الإسكندراني، له كتاب شهير في الجبر.

وقيل لنقوماخوس[1] ذلك فقال: نِعْمَ المآبُ لولا فُرقةُ الأَحباب وما تتوعَّدنا [به] الآلهةُ من العذاب.

هذه إشارةٌ إلى سُوءِ العاقبة الذي كسبه بسوءِ الاختيار. واسم الآلهة هاهنا مستعارٌ.

وسمعتُ بعضَ الزهَّادِ عند موتِهِ يقولُ وقد نَظَرَ في وجوهِ أصدقائه وأصحابه وهم عند رأسه: ما أشدَّ مفارقةَ الأصدقاء.

فقلتُ له: إنْ كنتَ على ثِقَةٍ من القدوم على أصدقائك الذين قَدَّمتهم فلا تأسفْ على أصدقائك الذين خلَّفْتَهم، وإنْ كنتَ على غيرِ ثقةٍ فلا تأْسفْ وامْضُضْ[2] نَفْسَكَ بالأَسفِ عليها، فقد فاتتك وفتُّ بفوْتها.

وقال انكاساغورس[3]: كما أنَّ الموتَ رديءٌ لمن الحياةُ جَيِّدَةٌ له، فكذلك هو جيِّدٌ لمن الحياة له رديئةٌ، فليس ينبغي أنْ يُقال: إنَّ الموت رديءٌ فَقَطْ بل جَيِّدٌ أيضًا، لا بلْ ينبغي أن يقالَ: الموت ليس جيِّدًا ولا رديئًا، لكنَّهُ بالإضافة إلى شيءٍ ما يكون جيِّدًا أو رديئًا.

النُّفوس والأبدان

وقال فوثاغورس[4]: إنْ آثار الطَّبيعة في هذا العالم قد رُمِزَت بظاهرها رمزًا بعد رمزٍ ليلخصَ باطن ما في هذا العالم الذي هو قبالة ذلك العالم. فمن تلك الآثار أنَّ الطَّبيعةَ لم تُخْرِجْ أشخاصَ نوعِ الإنسانِ كاملة الأعضاء، صحيحة الآلات، بل منها الشَّخص التَّام، أعني أن يكون ذا لسان وعينَيْن ويديْن ورجليْن وسائر ما يتمُّ به البدن

(١) نقوماخوس أو نيقوماخوس: والد أرسطو الفيلسوف اليوناني الأشهر، كان طبيبًا للملك آمنتاس ملك مقدونيا.

(٢) مَضَّ الجُرْحُ الْمَريضَ: آلَمَهُ، أَوْجَعَهُ، وامضض نفسك: اجعلها تتألم.

(٣) أنكاسوغورس أو أنكساجوراس: فيلسوف يوناني، اشتهر بفلسفته الذرية التي مثل امتدادًا لها، فأنكر الصيرورة المطلقة التي تحول الكون تحولًا مستمرًّا من الوجود إلى اللا وجود، ومن اللا وجود إلى الوجود، ولد نحو سنة ٥٠٠ ق. م.

(٤) هو فيثاغورس الذي سبق ذكره.

ويقدرُ على منافعه الحاضرة والغائبة، ومنها الشَّخص المشوَّهُ النَّاقصُ كإنسان لا يدَ له ولا عين أمام العاهات المعروفة والآفات المعهودة.

وكما أن هذا الحكم ظاهرٌ في أشخاصِ هذا النَّوع كذلك الحكم واضحٌ في نفوس هذه الأشخاص، أعني أنَّ منها النَّفس الفاضلة، الكاملة، النَّقيَّة، المقدَّسة. ومنها النَّفْسُ النَّاقصة، الخسيسة، الضَّعيفة، المدنَّسة، ومنها النَّفس المتوسطة. هكذا يمكن أن نبعث بعده. وكما أنَّ الأشخاص الَّتي عدمت هذه الآلات الَّتي بها تتمُّ منافعها هاهنا معذَّبة، كذلك الأنفس الشِّريرة أحوالها في معادها ومنقلبها رديئة.

السَّعادة والشَّقاء

قال أبو سليمان[1]: وهذه عبارةٌ شافيةٌ في الشَّقاوةِ والسَّعادة؛ قال: ولو أنَّ إنسانًا قال: إنَّ العمى والخرس أو الزَّمِن أو من أشْبَه هؤلاء شقي لم يَبْعُد، وإنَّ البصير النَّاطق الصَّحيح السَّويَّ هو سعيد لم يَبْعُد، كذلك الذي نرى أن العالِمَ الخيّر الحكيم في المعاد سعيد، وإن الجاهلَ الشِّرِّير السَّعيد في الْمَعاد شقيٌّ لم يَبْعُد، فهكذا أيضًا هذا.

طبقات الناس

قال أبو زكريا الصَّيْمري[2]: طبقاتُ النَّاسِ من عَالِمٍ خَيِّرٍ أو عَالِمٍ شِرِّير، أو جاهلٍ خَيِّرٍ أو جاهلٍ شرِّيرٍ. قال: وليس في القسمة أن يكون العالِم لا خيِّرًا ولا شرِّيرًا، وأن يكون الجاهل لا خيِّرًا ولا شرِّيرًا، قال: فهذه الأحوالُ مَنُوطَةٌ برقاب أهلها في الأوَّل والآخر، والظَّاهر والباطن، أي قبل الموت بالحياة وبعد الحياة بالموت.

(١) أبو سليمان السجستاني الذي سبق ذكره.

(٢) هو القاضي العلامة، أبو عبد الله الحسين بن علي بن محمد، الصيمري الحنفي. وُلِد الصَّيْمَري عام ٣٥١ هـ في صَّيْمَرة من بلاد خوزستان ثم انتقل مِنها إلى بغداد. قال ابن عساكر في (تاريخ دمشق) واصفًا إياه في ترجمته: «كان أحد الفقهاء المذكورين من العراقيين، حسن العبارة جيد النظر». ذكره أبو حيان كثيرًا في كتاب المقابسات.

إبصار المعاد

قال عيسى بن زُرْعة[١]: قالَ بعضُ أصحابنا من النَّصارى ممن تَفَلْسَف وتَقَشَّفَ وتَرَهَّبَ: كيف يُبصرُ الإنسانُ مَعادَه بعين الثِّقةِ، وعقلُه مستأسَر في بلاد الشَّهوات، وأملُه موقوفٌ على اجتناب اللذَّات، وسيرتُه جاريةٌ على أسْر العادات، ودينُه مستهلَكٌ بضروب الضَّلالات، والله لو انسلَّ من نَفْسه الغَضُوب، ومن نَفَسِه المرغُوب، وصار في باحة الصَّفاء، وفضاءِ الطَّهارة والسَّناء، لكانَ الإلف الذي نَشَأَ منشأه، وقويَ بقوَّتِه، وزادَ بزيادتِه، وَشَرُفَ بامتداده يُقذي عينه، ويُدْمي جبينه، ويغطي عليه أُبَنَهُ[٢]، ويلفته عن سُنَّتِه، ويُزلُّ قدمه في مسلكه، فكيف وهو في الشَّهواتِ منغمسٌ، وفي الشُّبهاتِ مُرْتَكِسٌ[٣]، وعن الرِّياضة نائمٌ، وعن النَّاصِحِ مُعْرِضٌ، وعلى المُرْشِد مَعترضٌ، وإلى ما يضرُّ جانحٌ، وعمَّا ينفعُ نازحٌ.

قال أبو الخير الخمَّار[٤]: إنَّما شَقَّ على الإنسان الخروجُ من هذا العالم من ناحية تركيبه الذي كان به موجودًا في عالم الحسِّ. ولو عَلِمَ أَنَّهُ بالتَّركيبِ كان إنسانًا، وبالحكمة كان كاملًا عَلِمَ أنَّ الوجودَ الذي كان له بالتَّركيبِ كان مستفادًا من هذا البسيط، وأنَّ أحدَ الوجودَيْن ظِلٌّ للوجود الآخر، وأنَّ الظِّلَّ زائلٌ، والشَّخصَ ثابتٌ، ولكن كما أنَّ الإنسان لا يُحسُّ بما يبقى في النَّوعِ من بعده كذلك لا يُحِسُّ بما يبقى

(١) ابنُ زُرْعة: هو أبو عليٍّ عيسى بن إسحاق بن زرعة؛ عالمٌ بالفلسفة والمنطق، من نصارى بغداد، ترجم عدّة مؤلّفات إلى العربيّة. ولد ببغداد سنة ٣٧١هـ/ ٩٨٢م وتوفي فيها سنة ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م، بينما روى القفطيُّ أنه توفّي سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٨م.

(٢) الأُبَن: جمع مفرده أُبْنة، ومعناها العيب.

(٣) مُرْتَكِسٌ: منتكس.

(٤) هو أبو الخير الحسن بن سوار بن بابا بن بهنام. وكان يعرف في بغداد بابن الخمار. كان نصرانيًّا، من أكابر الفلاسفة وأفاضل الحكماء. أخذ عن يحيى بن عدي وغيره وكان يوصف بحدة الذكاء وقوة الفطنة وسعة الاطلاع على علوم الأوائل. وقد نقل كتبًا كثيرة من السريانية إلى العربية، مع الإجادة والإتقان. وكان في صناعة الطب على طريقة بقراط وجالينوس وغيرهما من أكابر الحكماء. وله في العلوم مصنفات عدة.

في العقل من بعده، فإلفُ التَّركيب يحدُّ عن الاستيحاش من البسيط لأَنَّهُ عَدَمُ ما ينظر الحِس، أعني الموتَ، والعدَم كونه جملة، إلا أَنَّهُ كما شقَّ على الإنسان النَّاقص النَّقلة من هذا الوجه، هانت على الإنسان الفاضل من ذلك الوجه، لأَنَّهُ إذا كان مُطَّلعًا على الغيبِ، منقطعًا عن الشَّهادة أقبلَ على بسيطِه الذي كان غريبًا من تركيبه وعلم أنَّ هذه الحال إنَّما هي تخيُّله تركيبَهُ الذي وَرِثَه من الهيولى والصُّورة إلى بسيطه الذي ناله من الصُّورة، فهذا العِرْفَانُ في هذا المكان مسكنةٌ للنَّفسِ، ومَصْرفةٌ للقَلَق، ومجْلَبةٌ للأُنس، وهاهنا يحدث الشَّوقُ إلى الله تعالى وإلى الدَّارِ الآخرة، وإلى ما أعدَّ للعارفين والموحِّدين له، والطَّالبين لمرضاته، والرَّاغبين في خدمته، والمجاهدين في سبيله، والشَّائمين لوائِحَ ما سَطَع من عنده.

غفلة القلوب

قال أبو سليمان: إنَّما أُتِيَ النَّاسُ في اضطراب أسرارهم عند هذه الحقائق للغَفْلة الجاثمة على قلوبهم.

فَقَالَ الأندلسيُّ: ما الغَفْلةُ؟

فَقَالَ: سهو الفؤاد بِرَكاكة المِزاج، وبلادة الطِّباع.

ثُمَّ قَالَ: والغَفْلَةُ في اليقظةِ بإزاء الحُلم في النَّوم، واليقظة في الحسِّ بإزاء الاستضاءة في العقل، وكما أن اليقظة في الحس على نوعين، كذلك الاستضاءة في العقل على نوعين، فَأَحدُ نوعي اليقظة في الحِسِّ أنَّ صاحبها يَنْفَذُ في الأمور الحِسِّيَّة، ويتوغَّلُ فيها بمكرٍ ودهاءٍ وكَيْسٍ وفَطانة واحتيالٍ، والنَّوعُ الآخر في اليقظة أنَّ صاحبها يُقبل على نفسه وجوهره وحقيقته فيعتني بمعرفتها، والعناية بها بتربية العقل من حركات تعظِّمها بالعَدَالَةِ وسكنات تنيرها بالسَّواء.

وفي الجملة يلحظُ عواليَ الأمور، ويتحلَّى بعَالي الأخلاق، ويكون في ظاهرِهِ

إنسانًا مجهودًا، وفي باطن ظاهرِهِ مهذَّبًا زكيًّا، وفي ظاهر باطنه ملكًا كريمًا. وهذا تمثيلٌ على تقريب، واللفظ ظلوم، والعبارة فَتَّانَةٌ، إمَّا تضع إلى النَّقصِ المتحيِّفِ، وإمَّا ترفع إلى الزِّيادة المُفسدة.

وأمَّا أحدُ نوعي الاستضاءة في العقلِ فهو ما يحصلُ لهذا الإنسانِ المَعْنِيِّ بخاصَّةِ نفسه، المُعانِ على الاقتباس بعقله، القاصد إلى اقتباس حياته الدَّائمة من حياته الميِّتَةِ المنقطعة.

فإنْ قلتَ: وكيف يكون هذا؟ وهل يجوز أن يقتبس حياةً دائمةً من حياةٍ منقطعةٍ؟

فهذا أوَّل غفلتك، وأجنى جانٍ عليك. أنت قد تشعل سراجك من سراج آخر قد أشْفى على الانطفاء، فَيَتَّصِلُ الثَّاني وينقطع الأوَّل.

فإنْ قلتَ: إن هذا الثَّاني إذا اشتعل فهو أيضًا إلى الخمود، فاعلم أنَّ ذلك إنَّما هو كذلك لأنَّكَ نَقَلْتَ شيئًا من زمانٍ إلى زمانِ الحقِّ متشابه حكمًا بما فيه، وهذا التَّشابه لا يعاند الحكم الأوَّل، أعني أنَّهُ إن زَهَرَ السِّراجُ[1] الثَّاني باشتعاله من الأوَّل الخامدِ. فأمَّا المقتبس لحياته الدَّائمة من حياته المنقطعة فإنَّهُ يسير من حياة زمانيَّة إلى حياة دهريَّة بدليلِ أنَّ الزَّمان خليفة الدَّهرِ، فما كان محفوظ العين بالزَّمان كان محفوظَ العين بالدَّهر، لا فاصلة بين الزَّمان والدَّهر، لأنَّ آخرَ الزَّمانِ موصولٌ بأوَّلِ الدَّهرِ؛ والدَّهرُ زمانٌ ولكن في هذا العالم، والزَّمانُ دهرٌ ولكن في ذلك العالم. فلا تعجب من زمانيٍّ تحوَّل دَهْريًّا بالمشابهة النَّفسيَّةِ والمَشاكَلَةِ الجوهريَّة. فالحياتان واحدةٌ وإن توسَّطهما الموت، كما أنَّ الشَّمسَ واحدةٌ، وإن توسطتها الأرض وأعني قرص الشَّمسِ، والشُّعاع المبسوط على الأرض.

(١) زَهَرَ السراج: أضاء.

ما يكمل به الإنسان

تَنَفَّسَ القول بما اعترض، وطال قليلًا ونرجع إلى فضِّ ما كنا عليهِ ونقول: وأمَّا النَّوع الآخرُ فهو ما يكملُ الإنسانُ كمالًا لا عبارة لنا عنه في هذا الوطن، ولا خبر عنه عند أحد من هذا النَّوعِ، وهذا هو الذي خلص من جميع ما دعا إليه الأنبياء عليهم السلام، وحضَّ عليه الحكماء، وتردَّدَ بين تعريض في غاية الحلاوة، وتصريح في نهايةِ الخطابة، وهاهنا نستغني عن كُلِّ دليلٍ وبرهانٍ، وعن كُلِّ قيلٍ وقالٍ، لأنَّ المطلوبَ يصيرُ وجودًا، والملتمسَ يصيرُ مُدْرَكًا، والمبتغَى يصير حاضرًا، فما أولانا بعد الإشراف على هذه السَّبيل الواضحةِ بالعقل، المسلوكةِ بالقَصْدِ أن نُنْفِقَ هذه الأيَّامَ اليسيرةَ القصيرةَ السَّاعات، المحدودة المعدودة في طلَب هذه المراتب العليَّةِ، والدَّرجاتِ الشَّريفةِ، والأحوال الحسَنَةِ الكريمة.

موقف النَّاس من الموت

قال أبو سليمان: النَّاسُ في حديثِ الموتِ ثلاثة، فأمَّا الغنيُّ ذو الجِدَّة والقُدْرَةِ والثَّروةِ فهو يكره الموتَ بالبيِّنَةِ، وفي مقابلته الفقيرُ الشَّقيُّ السَّيئُ البَخْتِ المحرومُ المرحومُ. وهذا على الضِّدِّ يتمنَّى الموتَ.

والأوَّل إنَّما يكرهه لأنَّه يحبُّ أن ينال اللذَّة، ويغرق في الشَّهوة، ويستمتع بالنِّعمةِ، وإن كانت غايتُه في هذه الحال الكَلالَ والانحلالَ والانقطاعَ.

والثَّاني: أعني الفقير، إنَّما يَتَمَنَّى الموتَ لِيَتَخَلَّصَ من الحسرةِ الخانقة، والحُرقة اللازمة، والحاجة الفاضحة، والأسف الرَّاتب[1]، والضَّجر الغالب، فهذان على تقابلهما منقوصان منحوسان قد زلَّا وضلَّا وتردَّيا في الهوَّة السُّفلى وما لهما ناعشٌ[2]،

(١) الرَّاتب: الثابت الدائم.

(٢) ناعِش: فاعل من نَعَشَ، ونعَشَ الشَّيْءَ: أَنْهَضَهُ، أَقَامَهُ.

ولا ناصرٌ، ولا شفيقٌ، ولا ناصحٌ.

قال: فأمَّا الثَّالثُ فهو الحكيمُ الذي قد وَثِقَ بالمعَاد، واطمأنَّ إلى حُسْنِ المنقلَبِ، فهو يدأب في أخذ العتاد، وإعداد الزَّادِ للحياة الصَّافيةِ الَّتي هي في مقابلة الحياة الكَدِرة، ويكون دؤوبُه ونَصَبُهُ على قَدْرِ استبصاره وشوقهِ إلى الله تعالى في وَزْنِ معرفته بالله، ومطالعته على حسب يقينه في نَفْسِه، وخطواته على استقامة صراطه، واجتهاده في مثال قُرْبه، وحنينه يتلو رُقِيَّهُ، ورِقيُّهُ في وَزن صفائه، وهذه مقالة لا تلج كلَّ أُذن، وصَوْبٌ[1] لا يلين به كلُّ طين، وعين لا يشرب منها كلُّ واردٍ، وترنُّمٌ لا يطرب عليها كلُّ سامع، ولحن لا يفهمه كلُّ فَطِنٍ.

قال: وإنَّما حرمت هذه الحكم لأنَّ النَّاسَ قد ملكتهم الطَّبيعةُ، وخدعتهم العاجلة، وقَمَرهم[2] الشَّبابُ، وخَمَرَهُم الشَّرابُ، وسباهم الهوى، وتحكَّمَ فيهم الرَّدَى. ولا جَرَمَ، والحقُّ كالبارق في عقولهم، والحكمةُ كاللعقة على ألسنتهم، لا في درجات الدِّيانة يرتقون إلى الجنَّةِ، ولا بنصائح الحكم يتنقَّون من أوساخ الشُّبهةِ والظِّنَّةِ[3].

وكانَ أبو سليمان إذا نَزَلَ هذا الوادي من القول قام خطيبًا، فَبَذَّ كلَّ قائلٍ، وسَبَقَ كلَّ جَوادٍ، واستولى على كلِّ أمدٍ، وأنشدَ أبو سليمان قول شاعرهم:

إنَّمَـا العَيْشُ فِي بَهِيْمِيَّـةِ اللـ ـــذَّةِ لا مَا يَقُولُهُ الفَلْسَفِـيُّ

حُكْمُ كَأسِ الْمَنُـونِ أن يتَسَاوَى في حسَـاهَا الغَبيُّ والأَلْمَعِـيُّ

وَيَصيرُ الغَبيُّ تَحْتَ ثَرَى الأَرْضِ كَمَا صَـارَ تَحْتَهَـا اللَّوْذَعِـيُّ

(١) الصَّوْبُ: المطر بقَدْر ما ينفع ولا يؤْذي.

(٢) نقول: قَمَرَتْ فلانةُ قلبَه: شغفته حبًّا. وقَمَرَهم الشبابُ: أي اغتروا وأعجبوا بشبابهم.

(٣) الظنة: التهمة. والجمع: ظِنَن.

فَسَلِ الأرضَ عَنْهُمَا أنْ أزالَ الشَّكَّ والشُّبْهَةَ السُّؤالُ الخفــيُّ[1]

فَقَالَ: هذا النَّمطُ مَفْسَدَةٌ للشَّبابِ الأغرار، والذين ليست لهم بصيرةٌ في الأمور، وهم عبيد الإحساسات الوافدة بالعادات الفاسدة، والاعتقادات الرَّديئة بتلقين قرناء السُّوء، وقائل هذا قد عاندَ الدِّين، وخلع رِبْقَة[2] الحياء، وأفصح عن الفساد، وصَدَّ عن الحكمة، وقَدَحَ بِزِنْدِ الشُّبهةِ في النُّفوسِ الضَّعيفَةِ، والعقول الخفيفة.

وهم التساوي

يا مَسكينُ! أَمِنْ أجلِ أنَّ الصَّالِحَ والطَّالِحَ والعالِمَ والجاهلَ صاروا تحتَ التُّرابِ يتساوون في العاقبة؟ أمَّا تساوى قومٌ سافروا من بَلَدٍ إلى بَلَدٍ فَلَّما بلغوا المقصد نَزَل كلُّ واحدٍ في مكانٍ كانَ معدًّا له، وتُلِقِّيَ بغير ما تُلُقِّيَ به صاحبه؟ أمَا دَخَلَ قومٌ دارًا فأُجْلِسَ كُلُّ واحدٍ منهم في بقعةٍ بعينها، وقوبل هذا بشيء، وهذا بشيء آخر ثُمَّ تقُول: سَلِ الأرضَ عنهما!

قد سألنا وخبَّرَتْنا أنَّها ضمَّت أجسادَهم وجثثَهم وأبدانَهم لا كفرَهم وإيمانَهم، ولا أنسابهم وأحسابهم، ولا حكمتَهم وسَفَهَهم، ولا طاعتَهم ومعصيتَهم، ولا أقوالَهم وأفعالَهم، ولا يقينَهم وشكَّهم، ولا زَهَادَتَهُم وتسبيحَهُم، ولا معرفتَهُم وتوحيدَهُم، ولا خيرَهم وشرَّهم، ولا جَوْرَهم وعدلهم. والمنقلبُ إلى المعاد موقوفٌ على هذه الحالات الَّتي عددناها وعلى أمثالها وإن لم نعدها لا على الجثث البالية، والأبدان

(١) أورد الصفدي هذه الأبيات في الوافي بالوفيات عند ترجمته لأبي سليمان كالآتي:

لذَّة العيش في بهيميَّة اللـــــ ـذة لا ما يقوله الفلسفـــيُّ
حكمُ كأس المَنُونِ أن يتساوى في حساها الغبيُّ والألمعـيُّ
ويحلُّ البليدُ تحت ثــرى الأر ض كما حل تحتها اللوذعيُّ
أصبحَا رُمَّةً تَزايل عنهـــــا فصَلُها الجوهريُّ والعَرَضيُّ

(٢) الرِّبْقَةُ: الحبلُ والحلقة تشد بها الغنم الصغار لئلا ترضع، وجمعها أرباق ورباق وربق، ومنها استعيرت الربقة للعهد، فنقول: خلع الربقة: نكث بالعهد وتحلل منه.

المتحلِّلَة، واللحوم المنتنة، والشُّحوم الذَّائبة، والمُهْل[1] الجاري، وهذا كُلُّه خبرٌ عن الأصداف، فأين الخبرُ عن الدُّرَرِ الَّتي كانت في الأصداف؟ وأين الأعلاقُ من الحقَاق[2]، وأين الأمتعةُ من الأوعية، وأين اللطائفُ من الكثائف؟ وأين القشورُ من اللُّبِّ؟ وأين الجواهرُ الباقيةُ من الأعراض الفانية؟

النَّاظرونَ نوعان

ثُمَّ قال: اعلم أنَّ النَّاظرَ في هذا الكتاب رجلان: رجلٌ ينظرُ إلى الأشياء ورجلٌ ينظرُ في الأشياء. فالأوَّلُ يحار فيها لأنَّ صورَها وأشكالَها ومخاطيطَها تستفرغُ ذهنَه، وتستملكُ حِسَّهُ، وتبدِّدُ فِكرَه، فلا يكون له منها ثمرة الاعتبار، ولا زبدة الاختيار، وإذا فَقَدَ الاعتبار في الأول فَقَدَ فائدةَ الاختيار في الثَّاني، وأما النَّاظرُ في الأشياء فإنَّهُ يَتَأَنَّى في نَظَرِه، وتأنِّيه يبعثه على التَّصفُّح البالغ، والتَّصفُّحُ البالغُ يؤدِّيه إلى تمييز الصَّحيح من السَّقيم، والباقي من الفاني، والدَّائم من العارض، وما هو قشرٌ مما هو لبٌّ، وما هو شِعارٌ مما هو دِثارٌ[3]، وما هو شجرة مما هو ثمرة، فيعلم حينئذٍ أنَّ الدُّنيا قشرةُ الآخرة، وأنَّ الآخرةَ لُبُّ الدُّنيا، وأنَّ الموتَ صراطٌ إليها، والعابر على الصِّراط حريٌّ بجمع الزَّاد وتمهيد المهاد، وأنَّ نشأه في هذه الدَّار لم يكن الاستيطانُ والخلودُ، ولكن للجواز من مكان إلى آخر يصلح للمقام والتبوُّء والتَّمهيد، فإنَّ الإنسانَ إلى ذلك دعيٌّ بكلِّ لغةٍ وبكلِّ لطيفةٍ. فمَنَ أطاعَ وأجابَ فقد هُدي إلى سواء الصِّراط، ومن أبى فقد تَرَدَّى في هوَّةِ العذاب، ولا سبيل إلى الإجابة إلا بعدَ رفض كلِّ ما خَدَعَ النَّفسَ، وخَبَلَ العقلَ، وأضلَّ الرَّأي، وزَيَّنَ العاجلةَ، وطرَحَ التُّهمةَ في الآجلة، وكان ينشد كثيرًا:

النَّفْسُ تَشْتَاقُ إلى قُدْسِهَـــا والجِسْمُ مَطْبُوعٌ عَلَى حَبْسِهَـــا

(١) المُهْل: القيح.

(٢) الحُقُّ: وعاء صَغيرٌ ذو غطاء يُتخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما، والجمع: أَحقاق وحِقاق وحُقُوق.

(٣) الشِّعارُ: ما وَلِيَ جَسَدَ الإنسان دون ما سواه من الثياب. والدِّثارُ: الثوبُ الذي يكون فوق الشِّعار.

وفِعْلُهَا يَخْرُجُ عَنْ حَـــــدِّهِ لإِلْفِهَـــــا مَا لَيْسَ مِنَ جِنْسِهَا
وَحَبْسُهَا فِي السُّفْلِ مِنْ عُلُوِّهَا أَدَلُّ بُرْهَـــــانٍ عَلَى بَخْسِهَـــا

فهذا هذا، وعلى كلِّ حالٍ وبكلِّ نَظَرٍ، فقد بانَ ووضحَ أنَّ الظَّعْنَ عن هذا المكان ضروريٌّ، وأنَّ النِّيَّةَ غير محتملةٍ لِلَّبْثِ لأمورٍ باديةٍ وخافيةٍ، فينبغي الآن أن نَصْدُقَ البحثَ عن المصير إلى الثَّاني، أهو إلى البقاءِ أو إلى الفناء، وإلى الوجود أو إلى العَدَم، وإلى الكمال أو إلى النُّقصان. أمَّا لسان كلِّ دين قديمٍ أو حديثٍ فقد أفصحَ عن البَقَاءِ والدَّوامِ والخلود السَّرمدِ في الثَّاني على اختلاف الحالات، وأمَّا الحكمة فبجميع أجزائها وفنونها قد نَطَقَتْ ونادت إلى الحياة الثَّانيةِ بعد هذه الحياة المعروفة، ولم يبقَ وراء هذين اللسانين البليغين إلَّا ما يهذي به ناسٌ سَخُفَتْ عقولهم، وخفَّت أحلامُهم، وزاغت آراؤهم، وغلبت أهواؤهم، وقَصُرَ نظرُهم، وخَبُثَت طباعُهم فشقَّ عليهم الإقرارُ بالْمَعادِ والمنقلب، وظَنُّوا أَنَّهُ متى لم تكن هذه الحال عيانًا أو كالعيان فإنَّمَا هو ظَنٌّ وتَخَيُّلٌ وحِسْبَانٌ.

قَالَ: ولو كانَ الأمرُ على ما زعموا لم يُحْتَجْ إلى العقل وبحثه، والنَّظرِ واستنباطه، والاعتبار وتمثيله، وكان الشَّاهدُ كالغائب، والغائبُ كالشاهد، والظاهرُ كالباطن، والباطنُ كالظاهر، والعينُ كالأَثر، والأَثرُ كالعين، والرَّاجمُ بهذا الظَّنِّ مغرورٌ، والمتمني لهذه الحال مرحومٌ. ولا فرق بين هذا التَّمنِّي وبينَ مَنْ تَمَنَّى أن تكون جواهرُ البحرِ كُلُّها طافيةً على ساحِلِهِ حَتَّى يُكْفَى مؤونَةَ الغوصِ في قعره، وذَهَبُ الأرض كلُّهُ موضوعًا على حديدها[1] حَتَّى يُكْفَى العناءَ في استخراجه من معدنه، وتكون الجبالُ كلُّها مدكوكةً حَتَّى يُكْفَى مشقَّةَ صعودها في حوائجه، وتكون ثمارُ الأشجار مدركةً يانعةً في كلِّ أوانٍ ومكانٍ حَتَى يُكْفَى التَّعبَ والسَّقيَ والغرسَ والانتظارَ.

وعلى هذا باب التَّمنِّي لا قِفْلَ عليه ولا حائلَ دونه. وأما اللبيب صاحبُ الحزم

(١) كذا في الأصل ولعله جددها أو صدرها.

المصيب فهو الذي ينظر إلى العالم نظرًا بالغًا صحيحًا تامًّا ولا يعكسه عمَّا هو به، ولا ينكسه إلى ما ليس عليه، ويأخذ منه شهادة في شيءٍ سُمِّيَ بمعونة العقل النيِّرِ ذي الشُّعاعِ المنتشرِ الذي فُضِّلَ به على الجنسِ الذي هو منه وعلى كثيرٍ من نوعه الذي هو به حَتَّى ينكشف له بالعقل ما هو ملبوس بالحسِّ، ويَتَّضِحَ له بالحس ما هو غامض بالعقل، ويشهد له الذِّهنُ بما هو مجحودٌ بالظَّنِّ، وينصحه الإدراكُ فيما هو مغشوشٌ بالوهم، ويقربه اليقينُ مِمَّا يباعده الشَّكُّ، ثُمَّ لا يبقى أثرٌ للتسويلِ والتَّضليل إلا ممحوًّا، ولا كَدرٌ في طلب المعتقد إلَّا صافيًا، فحينئذ يصادف الحقَّ غير مَشكُوكٍ فيه، ويدرك المرادَ غير مرتاب به، ويوصل إلى المطلوب، واللبُّ رخيٌّ، والمشربُ هنيٌّ، والثِّقَةُ حاصلةٌ، والطمأنينة واصلةٌ، وقلَّ من يَتَدَرَّجُ إلى هذه الذُّروةِ إلَّا بعد أن يكون وثيقَ العروةِ، صحيحَ البصيرةِ، قويَّ العزيمة، محكَم الأصل، مرهَفَ النَّصلِ، وهذا قليل، ومع قِلَّتِهِ مأمولٌ.

مآل النفس

وقلتُ يومًا لأبي سليمان: أَنْشَدَنِي جماعةٌ من أهلِ الرِّيِّ لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي[1] بيتين وَهُمَا:

لَعَمْري لا أدْري وَقَدْ أَذَّنَ البِلَى ... بعَاجِلِ تَرْحَالٍ إلى أينَ حَالِـــــي؟

وَأَيْنَ مَكَانُ النَّفْسِ بَعْدَ خُرُوجِهِ ... مِنَ الهَيْكَلِ والجَسَـــــدِ البَالِـي؟

فَقَالَ: وما علينا من جَهْلِهِ إذا لم يَدْرِ إلى أين تَرْحَالُهُ، أمَّا تَرْحَالُنا فإلى نعيم دائم، وخلودٍ مُتَّصِلٍ، ومقام كَريم، ومحلٍّ عظيم في جوارِ من له الخَلْقُ والأمرُ، وهو الأوَّلُ بالحقِّ والموجودُ بالضَّرورةِ، والمعروفُ بالفطرة، والمشتاقُ إليه في السِّرِّ والعلانيَّةِ، والمفزوعُ إليه بكلِّ إشارةٍ وعبارةٍ، والمشهودُ بكلِّ سكونٍ وحركةٍ، والمستعانُ به

(١) أبو بكر محمد بن زكريا الرازي: فيلسوف، غلبت عليه مهنة الطب وبه اشتهر، سُمي جالينوس العرب، برع في الموسيقى والرياضيات والفلك والكيمياء والمنطق والأدب... ولد سنة ٢٥٠هـ ٨٦٥م -٣١٢هـ/ ٩٢٥م.

عندَ كلِّ نائبةٍ وفادحةٍ، والمعهودُ منه كلُّ برٍّ وكرامةٍ، الذي لا يسمح الخاطر إلَّا به، ولا تعنو[1] النَّفسُ إلا له، ولا يسكنُ القلبُ إلّا معه، ولا يطمئنُّ الفؤادُ إلَّا بذكره، ولا يُدْرَكُ النَّجاحُ إلَّا بتوفيقه، ولا يُطرَبُ إلَّا بنسيم لُطْفه، ولا يطَّردُ أمَدٌ إلَّا بعنايته، ولا يستقيم ذو أَوَدٍ[2] إلَّا برفقه، ولا يَفِيْ شاردٌ إلَّا بتألُّفه، ولا ينقاد ماردٌ إلَّا بتلطُّفِه، ولا يُسْلَكُ طريقٌ إلَّا بهدايَتِه، ولا يُنْجَا من كريهة إلَّا بكلاءته[3]، ولا يُتَعَجَّبُ إلَّا من صُنْعِه، ولا يُصابُ بَرْدُ اليقين إلَّا بفَضْلِه، ولا يُتَهَنّأ إلَّا بعطائه، ولا تُنَالُ السَّعادةُ إلَّا باختصاصه، ولا يُعرفُ نعتُ شيءٍ إلَّا باقتصاصه، ولا يُطرب إلَّا بترنُّم ذكره، ولا يُتَبَرَّكُ في أَمرٍ إلَّا بتقديم ذكرِه واسمه، ولا يُجابُ[4] بَلَدٌ وَعْرٌ إلَّا بدليله، ولا يُعالج عسيرٌ إلَّا بتَسهيله، ولا يُقطع أمرٌ إلَّا بتقديره، ولا يُدركُ مأمولٌ إلَّا بتيسيرِه، ولا يُستولى على الأمَدِ إلَّا بطاعَتِه، ولا يُعتزُّ إلَّا بمعرفته، ولا يُوثقُ إلَّا بِكَرَمِه، ولا يُحظى عنده إلَّا بتوحيده، هو الذي وَهَبَ الإحساسَ ليُستمْتَع بنعمه، وَكَرَّرَ الأنفاسَ حَتَّى تُجَالَ في أكناف مُلْكِه، ومَنَحَ العقولَ حَتَّى يُستضاء بنورها في تَصَفُّحِ عالمه، وحشا الملكوتَ بالعجائب حَتَّى يُحَارَ في قُدْرَتِه، وأبرزَ أمورًا حَتَّى يُعْتَرَفَ بإلهيَّتِه، وغيَّبَ أمورًا حَتَّى يكون مستبدًّا بربوبيَّتِه، فالجودُ ظاهرٌ بالموجود، والقُدْرَةُ جاريةٌ بالتَّصريف، والحكمةُ شائعةٌ بالنِّظام، والحاجة قائمةٌ إلى التَّوفيق، والثِّقَةُ مستحكمةٌ بالكَرَم، والإيمانُ ثابتٌ في القلب، والمعرفة مَرِيْعَةٌ[5] في النَّفْسِ، والْتَّمجيدُ باللسان، والجوارحُ منصرفةٌ بالعبوديَّة، والشَّوقُ حديدٌ إلى اللقاء.

فالحمدُ لله على ذلك كُلِّه بخالصِ عقيدة السِّرِّ وغاية قُوَّةِ البَشَر. فهذا هذا.

(١) تعنو: تخضع وتذل.

(٢) أود: اعوجاج.

(٣) الكلاءة: الحفظ أو الرعاية أو الحراسة، من: كلأك الله كلاءة: حفظك ورعاك.

(٤) من الفعل (جاب) يقال: جَابَ البِلاَدَ طُولًا وَعَرْضًا: قَطَعَهَا سَيْرًا. جَابَ أَقَاصِي البِلاَدِ: طَافَهَا، قَطَعَهَا.

(٥) مريعة: خصبة وكثيرة.

وأمَّا تَرحالُ أبو زكريا فإلى مَحَلِّ الحَيْرَةِ، ومطمأنِّ الحَسْرة، بحَسَبِ ما ضلَّ وأضلَّ، وهانَ وعزَّ واعتزَّ، لأنَّهُ حَلَّقَ بالدَّعوى في كتبه حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ مَلَك، وأَسَّفَ بالشَّكِّ حَتَّى تَيَقَّنَّا أَنَّهُ قد هَلَك، والسَّلام.

قد أتينا على الغَرَضِ في هذه الرِّسالة على ما تَقَدَّمَ الوعدُ به من شرح أصناف الحياة، وإضافة اللمَعِ المضمومةِ إليه بقدرِ الوُسْعِ. وأرجو أن يكون مكانه من نفس الحاثِّ على تصنيفه غير نابٍ، ورضاه عنِّي فيه غير مُتَعَذِّرٍ، على أَنِّي والله ما كتبته إلا بعدَ جُمُودِ الخاطر، وفلولِ الحدِّ، وعَوَزِ النَّشاطِ، فقد عَلَتِ السِّنُّ، ونَهَكَت الكَبْرَةُ، وانحنى الصُّلْبُ، وذَوَى الفهمُ، وهَرِمَ الذِّهنُ، وغَلَبَ الوسواسُ، وأَزِفَ الرَّحيلُ، وبِيَدِ الله الفَرَجُ، وإليه المعراجُ والمعرج وعليه التَّوكيل.

تمت الرسالة والحمد لله وحده، والسلام على من لا نبي بعده وعلى آلهِ وأصحابهِ آمين.

* * *

(٢)

رسالة السقيفة

قال أبو حيان عليُّ بن محمد التوحيديُّ البغداديُّ: سَمَرْنا ليلةً عند القاضي أبي حامد أحمد بن بِشْر المَرْوَرُّوذِيّ العامري[١] ببغدادَ في دار «ابن حبشان» في شارع الماذُبان، فتصرف الحديثُ به كلَّ متصرَّف، وكان[٢] مِعَنًّا[٣]، مِفَنًّا[٤]، مِخْلَطًا[٥]،

(١) هو أحمد بن بشر بن عامر العامري، المروروذي، أبو حامد، أخذ عن أبي إسحق المروزي، ونزل بالبصر وأخذ عن فقهائها، وكان إمامًا لا يشق له غبار، شرح (مختصر) المزني، وصنف (الجامع) في المذهب وهو كتاب جليل، وصنف في أصول الفقه. مات سنة ٣٦٢ هـ. وكان التوحيدي كثير الملازمة لمجالس أبي حامد والنقل عنه والرواية لأخباره حتى قال ابن أبي الحديد: إن التوحيدي «يسند إلى القاضي أبي حامد كل ما يريد أن يقوله من تلقاء نفسه إذا كان كارهًا أن يُنسب إليه». وقد علل التوحيدي تعلقه بأستاذه فقال: وإنما أولع بذكر ما يقول هذا الرجل لأنه أنبل من شاهدته في عمري، وكان بحرًا يتدفق حفظًا للسير، وقيامًا بالأخبار، واستنباطًا للمعاني، وباتًا على الجدل، وصبرًا في الخصام ...»

ويقول ابن خلكان: «ونسبته إلى مَرْوَرّوذ- بفتح الميم وسكون الراء المهملة وفتح الواو وتشديد الراء المهملة المضمومة-، وبعد الواو ذال معجمة- وهي مدينة مبنية على نهر، وهو أشهر مدن خراسان بينها وبين مرو الشاهجان أربعون فرسخًا، والنهر يقال له بالعجمية الروذ- بضم الراء وسكون الواو وبعدها ذال معجمة- وهاتان المدينان هما المَرْوان وقد جاء ذكرهما في الشعر كثيرًا، أضيفت إحداهما إلى الشاهجان وهي العظمى، والنسبة إليها مَرْوَزي، والثانية إلى النهر المذكور، ليحصل الفرق بينهما، والنسبة إليها مَرْوَروذي ومَرْوزي أيضًا». انتهى كلام ابن خلكان. انظر وفيات الأعيان (١/ ٦٩-٧٠) وشذرات الذهب (٣/ ٤٠) وفي كتب أبي حيان كالإمتاع والمؤانسة والبصائر والذخائر أخبار كثيرة عنه.

(٢) يقصد القاضي أبا حامد المروروذي.

(٣) المِعَنُّ : الخطيبُ المُفَوَّهُ.

(٤) صفة مشبَّهة تدلّ على الثبوت من فَنَّ : فنَّان - رجل مِفَنّ : يأتي بالعجائب .

(٥) المِخْلَطُ : هو المِخْلاَط : الذي يُخلِّطُ الأَشياءَ ويُلَبِّسها على السَّامعين والناظِرين بِحِذْقِهِ ومهارَتِه. والجمع: مخاليط .

مِزْيلا[١]، غزيرَ الرواية، [لطيف الدراية][٢]، له في كل جوٍّ متنفَّسٌ، ومن كل نار مقتبَسٌ، فجرَى حديثُ السقيفة، وشأن الخلافة، فركب كلٌّ منَّا مَتْنًا[٣]، وقال قَوْلًا، وعَرَّضَ بشيءٍ، ونَزَعَ إلى فنٍّ، فقال: هل فيكم مَنْ يحفظُ رسالةَ أبي بكر الصديق لعليٍّ ابن أبي طالب رضي الله عنهما، وجواب عليٍّ له ومُبايعته إيَّاه عُقيب تلك المناظرة؟

فقالت الجماعةُ التي بين يديه: لا والله!

قال: هي والله من بنات الحقائق، ومخبآت الخزائن في الصناديق[٤]، ومُذ حفِظتُها ما رويتُها إلا لأبي محمد المهلَّبيِّ[٥] في وزارته، وكتبها عني في خلوةٍ[٦] وقال: لا أعرفُ على وجه الأرض رسالةً أعقلَ منها ولا أبينَ، وإنها لتدلُّ عل عِلم وحِلم، وفَصاحة وفَقاهة[٧]، ودَهاء ودِين، وبُعْد غَوْر، وشدة غَوْص.

فقال له العبَّادانيُّ[٨]: أيُّها القاضي! لو أتممتَ المِنَّةَ علينا بروايتها سَمِعْناها[٩] مثله، ونحن أوعى لها عنك من المهلَّبي، وأوجبُ ذِمامًا عليك، فاندفع فقال:

(١) المِزْيَلُ : الكيّسُ اللطيف يميِّز بين الأَشياء .يُقال: رَجلٌ مِخْلَطٌ مِزْيَلٌ : جمع بين الأَشياء ، ويميِّز بينها لقوة فِكره .

(٢) زيادة في صبح الأعشى.

(٣) صبح الأعشى: مركبًا.

(٤) صبح الأعشى: ومخبآت الصنادق.

(٥) هو الوزير أبو محمد الحسن بن محمد المهلبي (٢٩١ هـ - ٣٥٢ هـ) تولى الوزارة لمعز الدولة البويهي سنة ٣٣٩هـ . كان فصيحًا، مهيبًا، شجاعًا جامعًا لأدوات الرئاسة، وقد اشتهر بعطفه على الأدباء حتى قيل إنه «مات بموته عن الكتَّاب الكرمُ والفضلُ».

(٦) صبح الأعشى: فكتبها عني بيده.

(٧) صبح الأعشى: ونباهة.

(٨) أبو بكر محمد بن الفضل بن جعفر بن محمد بن يحيى بن سعيد بن بشر القرشي العَبَّاداني، نسبة إلى عبَّادان وهي بليدة قرب البصرة. وكان أبوه شيخ الصوفية في وقته، وأبو بكر أحد المذكورين بالصلاح والخير. سكن البصرة وورد بغداد بعد سنة أربعمائة. توفي بالبصرة في السابع والعشرين من شهر رمضان سنة ٤١٥ هـ. (تاريخ بغداد ٤/ ٢٦٥).

(٩) صبح الأعشى: أسمِعْناها.

حدَّثنا الخُزاعي بمكة قال: حدَّثنا ابنُ مَيْسَرة عن محمد بن فُلَيح عن عيسى بن دأْب[1] عن صالح بن كَيْسان[2] ويزيد بن رُومان[3] وكان معلم عبد الملك بن مروان قال: حدَّثنا هشام بن عروة[4] عن أبيه قال: أخبرنا أبو التَّياح مولى أبي عُبَيْدَة بن الجرَّاح قال: سمعتُ أبا عُبَيْدَة بن الجراح يقول: لما استقامت الخلافةُ لأبي بكر- رضي الله عنه- بين المهاجرين والأنصار، [لَحَظَ بعين الهيبة والوقار، وإن كان لم يزل كذلك][5]، بعد هَنَةٍ[6] كادَ الشيطانُ بها، فدفع الله شرَّها، ودَحَضَ عُرَّها[7]، ويسَّر خيرَها، [وأزاح ضيرَها، وردَّ كيدها، وقصَمَ ظهر النفاق والفسق بين أهلها][8]، بلَغَ أبا بكر الصديق عن عليٍّ تلكؤٌ وشِماس[9]، وتهمهمٌ ونِفاس[10]، فكره أنْ يتمادَى الحال فتبدُوَ العَوْرَةُ، وتشتعل الجمرةُ[11]، وتنفرجَ[12] ذاتُ البين، [ويصيرَ ذلك دُرْبة

(١) في صبح الأعشى: حدثنا الخزاعي بمكة، عن أبي مَيسرة، قال حدثنا محمد بن أبي فُليح عن عيسى بن دوأب ابن المتَّاح، قال....

(٢) هو الإمَامُ، الحَافظُ، الثِّقَةُ، أَبُو مُحَمَّد، ويُقَالُ: أبو الحَارث- المَدَنِيُّ، المُؤَدِّبُ، مُؤَدِّبُ وَلَد عُمَرَ بن عَبْد العَزِيْز. مَوْلَى بَنِي غِفَار، وَيُقَالُ: مَوْلَى بَنِي عامر. وَيُقَالُ: مَوْلَى آل مُعَيْقِيْب الدَّوْسِيِّ. رَأَى عَبْد الله بن الزُّبَيْر، وَعَبْد الله بن عُمَرَ. وَقَدْ قَالَ يَحْيَى بنُ مَعِيْن: إِنَّهُ سَمِعَ مِنْهُمَا. وَحَدَّثَ عَنْ: عُبَيْد الله بن عَبْد الله، وَعُرْوَةَ بن الزُّبَيْر، وَعَبْد الرَّحْمَن ابن هُرْمُزَ الأَعْرَج، وَسَالِم بن عَبْد الله، وَنَافع بن جُبَيْر، وَنَافع مَوْلَى ابْن عُمَرَ، وغيرهم، وَكَانَ مِنْ أَئِمَّة الأَثَر.

(٣) مولى آل الزبير، روى الحديث عن ابن الزبير وعروة، وروى عنه جرير بن حازم وابن إسحق ونافع القارئ وطائفة غيرهم. قال ابن سعد في طبقاته: كان عالمًا ثقة بالحديث ، توفي سنة ١٣٠هـ.

(٤) أبو المنذر هشام بن عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى، بن قصي، بن كلاب، القرشي، الأسدي، الزبيري، المدني. من حفاظ الحديث، ورواته. وضبط جماعة وفاة هشام ببغداد في سنة ست وأربعين ومائة وصلى عليه أبو جعفر المنصور. وقيل سنة سبع وأربعين وقيل سنة خمس وقيل عاش سبعا وثمانين سنة ، وقيل غير ذلك.

(٥) سقطت في صبح الأعشى.

(٦) الهَنَةُ : شرٌّ وفسادٌ ، مَا يُسْتَقْبَحُ ذِكْرُهُ. وفي صبح الأعشى: فتنة.

(٧) عُرَّها: العُرُّ :الجَرَبُ. وعبارة(دحض عرها) غير موجودة في صبح الأعشى.

(٨) سقط في صبح الأعشى.

(٩) الشِّماس: المعاندة. يقال: شَمَسَتِ الدَّابَّةُ : جَمَحَتْ ، نَفَرَتْ.

(١٠) الهمهمة: الكلام الخفي. النفاس: المنافسة. وفي صبح الأعشى: تهمُّم.

(١١) زيادة في صبح الأعشى.

(١٢) في صبح الأعشى: تتفرق.

لجاهل مغرور، أو عاقل ذي دهاء، أو صاحب سلامة ضعيف، خوَّار العِنان][1].

فدعاني بحضرته في خَلْوَةٍ وكان عنده عُمر بن الخطاب وحدَه، [وكان عُمر قبسًا له، ظهيرًا معه، يستضيء بنيرانه، ويستملي على لسانه][2]، فقال لي: يا أبا عبيدة! ما أيْمَنَ ناصيتَكَ، وأبْيَنَ الخيرَ بين عارِضَيك[3]، [وطالما أعز الله بك الإسلامَ، وأصلح شأنَه على يديك][4]. ولقد كنت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحوط، والمَحَلِّ المغبوط، ولقد قال فيك في يوم مشهود: «لكُلِّ أمَّةٍ أمينٌ، وأمينُ هذه الأمةِ أبو عُبيدة»[5]. [وطالَ ما أعزَّ الله بك الإسلامَ، وأصلحَ فسادَه على يديك][6]، ولم تزل للدين ملجأً[7]، وللمؤمنين رَوْحًا[8]، ولأهلك رُكنًا، ولإخوانك رِدْءًا[9]. قد أردتُك لأمر له ما بعده، خطرُه مخوفٌ، وصلاحُه معروفٌ[10]، ولئن لم يندمل جُرحُه بيَسارك ورِفْقِك، ولم تُجَبَّ[11] حَيَّتُه برُقْيتك، فقد وقعَ اليأسُ، وأعضلَ البأسُ، واحتيجَ بعدَك إلى ما هو أمرُّ من ذلك وأعلقُ، وأعسرُ منه وأغلقُ، والله أسأل تمامَه بك، ونِظامَه على

(١) غير موجود في صبح الأعشى.

(٢) غير موجود في صبح الأعشى.

(٣) في صبح الأعشى: عينيك.

(٤) زيادة من صبح الأعشى.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٣٨٠) ومسلم (٢٤٢٠): جاءَ العاقِبُ والسَّيِّدُ، صاحبا نَجْرانَ، إلى رَسولِ اللَّه صَلَّى الله عليه وسلَّمَ يُريدانِ أنْ يُلاعناهُ، قالَ: فقالَ أحَدُهُما لصاحِبِه: لا تَفْعَلْ، فَوالله لَئِنْ كانَ نَبِيًّا فَلاعَنَّا لا نُفْلِحُ نَحْنُ، ولا عَقِبُنا مِن بَعْدِنا، قالا: إنَّا نُعْطِيكَ ما سَأَلْتَنا، وابْعَثْ معَنا رَجُلًا أمِينًا، ولا تَبْعَثْ معنا إلَّا أمِينًا. فقالَ لَأَبْعَثَنَّ معكُمْ رَجُلًا أمِينًا حَقَّ أمِينٍ، فاسْتَشْرَفَ له أصْحابُ رَسولِ الله صَلَّى الله عليه وسلَّمَ فقالَ: قُمْ يا أبا عُبَيْدَةَ بنَ الجَرَّاحِ فَلَمَّا قامَ، قالَ رَسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلَّمَ: هذا أمِينُ هذِهِ الأُمَّةِ.

(٦) سقط في صبح الأعشى.

(٧) في صبح الأعشى: ملتجأ.

(٨) الرَّوْحُ: الرَّاحَةُ. والرَّوْحُ: رحمة وفَرَج. وفي صبح الأعشى: مرتجًا.

(٩) ردءًا: مُعينًا وناصرًا.

(١٠) في صبح الأعشى: قد أردتك لأمرٍ خَطِر مَخُوف، وإصلاحه من أعظم المعروف.

(١١) جَبَّه: قطعه، ومنه حديث النبي صلى الله عليه وسلم: إنَّ الإسلام يَجُبُّ ما قبله. أي يقطع ويمحو ما كان قبله من الكفر والذنوب.

يَدَيْك. فتأتَّ له يا أبا عبيدة، وتلطَّف فيه، وانصح لله تعالى ورسوله ولهذه العِصابة غير آلٍ جُهدًا، ولا قالٍ حَمْدًا، والله كالِئُك وناصِرُك، وهاديك ومبصِّرُك، وبه الحَوْلُ والتوفيق.

امضِ إلى عليٍّ واخفِضْ جناحك له، واغضُضْ من صوتك عنده، واعلم أنه سُلالة أبي طالب، ومكانُه ممن قد فقدناه بالأمس (صلى الله عليه وسلم) مكانُه، وقل له: البحرُ مَغْرَقَةٌ، والبرُّ مَفْرَقةٌ، والجوُّ أكْلَفُ[١٢]، والليل أغلفُ[١٣]، والسماء جَلْواءُ[١٤]، والأرض صَلْعاءُ، والصعودُ متعذِّرٌ، والهبوطُ متعسِّر، والحقُّ رؤوفٌ عطوفٌ، والباطلُ شُنُوفٌ[١٥] عنوفٌ، والعُجْبُ قدَّاحةُ الشرِّ، والضِّغْنُ رائدُ البَوار، والتعريضُ سِجارُ الفتنة، والقِحَة ثَقُوب العداوة، وهذا الشيطانُ متكئٌ على شماله، متحيِّلٌ بيمينه، نافخٌ حِضْنيه[١٦] لأهله، ينتظرُ الشتاتَ والفُرقةَ، ويدبّ بين الأمة بالشحناءِ والعَداوةِ، عنادًا لله عز وجل أولًا، ولآدم ثانيًا، ولنبيِّه صلى الله عليه وسلم ولدينه ثالثًا، يُوسوسُ بالفجور، ويُدلي بالغرور، ويُمَنِّي أهلَ الشُّرور، ويُوحي إلى أوليائه [زُخْرف القول غرورًا][١٧] بالباطل، دأْبًا له مُذ كان على عهد أبينا آدم، وعادةً منه منذ أهانه الله تعالى في سالف الدهر، لا يُنْجَى منه إلَّا بعضِّ الناجذ على الحق، وغَضِّ الطَّرْفِ عن الباطل، ووطْءِ هامة عدوِّ الله وعدوِّ الدين بالأشدِّ فالأشدِ، والأجدّ فالأجدّ[١٨]، وإسلامِ النفس

(١٢) أكلف: من الكَلَف، وهو نَمَشٌ يعلو الوجْهَ كالسِّمْسِم، أو حمرة كدرة تعلو الوجه.

(١٣) أغلف: كأنه وُضِع في غِلاف، فهو شديد الظلمة والخفاء. و في صبح الأعشى: أغدف.

(١٤) جَلِيَت السَّمَاءُ: أَضْحَتْ.

(١٥) شَنَفَ، يَشْنُفُ، (يَشْنِفُ)، مصدر شَنْفٌ ، شُنُوفٌ. شَنَفَ إِلَيْهِ: نَظَرَ إِلَيْهِ نَظْرَةَ كُرْهٍ وَاشْمِئْزَازٍ. شَنَفَ عَنْهُ: أَعْرَضَ مُتَرَفِّعًا، مُتَكَبِّرًا. و في صبح الأعشى: عَسُوف.

(١٦) كناية عن استعداده لعمل الشر، والحضنان ما تحت العضدين إشارة إلى ما ورد من أن الشيطان إذا بلغ مأربه من إلقاء أمر فرح فألصق فخذيه بعضهما ببعض فينكح أحد فخذيه الآخر فيولد له. و في صبح الأعشى: خُصييه.

(١٧) زيادة في صبح الأعشى.

(١٨) في صبح الأعشى: والآكد فالآكد.

لله تعالى فيما حازَ رضاه، وجَنَّبَ سَخَطَه، ولا بد الآن من قول ينفع إذا ضرَّ السكوتُ، وخِيفَ غِبُّه. ولقد أرشدَك من أفاءَ[١] ضالَّتك، وصافاك من أحيا مودَّته لك بعتابك، وأراد الخيرَ بك من آثر البُقيا معك.

ما هذا الذي تسوِّلُ لك نفسُك، ويَدْوي به قلبُكَ، ويلتوي عليه رأيُك، ويتَخاوصُ[٢] دونه طَرْفُك، ويسْري فيه ظعْنُك، ويتَرادُّ[٣] معه نَفَسُك، وتكثرُ معه صُعداؤُك[٤]، ولا يفيض به لسانُك؟ أُعُجْمَةٌ بعد إفصاح، أتلبيسٌ بعد إيضاح، أدينٌ غير دين الله، أخُلُقٌ غير خُلُق القرآن، أهُدًى غير هدْي رسول الله؟ أمِثلي تمشي له الضرَّاء[٥]، أو يدبّ إليه الخَمَر[٦]، أم مثلك يَغُصُّ[٧] عليه الفضاءُ، أو يُخسَفُ في عينه القمرُ؟

ما هذه القَعْقَعةُ بالشِّنان[٨]، وما هذه الوَعْوَعة باللسان؟ إنك جدُّ عارفٍ باستجابتنا لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وبخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبَّتنا هجرةً إلى الله تعالى، ونُصْرةً لدينه في زمان أنت فيه في كِنِّ الصِّبا، وخِدْر الغَرارة، [وعنفوان الشبيبة][٩] غافلٌ، تُشَبَّبُ وتربَّبُ[١٠]، لا تعي ما يُراد ويُشاد، ولا

(١) أَفاءَ الأَمْرَ: رَجَعَهُ.

(٢) خاوَص الرَّجلُ: غضَّ من بصره شيئًا، وهو يحدِّق النَّظر كما لو نظر إلى عين الشَّمس، ضيَّق عينَه شيئًا ما ليركِّز النظر خاوَص كأنه يقوِّم سهمًا.

(٣) يتراد: يتردد.

(٤) الصُّعَدَاءُ: المَشَقَّةُ. تَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ: انْفَرَجَ هَمُّهُ وَضَيْقُهُ، تَنَهَّدَ تَنَهُّداً مَمْدُوداً بِعُمْقٍ.

(٥) الضراء: الشجر الملتف في الوادي. وفلان يمشي الضراء، إذا مشى مستخفيًا فيما يواري من الشجر. ويُقال للرجل إذا خَتَلَ صاحبَه ومَكَرَ به: هو يدبُّ له الضراء ويمشي له الخَمَر.

(٦) الخَمَر، بالتحريك: كل ما سترك من شجر أَو بناءٍ أَو غيره.

(٧) في صبح الأعشى: ينقبض.

(٨) جاء في لسان العرب: الشَّنُّ: القربة الخَلَق، والشَّنَّةُ أَيضًا، وكأَنها صغيرة، والجمع الشِّنانُ. وفي المثل: لا يُقَعْقَعُ لي بالشِّنان؛ قال النابغة:

كأَنك من جمالِ بَني أُقَيْش يُقَعْقَعُ خَلْفَ رِجْلَيه بشَنِّ

(٩) سقط في صبح الأعشى.

(١٠) تُشبب: فعل مبني للمجهول، نقول: شُبَّ لَهُ الشَّيْءُ: أُتِيحَ لَهُ، قُدِّرَ لَهُ. وشُبَّ له كذا: أُتيحَ وهُيِّئَ. ورَبَّب الولدَ: ربَّاه حتى أدرك. و في صبح الأعشى: غافلٌ عما يُشيب ويُريب.

تحصِّل ما يُساق ويُقاد، سوى ما أنت جارٍ عليه إلى غايتك التي إليها غُدِيَ[1] بك، وعندها حُطَّ رَحْلُك، غيرَ مجهول القَدْر، ولا مجحود الفَضْل، ونحن في أثناء ذلك نعاني أحوالًا تُزيل الرواسي، ونقاسي أهوالًا تُشيب النواصي، خائضين غِمارها، راكبين تيارها، نتجرَّع صابَها[2]، ونَشْـرَجُ عِيابها[3]، ونكرعُ عُبابها، ونُحكم أساسَها، ونُبرمُ أمراسها[4]. والعيون تحدِّج[5] بالحسد، والأنوف تَعْطسُ بالكِبْر، والصدور تستعِرُ بالغيظ، والأعناق تتطاولُ بالفخر، والشِّفار تُشحَذُ بالمكر، والأرض تميدُ بالخوف، لا ننتظر عند المساء صباحًا، ولا عند الصباح مساءً، ولا ندفع في نَحْر أمرٍ لنا[6] إلا بعد أن نحْسُوَ[7] الموتَ دونه، [ولا نتبلَّغ إلى شيء إلا بعد جَرْع الغُصَص معه][8]، ولا نقوِّمُ منآدًا[9] إلا بعد اليأس من الحياة عنده، فادينَ في كل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأبِ والأم، والخال والعم، والمال والنَّشَب[10]، والسَّبَد واللَّبَد[11]، والأهل والولد[12]، بطيب أنفُس، وقرة أعين، ورَحْب أعطان[13]، وثبات

(١) في صبح الأعشى: عُدل.

(٢) الصّابُ: شجَرٌ مُرٌّ له عُصارَةٌ بيضاءُ كاللبن بالغة المرارة إذا أَصابت العين أَتلفتها.

(٣) نشرج عيابها: نشد عراها، و العَيْبَةُ وعاءٌ من أَدَمٍ ونحوه يكونُ فيه المتاعُ. والجمع: عِيَبٌ، و عِيَابٌ.

(٤) الأمراس: الحبال، المفرد: المَرَسَة.

(٥) تحدج: تحدق.

(٦) في صبح الأعشى: في نحر امرئ.

(٧) نحسو: نتناوله جُرعةً بعد جُرعةٍ.

(٨) سقط في صبح الأعشى.

(٩) انآدَ : انثنى واعوجّ، والمنآد: المعوَّج. و في صبح الأعشى: مرادًا.

(١٠) النَّشَبُ : المال .والنَّشَبُ العَقَار .

(١١) في اللسان: السبد: الوبر، وقيل: الشعر، والعرب تقول: (ما له سَبَدٌ ولا لَبَدٌ)، أي ما له ذو وبر ولا صوف متلبد، يكنى بهما عن الإبل والغنم، وقيل: يكنى به عن المعز والضأن... وقال الأصمعي:ما لَهُ سَبَدٌ ولا لَبَدٌ ، ما لَهُ قليلٌ ولا كثيرٌ.

(١٢) في صبح الأعشى: والهلَّة والبلَّة.

(١٣) العَطَنُ : مَبْرَكُ الإبل ومَربِضُ الغنم عند الماء. وفلانٌ واسِعُ العَطَنِ: واسِعُ الصَّبر والحيلة عند الشدائد، سَخِيٌّ كثيرُ المالِ.

عزائم، وصحة عقول، وطلاقة أوجه، وذلاقة لسان، هذا مع خفيَّات أسرار ومكنونات أخبار كنتَ عنها غافلًا، ولولا سنُّك لم تكن عن شيء منها ناكلًا. كيف وفؤادُك مشهوم[١]، وعودُك معجوم، [وغَيْبُك مخبور، والقول فيك كثير] [٢]. والآن قد بَلَغ الله بك، وأرْهَصَ[٣] الخيرَ لك، وجعل مُرادَك بين يديك، وعن علم أقول ما تسمع، فارتقبْ زمانك وقلِّص إليه أرْدانك[٤]، ودعِ التحبُّس والتعبُّس[٥] لمن لا يظْلَعُ[٦] إليك إذا خطا، ولا يتزحزح عنك إذا عطا[٧]، والأمر غضٌّ، والنفوس فيها مضٌّ، وإنك أدِيمُ هذه الأمة فلا تَحْلَم[٨] لَجاجًا، وسيفُها العَضْبُ[٩] فلا تَنْبُ اعوجاجًا، وماؤها العَذْب فلا تَحُل أُجاجًا.

وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر فقال لي: يا أبا بكر! هو لمن قيل له: هو لك، لا لمن يقول: هو لي، ولمن ينقادُ إليه لا لمن يَتَنَفَّجُ إليه[١٠].

(١) مشهوم: متوقد الذكاء.

(٢) سقط في صبح الأعشى. ومعنى غيبك: ما غاب عن الناس من أمورك. مخبور: ممدوح.

(٣) أرْهَصَ اللَّه فلانا للخير: جعله مَعْدِنا له ومَأْتى. و في صبح الأعشى: أنهضَ.

(٤) الرُّدْنُ، بالضم: أَصل الكُمّ. يقال: قميص واسع الرُّدْن .وقال ابن سيده : الرُّدْن مقدّم كمّ القميص، وقيل: هو أَسفله، وقيل: هو الكمّ كله، والجمع أَرْدانٌ وأَرْدِنَة .والتشمير: التقصير.

(٥) التحبس: المبالغة في الحبس ووقوف الإنسان عند أمر لا يحول عنه. التعبس: العبوس وعدم البشاشة. و في صبح الأعشى: التَّقعُّس والتجسس.

(٦) ظلَع الرَّجُلُ : عرِج ، غمز في مشيه (يُطلق على الإنسان والحيوان). وفي المثل: لا يربع على ظَلْعك من ليس يَحزُنه أَمرُك. أي لا يهتمُّ بشأنك ولا يقيم عليك في حال ضَعْفك إلَّا من يُحزنُهُ أَمرُك.

(٧) عَطَا الشيءَ، وإليه عَطَا عَطْوًا: تناولَهُ .ويقال: عَطَا عِرْضَ أَخيه: تناوَلَهُ بالذَّمّ .وفي الحديث: «أَربَى الرِّبا عَطْوُ الرَّجُل عِرْضَ أَخيه بغَيْر حَقٍّ» .وعَطَا إليه يَدَهُ: رَفَعَها .

(٨) حَلَمَ الجلدَ حَلْمًا : نزع عنه حَلَمَه، والحَلَمُ : القُرَاد الضَّخْم، أو الصغير. وحَلَمَ البعيرُ: أصابه الحَلَمُ.

(٩) العضب: القاطع.

(١٠) يتنفج إليه: يتطلع إليه. والحديث المروي لم أعثر عليه بهذه الصيغة ولكن يروى عن أبي سعيد عبد الرحمن بن سَمُرةَ – رضي الله عنه– قَالَ: قَالَ لي رَسُولُ اللَّه ﷺ:» يَا عَبدَ الرَّحمن بن سمُرَةَ، لا تَسْأَل الإمارَةَ؛ فَإِنَّكَ إن أُعْطِيتَها عَن غَيْر مسألَةٍ أُعِنْتَ علَيها، وَإِنْ أُعْطِيتَها عَن مسألَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْها» متفقٌ عَلَيه.
وفي صبح الأعشى: والله، لقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر، فقال لي: يا أبا بكر، هو لمن يرغَب عنه لا لمن يُجاحِش عليه، ولمن يتضاءَلُ عنه لا لمن يتنفج إليه؛ هو لمن يُقال هو لك لا لمن يقول هو لي.

ولقد شاورني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصِّهْر، فذكر فتيانًا من قريش، فقلت: أين أنت من عليٍّ؟ فقال: إني لأكره لفاطمة مَيْعة شبابه، وحداثة سنِّه، فقلت له: متى كَنَفَتْهُ يدُك، ورعَتْهُ عينُك، حَفَّتْ بهما البركة، وأُسبغت عليهما النعمة. مع كلام كثير خطبتُ به عنك، ورَغَّبتُه فيك، وما كنت عرفت منك في ذلك لا حَوْجاء ولا لوْجاء[١]، فقلتُ ما قلتُ وأنا أرى مكانَ غيرك، وأجدُ رائحة سواك، وكنتُ لك إذ ذاك خيرًا منك الآن لي، ولئن كان عَرَّض بك رسول الله صلى الله عليه وسلم [فقد كنَّى عن غيرك][٢] وإن قال فيك، فما سكت عن سواك، وإن تَخَلَّج[٣] في نفسك شيء فهلمَّ فالحُكم مرضيٌّ، والصواب مسموعٌ، والحق مُطاع، وقد نُقل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عن هذه العصابة راضٍ، وعليها حَدِبٌ[٤]، يسرُّه ما يسرها، [ويسوءه ما ساءها][٥] ويكيده ما كادها، ويرضيه ما أرضاها، ويُسخطه ما أسخطها.

ألم تعلم أنه لم يَدَعْ أحدًا من أصحابه وخلطائه، وأقاربه وسُجرائه[٦] إلا أبانه بفضيلة، وخصّه بمزيَّة، وأفرده بحالة [لو أصفقت الأمة عليه لكان عنده إيالتها وكفالتها وكرامتها وعزازتها][٧].

أتظن أنه- صلى الله عليه وسلم- تَرَكَ الأمةَ بشرًا سدًى، بددًا عدًى، عباهل

(١) جاء في لسان العرب: ما لي فيه حَوْجاءُ ولا لَوْجاءُ ، ولا حُوَيجاءُ ولا لُوَيجاءُ ، كلاهما بالمَدِّ ، أَي ما لي فيه حاجةٌ.

(٢) في صبح الأعشى: فلم يكن مُعرضًا عن غيرك.

(٣) تخلَّج: اضطرب وتحرك. و في صبح الأعشى: تلجلج.

(٤) في صبح الأعشى: حذر.

(٥) سقط في صبح الأعشى.

(٦) سُجَراءُ : جمع سَجير، والسَّجِيرُ: الصَّديقُ الصفِيُّ.

(٧) ما بين قوسين سقط في صبح الأعشى. وإيالتها: سياستها.

مباهل[١]، طَلاحَى[٢] مفتونة بالباطل، مغبونة عن الحق، لا ذائد ولا قائد، ولا حائط ولا رابط، ولا ساقيَ ولا راقيَ، ولا هاديَ ولا حاديَ.

كلا! والله ما اشتاقَ إلى ربه تعالى، ولا سألَه المصيرَ إلى رضوانه إلا بعد أن ضَرَبَ الصُّوَى[٣]، وأوضحَ الهدى، وأمَّنَ المهالكَ والمطاوحَ[٤]، وسهَّلَ المبارك والمماتح[٥]، وإلا بعد أن شَدَخَ يافوخ الشِّرْك بإذن الله، وشَرَم وجه النفاق لوجه الله، وجَدَع أنف الفتنة بإذن الله، وتَفَلَ في عين الشيطان بعون الله، وصدع بمِلء فيه ويده بأمر الله.

وبعد، فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعك في دار واحدة، وبقعة جامعة. إن استقادوا[٦] لك، أو أشاروا إليَّ فأنا واضعٌ يدي في يدك، وصائرٌ إلى رأيهم فيك، وإن تكن الأخرى فادخل فيما دخل فيه المسلمون، وكن العونَ على مصالحهم، والفاتحَ لمغالقهم، والمرشدَ لضالِّهم، والرادعَ لغاويهم، فقد أمر الله تعالى بالتعاون على البرِّ والتقوى، وأهاب إلى التناصر على الحق. ودعنا نقضي هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغل، ونَلْقى الله عز وجل بقلوب سليمة من الضِّغْن[٧].

---

(١) عَبْهَلَ الإبل: أهملها. إبِلٌ عَباهلُ ومُعَبْهَلَةٌ : مهملة .أَبْهَلَ الناقةَ : أَهْمَلَها ، مثل أبهلها. وعبهل الراعي رعيته إذا تركها مهملة، فهي عباهل مباهل.

(٢) طَلاحَى: متعبة. ولكن جاء في لسان العرب أن طَلاحَى وطَلِحَة : تشتكي بطونَها من أَكل الطَّلْح، الطَّلْحُ شجرة طويلة لها ظل يستظل بها الناس والإبل، وورقها قليل ولها أَغصان طِوالٌ عِظامٌ تنادي السماء من طولها، ولها شوك كثير من سُلاَّء النخل ، ولها ساق غظيمة لا تلتقي عليه يدا الرجل ، تأْكل الإبل منها أَكلاً كثيراً... الواحدة طَلْحَة.

وأَنكر أَبو سعيد: إبل طَلاحَى إذا أَكلت الطَّلْح؛ قال: والطَّلاحَى هي الكالَّةُ المُعْيِيَةُ؛ قال: ولا يُمْرِضُ الطَّلْحُ الإبلَ لأَن رَعْيَ الطَّلْح ناجعٌ فيها.

(٣) الصُّوَى: مفردها الصُّوَّةُ : وهي ما نُصِبَ من الحجارَةِ ليستدلَّ به على الطريق.

(٤) في صبح الأعشى: المسالك والمطارح.

(٥) المماتح: من الفعل (مَتَحَ)ومَتَحَ الْمَاءَ : امْتاحَهُ، اسْتَخْرَجَهُ وَحَصَلَ عَلَيْهِ، والممتح: المكان الذي يُستقى منه.

(٦) في صبح الأعشى: استقالوني.

(٧) الضِّغْن: بكسر فسكون، جمع إضغان، الحقد الشديد. ورَجُلٌ ضَغِنٌ: حَاقِدٌ ، ذُو حِقْدٍ. وعُودٌ ضَغِنٌ : أَعْوَجُ. وفَرَسٌ ضَغِنٌ: صَعْبُ الاِنْقِيَادِ وَالْمِرَاسِ.

وبعدُ، فالناس ثُمامةٌ[1] فارفُق بهم، واحنُ عليهم، ولِنْ لهم، ولا تُشْقِ نفسَك بنا خاصةً فيهم، واترك ناجِمَ الحقد حصيدًا، وطائِرَ الشَّرِّ واقعًا، وباب الفتنة غَلِقًا، فلا قالَ ولا قيلَ، ولا تبيعَ[2]، والله على ما نقولُ شهيدٌ، وبما نحن عليه بصيرٌ.

قال أبو عبيدة: فلما تهيأتُ للنهوض قال لي عُمَرُ: كُن لدَى الباب هُنيهةً فلي معك ذَرْءٌ[3] من القول. فوقفت ولا أدري ما كان بعدي، إلا أنه لَحِقني بوجه يَنْدى تهللًا، وقال لي: قُلْ لعليٍّ: الرُّقاد مَحْلمة[4]، واللّجاج مَلْحَمة، والهوى مَفْحمة[5]، وما مِنَّا أحد إلا وله مَقام معلوم، وحق مشاع أو مقسوم، ونبأ ظاهر أو مكتوم، وإن أكيس الكَيْسى من مَنَحَ الشاردَ تألُّفًا، وقرَّب البعيدَ تلطُّفًا، ووَزَن كلَّ امرئ بميزانه، ولم يَخْلِط خبره بعِيانه، ولم يجعل فِتْره مكان شِبْره[6]، دِينًا كان أو دُنيا، ضلالًا كان أو هُدًى. ولا خير في معرفة مشوبة بنكرة، ولا في علم مُعْتَمل في جهل، ولسنا كجلدة رُفغ[7] البعير بين العِجان[8] وبين الذَّنَب. وكلُّ صالٍ فبناره، وكل سَيْل فإلى قَراره. وما كان سكوت

(١) الثُّمام: نبت ضعيف له خوص أَو شبيه بالخُوص، وربما حُشِي به وسُدَّ به خَصاص البيوت.

(٢) التبيع: التابع والنصير.

(٣) الذرْء: الشيء القليل. وذَرْءٌ من خبر: أي طَرَف منه. وفي صبح الأعشى: دور.

(٤) محلمة: يمكن أن تكون من الفعل (حَلَّمَ)، نقول: حَلَّمَهُ الرِّضَاعُ أَو الأَكْلُ: سَمَّنَهُ. أي أن الرقاد يجعله سمينًا، أو من الفعل (حَلِمَ): حَلِمَ الجِلْدُ : وَقَعَ عَلَيْهِ الدُّودُ فَتَثَقَّبَ وَفَسَدَ.

(٥) في صبح الأعشى: مقحمة.

(٦) الفِتْرُ: ما بين طَرَفِ الإبهام وطرَفِ السبَّابةِ إذا فتحْتَهُما. والشِّبْرُ: ما بين طَرَفي الخِنْصَرِ والإبهام بالتفريج المُعتاد (مذكَّر) والجمع: أَشْبار.

(٧) الرَّفْغُ والرُّفْغُ: أُصُولُ الفَخِذيْنِ من باطن وهما ما اكْتَنَفَا أَعالي جانِبَي العانةِ عند مُلْتَقَى أَعالي بَواطِنِ الفخذين وأَعلى البطن، وهما أَيْضاً أُصول الإبْطَيْنِ، وقيل: الرُّفْغ من باطن الفَخِذِ عند الأُرْبِيَّةِ، والجمع أَرْفُغٌ وأَرْفاغٌ ورِفاغٌ؛ قال الشاعر:

قد زَوَّجُوني جَيْأَلاً ، فيها حَدَبْ دَقِيقةَ الأَرْفاغِ ضَخْماءَ الرُّكَبْ

وناقةٌ رَفْغاءُ: واسِعةُ الرُّفْغِ. (لسان العرب، مادة: رفغ).

(٨) العِجَانُ: الاسْتُ، وقيل: هو القضيب الممدود من الخُصْيَةِ إلى الدبر، وقيل: هو آخر الذكر ممدود في الجلد، وقيل: هو ما بين الخُصية والفَقْحَة .وهنا يُذكر كناية عن المهانة والحقارة.

هذه العصابة إلى هذه الغاية لِعيٍّ وشِيٍّ[١]، ولا كلامُها اليوم لفَرَق أو رفق، فقد جَدَع الله بمحمد صلى الله عليه وسلم أنفَ كل ذي كِبْر، وقَصَمَ ظهرَ كل جبَّار، وقطع لسان كل كَذُوب، فماذا بعد الحق إلا الضلال.

ما هذه الخُنْزُوانة[٢] التي في فَرَاش[٣] رأسِك؟ وما هذا الشَّجا المعترض في مدارج أنفاسك؟ وما هذه الوَحَرَة[٤] التي أكلت شراسِيفك[٥]؟ والقذاة التي أعشت ناظرك؟ [وما هذا الدَّحْس والدَّس اللذان يدلَّان على ضيق الباع، وخَوَر الطباع؟][٦]، وما هذا الذي لَبِستَ بسببه جِلْد النَّمِر، واشتملت عليه بالشحناء والنُّكْر؟ [لَشَدَّ ما استسعيتَ لها، وسَرَيْتَ سُرى ابن أنْقَد[٧] إليها. إنَّ العوان[٨] لا تُعَلَّم الخِمْرةَ، والحَصَان[٩] لا تكلَّم خِبرةً، وما أحوج الفرعاء[١٠] إلى فالٍ، وما أفقر الصلعاء إلى حالٍ.

لقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والأمر معبَّد مُخَيَّس[١١]، ليس لأحد فيه ملمس ولا مأنَس، ولم يُسيِّر فيك قولًا، ولم يستنزل فيك قرآنًا، ولم يجزم في شأنك

(١) العي: عدم القدرة على الكلام، والشي إتباعًا للعي.
(٢) الخُنْزُوانة: الكِبْر.
(٣) فرَاشُ الرَّأْس : عِظَامٌ رِقَاقٌ فِي الرَّأْس.
(٤) الوَحَرة: دَابَّةٌ صَغِيرَةٌ، أَصْغَرُ مِنَ العظَاءة، بَيْضَاءُ مُنَقَّطَةٌ بِحُمْرَةٍ، عَلَى شَكْلِ سامٍّ أَبْرَصَ، لَهَا ذَنَبٌ دَقِيقٌ تَضْرِبُ بِه، تَسُمُّ الطَّعَامَ أَو الشَّرَابَ إِذَا وَطَأَتْهُ.
(٥) الشُّرْسُوفُ: الطَّرَفُ اللَّيِّن مِن الضِّلَع ممّا يلي البطن والجمع: شراسيفُ.
(٦) سقط في صبح الأعشى. والدَّحْسُ : التَدْسِيسُ للأُمور تَسْتَبْطِنُها وتطلبها أَخفى ما تقدر عليه ، ولذلك سميت دُودَةٌ تحت التراب : دَحَّاسَةً .قال ابن سيده: الدَّحَّاسَة دودة تحت التراب صفراء صافية لها رأْس مُشَعَّب دقيقة تشدّها الصبيان في الفخاخ لصيد العصافير لا تؤْذي.
(٧) الأَنْقَدُ القنفذ؛ ومنه في المثل: أَسْرَى من أَنْقَدَ لأَن القنفذ لا ينام الليلَ كلَّه، ومنه أَيضًا قولُهم: بات بلَيْل أَنْقَدَ: لم يَنَم.
(٨) العَوان: المرأة التي قد أسنت ولم تهرم، أي أنها لا تحتاج إلى تعلم الاختمار، يضرب للرجل المجرِّب.
(٩) الحَصَان: المرأة العفيفة. الخَبرة: الاختبار.
(١٠) الفرعاء: طويلة الشعر.
(١١) مُخَيَّس: مَذَلَّل.

حكمًا][1]، ولسنا في كِسْرويَّة كِسْرى، ولا في قيصرية قيصر، تانك لأخدان فارس[2]، وأبناء الأصفر، قوم جعلهم الله جزَرًا[3] لسيوفنا، وجَرَرًا[4] لرماحنا، ومُزَعًا[5] لطعاننا، وتَبَعًا لسلطاننا. بل نحن في نور نبوةٍ ، وضياء رسالة، وثمرة حكمة، وآثار رحمة، وعنوان نعمة، وظل عصمة، بين أمة مهديَّة بالحق والصدق، مأمونة على الفَتْق والرَّتْق، لها من الله قلبٌ أبيٌّ، وساعِدٌ قويٌّ، ويدٌ ناصرةٌ، وعينٌ باصرةٌ.

أتظنُّ ظنًّا أن أبا بكر وثب على هذا الأمر[6] مُفْتاتًا[7] على هذه الأمة خادعًا لها، أو متسلِّطًا عليها؟ أتراه امتَلَخَ[8] أحلامها، وأزاغ أبصارها، وحَلَّ عقودها، وأخال عقولها، واستلَّ من صدورها حميَّتها، وانتزع من أكبادها عصبيَّتها، وانتكث رشاءها، وأنضب ماءها، وأضلَّها عن هُداها، وساقها إلى رَداها، وجعل نهارها ليلًا، ووزنها كَيْلًا، ويقظتها رُقادًا، وصلاحها فسادًا؟ إن كان هكذا إنَّ سحرَه لمبين، وإنَّ كيده لمتين. كلا والله، بأي خيلٍ ورَجْل، وبأي سِنان ونَصْل، وبأي قوة ومُنَّة، وبأي ذُخْر وعُدَّة، وبأي أيدٍ وشدَّة، وبأي عشيرة وأسرة، وبأي تَدْريج[9] وبَسْطة. لقد أصبح عندك بما وسَمْتَه منيع الرتبة، رفيع العتبة، لا والله! ولكن سَلا عنها، فولهت له، وتطامن لها فلصِقَت به، ومال عنها فمالت إليه، واستمر دونها فاشتملت عليه. حبوةٌ حباه الله بها، وعاقبةٌ بلَّغه الله إيَّاها، ونعمةٌ سَربَلَه جمالها، ويدٌ أوجب الله عليه شُكرَها، وأمةً نظر الله به لها،

(١) ما بين قوسين سقط في صبح الأعشى.
(٢) في صبح الأعشى: تأملْ لإخوان فارس.
(٣) الجَزَر: كل شيء مباح للذبح.
(٤) جررًا لرماحنا: أي مطعونين بها يجرونها، من قولهم: أجر فلانًا، إذا طعنه وترك الرمح فيه يجره. وفي صبح الأعشى: دريئة.
(٥) المُزعة: القطعة من اللحم. وفي صبح الأعشى: ومرمًى.
(٦) يعني الخلافة.
(٧) اسم مفعول من (افتات) وافْتَاتَ في الأَمر: استبدَّ ولم يستشر مَن له الرأْي فيه.
(٨) امْتُلِخَ عقلَ فلان : ذَهَبَ واسْتُلِب.
(٩) التدريج: من دَرَجَ الثوبَ: إذا طواه ولفَّه.

[وطالما حَلَّقَتْ فوقه أيامَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفتُ لِفْتها، ولا يرتصدُ وقتها][1]، والله أعلمُ بخَلْقِه، وأرأفُ بعبادِه، يختارُ ما كان لهم الخِيَرة.

وإنك بحيث لا يُجْهَلُ موضعُك من بيتِ النبوة، ومَعْدِنِ الرسالة، [وكَهْفِ الحكمة][2]، ولا يُجْحَدُ حقُّكَ فيما آتاك ربُّك، ولكن لك مَنْ يزاحمُك بمنكِب أضخمَ من منكبك، وقُرْبى أمسَّ من قُرْباك، وسنٍّ أعلى من سنِّك، وشبيبةٍ أروعَ من شَبيْبتك، وسيادةٍ لها عِرْقٌ[3] في الجاهلية وفرعٌ في الإسلام، ومواقفُ ليس لك فيها جملٌ ولا ناقةٌ، ولا تُذْكر في مُقَدِّمةٍ منها ولا ساقةٍ، ولا تَضْرِب فيها بذراع ولا إصبع، ولا تخرج منها بِهُبَع ولا رُبَع[4].

فأما أبو بكر الصديق فلم يزل حَبَّة قلب رسول الله، وعِلاقة همِّه، وعَيْبة[5] سرِّه، [ومثوى حُزنه][6]، ومفزع رأيه ومشورته، وراحة كفِّه، ومَرْمَق طَرْفه، وذلك كلُّه بمحضر الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار. شُهرتُه مُغنية عن الدلالة عليه، ولعمري إنك أقرب إلى رسول الله قرابةً، لكنه أقرب قُرْبَةً، والقرابةُ لحم ودم، والقُربة رُوح ونَفْس، وهذا فَرْقٌ قد عرفه المسلمون ولذلك صار معه المؤمنون أجمعون. ومهما شككت في ذلك فلا تَشُكَّ أن يدَ الله مع الجماعة، ورضوانَه لأهل الطاعة، فادخلْ فيما هو خيرٌ لك اليومَ، وأنفعُ لك غدًا، والْفِظ من فِيكَ ما تعلَّق بلَهاتك، وانفُث السخيمةَ من صَدْرِك[7]، فإن يكن في الأمل طول، وفي الأجل فُسْحة، فستأكله مريئًا

(١) غير موجود في صبح الأعشى.

(٢) سقطت في صبح الأعشى.

(٣) في صبح الأعشى: أصل.

(٤) الهُبَعُ: الفَصيلُ (صغير الإبل) الذي يُنْتَجُ في الصيف. والرُّبَعُ: الفصيل يُنْتَج في الربيع وهو أَول النّتاج. وفي صبح الأعشى: ببازل ولا هبع.

(٥) العَيْبَةُ وعاءٌ من أَدَم ونحوه يكونُ فيه المتاعُ. والجمع: عِيَبٌ، و عِيَابٌ. وعيابُ الوُدِّ: الصُّدورُ والقلوب .يقال: كادَتْ عِيَابُ الوُدِّ تَصْفَرُ. والعَيْبَةُ من الرَّجل: موضعُ سِرِّه .يقال: فلانٌ عَيْبَةُ فُلانٍ .

(٦) سقط في صبح الأعشى.

(٧) السَّخيمَةُ والسُّخْمَةُ: الحِقْد. وفي صبح الأعشى: سخيمة صدرك عن تقاتك.

أو غير مريء، وستشربه هنيئًا أو غير هنيء، حين لا رادَّ لقولك إلا من كان آيسًا منك، ولا تابعَ لك إلا من كان طامعًا فيك، يمضُّ[1] إهابَك، ويَفْري أديمَك، ويُزْري على هَدْيك، فهناك تقرع السِّنَّ من ندم، وتَجْرَع الماءَ ممزوجًا بدم، وحينئذٍ تأْسَى على ما مَضَى من عمرك، ودَرَجَ من قومك[2]، فتودُّ أن لو سُقيت بالكأس التي أبيْتَها، ورُددت للحال التي استبريتها[3]، ولله تعالى فينا وفيك أمرٌ هو بالغُه، وغَيْبٌ هو شاهدُه، وعاقبةٌ هو المرجوّ لضرَّائها وسرَّائها، وهو الوليُّ الحميد، الغفور الودود.

قال أبو عبيدة: فمشيتُ متزمِّلًا، أتوجَّأُ[4] كأنما أخطو على أم رأسي فَرَقًا من الفُرقة، وشفقًا على الأمة، حتى وصلت إلى عليٍّ- رضي الله عنه- في خَلاء، فأبْثَثْتُهُ الأمر كله، وبرئتُ إليه منه، ورَفَقْتُ به. فلما سمعها ووعاها، وسَرَت في أوصاله حُميَّاها قال: حَلَّتْ مُعْلَوِّطة[5]، وولَّت مُخْرَوِّطَة[6]، حلٍ لا حليتٍ[7]، التَّعْسُ أوْلى لها من أن أقولَ لعَا[8]، وأنشأ يقول:

إحدى لياليكِ فهِيسي هِيسي لا تَنْعَمي الليلةَ بالتَّعريـــــسِ[9]

(١) يمضُّ: يؤلم، يوجع.

(٢) في صبح الأعشى: ودارج قوَّتك.

(٣) استبريتها: تخليت عنها وطلبت البراءة منها. وفي صبح الأعشى: استغويتها.

(٤) أتوجأ: أعرج. وفي صبح الأعشى: أنوء.

(٥) معلوطة: من الاعْلِوَّاطُ : وهو ركوبُ الرأْس والتَّقَحُّمُ على الأُمور بغير رَوِيّةٍ. وقيل: الاعْلوّاط ركوبُ العنق والتقحُّمُ على الشيء من فوق .والمعلوطة: الناقة توسم في عنقها.

(٦) المخروطة: الدابة الجموح المسرعة.

(٧) حلٍ لا حليتٍ: كانت العربُ إذا زجرت الإبل تقول: حلٍ حلٍ، فإذا لم تزجر قالت: حلٍ لا حليتٍ، أي لا أصبتِ خير، أو لا ظفؤت بما أردت.

(٨) لَعا : كلمة يُدعَى بها للعاثر معناها الارتفاع؛ قال الأَعشى:

بذاتِ لَوْثٍ عَفَرْناةٍ ، إذا عَثَرَتْ فالتَّعْسُ أَدْنى لَها مِن أَنْ أَقُولَ لَعا

قال أَبو عبيدة : منَ دعائهم لاَ لَعًا لفلانٍ أَي لا أَقامه الله والعرب تدعو على العاثر من الدّوابّ إذا كان جوادًا بالتَّعْس فتقول: تَعْساً له. وإن كان بَلِيداً كان دعاؤهم له إذا عَثَرَ: لَعًا لك ؛ وهو معنى قول الأَعشى السابق.

(٩) التعريس: الاستراحة آخر الليل بعد السير أوله. وهو مثل يُضرب لمن يقع في داهية وأمر عظيم يحتاج فيه إلى الجد والاجتهاد.

نعم يا أبا عُبيدة، أكُلُّ هذا في أنفس القوم، ويَحْتَبَوْن[1] به، ويضطبعون[2] عليه؟ قال أبو عبيدة: فقلت: لا جواب لك عندي، إنما أنا قاضٍ حقَّ الدين، وراتقٌ فَتْقَ الإسلام، وسادٌّ ثُلْمَة الأمة، يعلم الله ذلك من خَلَجات[3] قلبي، وقرارة نفسي.

فقال عليٌّ- رضي الله عنه-: والله ما كان قعودي في كِسْر[4] هذا البيت قصدًا للخلاف، ولا إنكارًا للمعروف، ولا زرايةً على مسلم، بل لما قد وَقَذَني[5] به رسول الله صلى الله عليه وسلم بفراقه، وأودَعني من الحُزن بفَقْده، وذلك أني لم أشهد بعده مشهدًا إلا جدَّد لي حزنًا، وذكَّرني شَجَنًا، وإنَّ الشوق إلى اللحاق به كافٍ عن الطمع في غيره، وقد عكفتُ على عهد الله أنظر فيه، وأجمع ما تفرَّق منه رجاءَ ثوابٍ مُعَدٍّ لمن أخلص لله عمله، وسلَّم لعِلْمه ومشيئته، وأمره ونهيه، على أني ما علمت أنَّ التظاهر عليَّ واقع، ولا عن الحق الذي سيق إليَّ دافع، وإذ قد أُفْعِمَ الوادي بي، وحُشد النادي من أجلي، فلا مرحبًا بما ساءَ أحدًا من المسلمين وسرَّني، وفي النفس حاجات لولا سابقُ قَوْل[6]، وسالفُ عهد، لشفيتُ غيظي بخِنْصَري وبِنصري، وخُضْتُ لُجَّته بأخْمصي ومَفْرَقي، لكني مُلْجَمٌ إلى أن ألقى ربي، وعنده أحتسبُ ما نزل بي، وأنا غادٍ إلى جماعتكم، مبايعٌ لصاحبكم، صابر على ما ساءني وسَرَّكم، ليَقْضيَ الله أمرًا كان مفعولًا، وكان الله على كل شيء شهيدًا.

قال أبو عبيدة: فعدتُ إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وقصَصْتُ القول على

(١) في صبح الأعشى: ويحسون.

(٢) اضْطَبَعَ الشيءَ: أدخَله تحت ضَبْعَيْه. والضَّبْعُ، بسكون الباء: وسَطُ العَضُد بلحمه يكون للإنسان وغيره، والجمع أَضْباعٌ مثلُ فَرْخ وأَفْراخ، وقيل: العَضُدُ كلُّها، وقيل: الإبْط. والاضطِباعُ الذي يُؤْمَر به الطَائفُ بالبيت: أن تُدْخِلَ الرِّداءَ من تحت إبْطِكَ الأيمَنِ وتُغَطِّيَ به الأيسر كالرجل يريد أن يُعالِجَ أمْراً فيتهيأ له .والمعنى المقصود هنا: تخفونه وتسترونه عني.

(٣) في صبح الأعشى: جُلْجُلان.

(٤) كِسْرُ البَيْتِ: جَانِبُهُ. وفي صبح الأعشى: كِنّ.

(٥) وقَذ فلانًا: ضربه حتى استرخى وأَشرفَ على الموت، وقَذ فلانًا: صَرَعَهُ، وقَذ فلانًا: تركه عليلًا.

(٦) في صبح الأعشى: عقد.

غَرِّهِ[1]، ولم أختزل شيئًا من حُلوه ومُرِّه، وذكرتُ غدوَّه إلى المسجد.

فلما كان صباحُ يومئذٍ وافى عليٌّ رضي الله عنه، فخرق الجماعة إلى أبي بكر رضي الله عنه فبايعه، وقال خيرًا، ووصف جميلًا، وجلس زِمِّيْتًا[2]، واستأذنه للقيام ونهض فشيَّعه عمر رضي الله عنه تكرمةً له، واستبراءً لما عنده.

فقال له عليٌّ رضي الله عنه: ما قعدتُ عن صاحبكم زهدًا[3] فيه، ولا أتيتُه فَرَقًا منه، وما أقول ما أقول تَعِلَّةً، وإني لأعرف مَسْمَى[4] طَرْفي، ومَخْطَى[5] قدمي، ومَنزَع قوسي، وموقع سهمي، ولكني قد أَزَمْتُ[6] على فأسي، ثقةً بالله في الإدالة[7] في الدنيا والآخرة.

فقال له عمر رضي الله عنه: كَفْكِفْ غَرْبَك[8]، واستوقفْ سِرْبك، ودَعِ العِصِيَّ بلحائها، والدِّلاء على رشائها، فإنَّا من خَلْفِها وورائها، إن قَدَحْنا أورَيْنا، وإن متَحنا أروَيْنا، وإن قَرَحْنا أدمَيْنا، [وإنْ نصحنا أربينا][9]، ولقد سمعتُ أماثيلك التي لغوتَ[10] بها عن صدر أُكِلَ بالجَوى، ولو شئتُ لقلتُ على مقالتك ما إنْ سمعتَه ندمتَ على ما قلتَه.

(١) الغَرُّ: كلُّ كَسْرٍ مُتَثَنٍّ في ثوب أَو جلد، وطويتُ فلانًا على غَرِّهِ : تركته على حاله كما كان ، من غير أَن أَكشف أمره.

(٢) زِمِّت الشَّخصُ : وقُر ورزن ، قلّ كلامه، والزمِّيت: الوقور الساكن.

(٣) في صبح الأعشى: كارهًا.

(٤) في صبح الأعشى: منتهى.

(٥) في صبح الأعشى: محطّ.

(٦) أَزَم على الشيءِ: عضَّ بالفم كله عضًّا شديدًا، وفأس اللِّجام: الحديدة المعترضة في فم الفَرَس. يريد أنه كتم ما في نفسه.

(٧) الإدالة: الغَلبة.

(٨) الغَرْبُ : الدَّمعُ.

(٩) غير موجود في صبح الأعشى.

(١٠) لغوت: تكلمت.

زعمتَ أنك قعدتَ في كِسْرِ بيتك لما وَقَذَكَ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بفراقه، أفرسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقَذَكَ وحدَك ولم يَقِذْ سواك؟ بل مُصابُه أعظمُ وأعزُّ من ذلك. وإنَّ من حق مُصابه ألَّا تصدعَ شَمْلَ الجماعة بكلمة[1] لا عِصام لها، [ولا يزري على اختيارها بما لا يؤمَنُ كَيْدُ الشيطان في عقباها][2]. هذه العَرَبُ حولنا، والله لو تداعت علينا في مَصبح يوم لم نلتقِ في ممساه.

وزعمتَ أن الشوق إلى اللحاق به كافٍ عن الطمع في غيره، فمن الشوق إليه نُصرةُ دينه، ومؤازرةُ أولياء الله تعالى ومعاونتهم فيه.

وزعمتَ أنك عكفت على عهد الله تجمعُ ما تبدَّد منه، فمن العكوف على عهد الله النصيحةُ لعباده، والرأفةُ على خَلْقه، وبذلُ ما يَصْلَحون به، ويَرْشدون إليه.

وزعمتَ أنك لم تعلم أن التظاهر عليك واقعٌ، ولا لك عن الحق الذي سيقَ إليك دافعٌ، فأيّ تظاهر وقع عليك، وأي حقٍّ لُطَّ[3] دونك؟ قد سمعتَ وعلمتَ ما قال الأنصارُ سرًّا وجَهْرًا، وتقلَّبتَ عليه بطنًا وظهرًا، فهل ذكرتْك أو أشارت بك، أو وَجَدْتَ رضاهم عنك؟

هؤلاء المهاجرون والأنصار، مَنِ الذي قالَ بلسانه: إنَّك تصلحُ لهذا الأمر، أو أومأ بعينه، أو هَمْهَمَ[4] في نفسه؟ أتظن أن الناس قد ضلوا من أجلك، أو عادوا كفَّارًا زُهدًا فيك، وباعوا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم تحاملًا عليك؟ لا والله! [ولكنك اعتزلتَ تنتظر الوحي، وتتوكف[5] مناجاة الملَك. ذلك أمر طواه الله- عز

(١) في صبح الأعشى: بفرقةٍ.
(٢) في صبح الأعشى: ولا يؤمن كيدُ الشيطان في بقائها.
(٣) لُطَّ: خفي واستتر.
(٤) هَمْهَمَ الرَّجُلُ: تَكَلَّمَ كَلاَماً خَفِيًّا يُسْمَعُ وَلا يُفْهَمُ مَغْزَاهُ.
(٥) تتوكف: تنتظر وتتوقع.

وجل- بعد محمد- صلى الله عليه وسلم- كأنَّ الأمرَ معقودٌ بأُنشُوطة[١]، أو مشدودٌ بأطراف لِيطة[٢]][٣].

كلَّا والله! [إنَّ الغاية لمُخْلقة، وإنَّ الشجرة لمُورقة، و][٤] لا عَجماءَ بعد حمد الله إلَّا وقد أفصحت، ولا عجفاءَ إلا وقد سَمِنَتْ، ولا بلهاءَ إلا وقد فَطَنَتْ، ولا شوكاء[٥] إلا وقد نَفَحَتْ[٦].

ومن أعجب شأنك قولك: لولا سابقُ قولٍ، وسالف عهد، لشَفَيْتُ غيظي، وهل تَرَكَ الدينُ لأحد من أهله أن يشفيَ غيظَه بيده ولسانه؟ تلك جاهليَّة قد استأصل الله شأْفتَها، ودفعَ عن الناس آفتها، واقتلع جُرثومتها[٧]، وهوَّر[٨] ليلها، وغوَّر سَيْلها، وأبدل منها الرَّوح والرَّيحان، والهدى والبُرهان.

وزعمتَ أنك مُلْجَمٌ، فلعمري إنَّ من اتقى الله عزل وجل، وآثر رضاه، وطلب ما عنده، أمسك لسانه، وأطبق فاه، وجعل سَعْيَه لما وراه.

قال عليٌّ رضي الله عنه: مَهْلًا يا أبا حفص، والله ما بذلتُ ما بذلتُ وأنا أريدُ نَكْثَه، ولا أقررتُ بما أقررتُ وأنا أبغي حِوَلًا عنه، وإنَّ أخسرَ الناسِ صفقةً عند الله مَنْ آثرَ

(١) الأُنْشُوطَةُ: عُقْدَةٌ يسهل انحلالُها.

(٢) اللِّيطَةُ: قشرةُ القصبةِ والقَوسِ والقناةِ وكلِّ شيءٍ له متانة.

(٣) جاء ما بين معقوفتين في صبح الأعشى هكذا: (لا والله! لقد جاءني عَقيل بن زياد الخزرجيّ في نفر من أصحابه ومعهم شُرحبيل بن يعقوب الخزرجي وقالوا: إن عليًّا ينتظر الإمامة، ويزعم أن أولى بها من غيره، وينكر على مَنْ يعقد الخلافة، فأنكرتُ عليهم، ورددتُ القول في نحرهم حيث قالوا: إنه ينتظر الوحيَ ويتوكّف مناجاة المَلَك. فقلتُ: ذاك أمرٌ طواه الله بعد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، أكان الأمر معقودًا بأُنْشُوطة، أو مشدودًا بأطراف ليطة؟).

(٤) ما بين معقوفتين سقط في صبح الأعشى.

(٥) شوكاء: صفة لمحذوف محذوف، أي شجرة شوكاء.

(٦) نَفحت: نشرت رائحتها. وفي صبح الأعشى: تفتحت.

(٧) الجُرْثُومَةُ: أصل الشيء، ومصدره، ومجتمعُه.

(٨) هوَّر: أذهب.

النِّفاقَ، واحتضنَ الشقاقَ، وبالله سلوة من كل كارث، وعليه التوكل في كل الحوادث.

ارجع يا أبا حفص إلى مجلسك ناقعَ القلب، مبرودَ الغليل، فسيحَ اللَّبان[1]، فليس وراء ما سمعتَ وقلتُ إلَّا ما يشدُّ الأَزْرَ، ويمنع الإصرَ، ويجمع الألفةَ، [ويرفع الكلفةَ، ويوقع الزُّلفةَ][2] بمعونة الله عز وجل وحُسن توفيقه.

قال أبو عُبيدة: وانصرف عُمَرُ، وهذا أصعبُ ما مرَّ بنا[3] بعد فراقِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم.

* * *

(١) اللَّبان: الصدر.

(٢) غير موجود في صبح الأعشى.

(٣) في صبح الأعشى: فانصرف عليٌّ وعمر رضي الله عنهما. وهذا أصعبُ ما مرَّ عليَّ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

تعقيب على رسالة السقيفة

أجمع كثير من الباحثين -قديمًا وحديثًا- الذين درسوا ما كتبه أبو حيان التوحيدي أن معظم ما يكتبه هو نقل لروايات وآراء من سبقوه، فقد كان لمهنة الوراقة التي كان يمارسها دورًا كبيرًا في اطلاعه على ثقافة عصره وإنتاج غيره، ويعايش أكابر العلماء والمبدعين في مختلف العلوم والفنون. بل إن الناظر في آثار أبي حيان، لا يحتاج إلى كبير جهد ليدرك أنه أمام روايات ناسخ وراق، وجامع محقق، وصيرفي نقاد جيد الاختيار، أكثر مما هو بإزاء مبدع مبتكر[1].

ورسالة السقيفة التي عرضنا لها آنفًا تمثل جانب النضال بين السنة والشيعة في عصر بني بويه. ذلك العصر الذي اشتدت فيه المنازعات المذهبية والسياسية والفكرية، واشترك فيها الناس على اختلاف عقائدهم وأعراقهم وتفاوت أنصبائهم من العلم والمعرفة.

ومعنى السقيفة هي الحادثة التي حدثت بعد وفاة الرسول- صلى الله عليه وسلم- حيث اجتمع عدد من الصحابة من المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة حيث دارت بينهم مفاوضات انتهت باختيار أبي بكر أول خليفة للمسلمين. وتعد حادثة السقيفة أهم جذور الخلاف بين السنة والشيعة ونقطة خلاف دينية وتاريخية.

(١) د. محمد عمارة: أبو حيان التوحيدي بين الزندقة والإبداع، سلسلة في التنوير الإسلامي، ص ٤١، نهضة مصر، ١٩٩٧.

وذكر إبراهيم كيلاني في معرض حديثه عن مبررات التوحيدي لكتابة هذه الرسالة: ولم يفت التوحيدي- وموقفه كمعتزلي من الإمامة والتشيع معروف- أن يسهم في هذه الحركة فألَّف رسالة السقيفة تحت تأثير عاملين: الحوادث الدامية التي وقعت في زمنه بين السنة والروافض... والثاني العداوة الشخصية التي تأججت نارها بين التوحيدي من جهة وابن العميد والصاحب بن عباد من جهة أخرى، وهذان الوزيران كانا من أكابر الشيعة في زمانهما. ولا ريب في أن التوحيدي قصد في تأليف رسالته إغاظتهما والانتقام منهما لأنهما أساءا إليه وحرماه رِفْدهما[1].

وهناك نقطتان في كلام الدكتور إبراهيم الكيلاني نود أن نشير إليهما.

النقطة الأولى خاصة بكون التوحيدي معتزليًّا شيعيًّا، ولنبدأ بنسبة التوحيدي إلى المعتزلة فقد فنَّد هذا القول الدكتور محمد عمارة في دراسته الشائقة عن أبي حيان في كتابه الرائع: (أبو حيان التوحيدي بين الزندقة والإبداع) والذي ناقش فيه موضوع نسبة التوحيدي إلى المعتزلة وموقف التوحيدي من بعض قضاياهم كالجبر والاختيار والقضاء والقدر، قال ملخصًا كلامه: ونحن لا نناقش صواب أو خطأ هذا الذي قال به التوحيدي.. وإنما نسوقه تنبيهًا على خطأ، بل وغفلة الذين تحدثوا عن اعتزاليته وعقلانيته، واشتغاله بالفلسفة وعلم الكلام.. فالرجل يفضل منهاج «أصحاب الحديث أنصار الأثر» على منهاج «المتكلمين»، بل ويتهم المتكلمين في دينهم، قائلًا: «من طلب الدين بالكلام ألحد».

ويتمنى استئصال شأفتهم، وإراحة العباد والبلاد منهم، حتى لكأنه نوح الذي يدعو الله ألا يذر على الأرض من دَيَّارًا.. فأني تكون للرجل صلة بالاعتزال والكلام والفلسفة والعقلانية[2].

(١) ثلاث رسائل للتوحيدي، د. إبراهيم كيلاني، المعهد الفرنسي بدمشق، ١٩٥١.
(٢) أبو حيان التوحيدي بين الزندقة والإبداع، ص ٢٣.

أما القول بأن التوحيدي كان شيعيًّا فيناقضه القول بأنه أراد من تأليف هذه الرسالة إغاظة الوزيرين وابن العميد والصاحب بن عباد وكانا من أكابر الشيعة في زمانهما لأنهما أساءا إليه وحرماه رِفْدهما.

النقطة الثانية التي ذكرها إبراهيم كيلاني أن هذه الرسالة من تأليف التوحيدي نفسه. وهذا كلام صحيح ذهب إليه كثير ممن درسوا تراث التوحيدي. فها هو ابن أبي الحديد (عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله بن محمّد بن محمّد بن حسين ابن أبي الحديد المدائنيّ، وهو أحد أبرز الكتاب والعلماء، والفقهاء في عصره) يقول في نهج البلاغة:

«قلت: الذي يغلب على ظني أن هذه المراسلات والمحاورات والكلام كله مصنوع موضوع، وأنه من كلام أبى حيان التوحيدي، لأنه بكلامه ومذهبه في الخطابة والبلاغة أشبه، وقد حفظنا كلام عمر ورسائله، وكلام أبى بكر وخطبه، فلم نجدهما يذهبان هذا المذهب، ولا يسلكان هذا السبيل في كلامهما، وهذا كلام عليه أثر التوليد ليس بخفي، وأين أبو بكر وعمر من البديع وصناعة المحدثين! ومن تأمل كلام أبى حيان عرف أن هذا الكلام من ذلك المعدن خرج، ويدل عليه أنه أسنده إلى القاضي أبى حامد المروروذي، وهذه عادته في كتاب البصائر يسند إلى القاضي أبى حامد كل ما يريد أن يقوله هو من تلقاء نفسه، إذا كان كارهًا لأن يُنسب إليه، وأنما ذكرناه نحن في هذا الكتاب، لأنه وإن كان عندنا موضوعًا منحولًا، فإنه صورة ما جرت عليه حال القوم، فهم وإن لم ينطقوا به بلسان المقال، فقد نطقوا به بلسان الحال.

ومما يوضح لك أنه مصنوع، أن المتكلمين على اختلاف مقالاتهم من المعتزلة والشيعة والأشعرية وأصحاب الحديث، وكل من صنف في علم الكلام والإمامة لم يذكر أحد منهم كلمة واحدة من هذه الحكاية، ولقد كان المرتضى رحمه الله يلتقط من كلام أمير المؤمنين عليه السلام اللفظة الشاذة، والكلمة المفردة الصادرة عنه عليه

السلام، في معرض التألم والتظلم، فيحتج بها، ويعتمد عليها»[1].

وقد وافق ابن أبي الحديد من المعاصرين الأستاذ حسن السندوبي عند تعقيبه على هذه الرسالة، وذهب إلى أن الدافع لنشر هذه الرسالة هو روعة أسلوبها وجمال تنميقها. يقول: وما أزال كثير الحث لإخواني على قراءتها والانتفاع بأسلوبها العالي، وموضوعها الراقي، ومعانيها الفريدة، وعباراتها البليغة،وألفاظها المنتقاة، وكلماتها المصطفاة؛ لأنها من أفضل الرسائل التي يحذوها الكاتب[2].

❊ ❊ ❊

(١) شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد (١٠/ ٢٨٥-٢٨٦).

(٢) المقابسات، تحقيق حسن السندوبي، ص ٤١.

(٣)

رسالة إخوان الصفاء

قال أبو حيان: سألني وزيرُ صمصام الدولة في حدود سنة ٣٧٣ هـ فقال:

حَدِّثْنِي عن شيء هو أهمُّ من هذا لي، وأخطرُ على بالي؛ إني لا أزال أسمع من زيد ابن رفاعة[١] قولًا يُريبني، ومذهبًا لا عهدَ لي به، وكنايةً عمَّا لا أحقُّه، وإشارةً إلى ما لا يتضح شيء منه؛ يذكر الحروفَ، ويذكر النُّقطَ، ويزعم أنَّ الباءَ لم تُنقط من تحت واحدة إلا لسبب، والتاءَ لم تنقط من فوق اثنتين إلا لعلة، والألفَ لم تعجم إلا لغرض، وأشباه هذا.

وأشهد منه في عَرَضِ هذا دعوَى يتعاظمُ بها، ويتنفَّج[٢] بذِكرها. فما حديثُه؟ وما شأنُه؟ وما دخلتُه؟ فقد بلغني يا أبا حيان أنَّك تغشاه وتجلسُ إليه وتُكْثِرُ عنده. وتُوَرِّقُ له، ولك معه نوادرُ مضحِكة، وبَوادِرُ معجِبة. ومن طالب عِشرَتُهُ لإنسانٍ صَدَقَتْ خِبْرَتُه به، وانكَشَف أمرُه له، وأمكنَ اطّلاعُه على مستكِنِّ رأيِه وخافِي مَذْهَبِه وعويصِ طريقته.

فقلتُ: أيُّها الوزير، أنت الذي تعرفه قبلي قديمًا وحديثًا بالتربية والاختبار والاستخدام، وله منك الأخوة القديمة والنسبة المعروفة.

قال: دَعْ هذا وصِفْه لي.

(١) سبق الترجمة له في رسالة الحياة ص ٤٣ .

(٢) يتنفج: يفتخر بما ليس فيه.

قلتُ: هناك ذَكاءٌ غالبٌ وذِهْنٌ وقّادٌ، ويَقَظةٌ حاضرة، وسَوانحُ متناصرة[1]، ومتَّسَعٌ في فُنونِ النَّظْمِ والنثْرِ، مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة، وحفظِ أيام الناس، وسماعٍ للمقالات، وتبصُّرٍ في الآراء والدِّيانات، وتصرُّفٍ في كلّ فنٍّ: إمَّا بالشدْوِ[2] المُوهِم، وإمَّا بالتَّبصّر المُفهِم، وإما بالتَّناهي المُفْحِم.

فقال: فَعَلَى هذا ما مذهبُه؟

قلتُ: لا يُنسب إلى شيء، ولا يُعْرَف برَهْط، لجَيَشانه بكل شيء، وغَليانِه في كل باب. ولاختلاف ما يبدو من بسْطَةِ تِبْيانه، وسطوته بلسانه. وقد أقام بالبصرة زمانًا طويلًا، وصادَفَ بها جماعةً جامعةً لأصناف العِلْم وأنواعِ الصِّناعة؛ منهم أبو سليمان محمدُ بنُ مَعْشر البُسْتِيّ[3]، ويُعْرف بالمَقْدِسيّ، وأبو الحسن علي بن هارون الزَّنْجانيّ، وأبو أحمد المِهْرَجانيّ[4]، والعوْقيّ وغيرِهم، فصحِبَهم وخَدمَهم؛ وكانت هذه العصابة قد تآلَفَت بالعِشْرة، وتَصافتْ بالصّداقة، واجتمعتْ على القُدْس والطَّهارة والنصيحة، فوَضعوا بينهم مذهبًا زعموا أنّهم قرّبوا به الطريقَ إلى الفَوْز برضوان الله والمصير إلى جنَّته، وذلك أنهم قالوا: الشريعة قد دُنِّستْ بالجهَالات، واختَلَطَتْ بالضَّلالات؛ ولا سبيلَ إلى غَسْلِها وتطهيرها إلا بالفلسفة، وذلك لأنّها حاويةٌ للحِكمة الاعتقاديّة، والمصلحة الاجتهاديّة.

وزعموا أنه متى انتظَمت الفلسفةُ اليونانية والشريعةُ العربية فقد حصل الكمالُ؛ وصنّفوا خمسين رسالةً في جميع أجزاء الفلسفة: عِلْميِّها وعَمَليِّها، وأفرَدوا لها فِهْرِسْتًا وسمَّوها رسائلَ إخوان الصَّفاء وخلّان الوفاء، وكتموا أسماءهم، وَبثُّوها في

(١) متناصرة، أي ينصر بعضها بعضًا.

(٢) بالشدو: أي أخذ العلم وتلقيه.

(٣) هو أبو سليمان حَمْد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي الخطابي الشافعي، ولد سنة ٣١٩ هـ وتوفي سنة ٣٨٨هـ. المشهور باسم الخطابي، محدث وفقيه وعالم مسلم من كبار أئمة الشافعية، ولد في مدينة بست، وهي بلدة من بلاد كابل بين غزنة وهراة. (انظر الأنساب للسمعاني: ٢/ ٢٨٨).

(٤) المهرجاني: نسبة إلى مهرجان من قرى أسفرايين أو مهرجان قذق، وهو كورة.

الوَرّاقِين، ولقَّنوها الناسَ، وادَّعَوا أنّهمْ ما فعلوا ذلك إلا ابتغاءَ وجهِ اللهِ عزّ وجلّ وطلبَ رضوانِه ليخلّصوا الناسَ من الآراء الفاسدة التي تضرّ النفوس، والعَقائِدِ الخبيثةِ التي تضرّ أصحابَها، والأفعال المذمومةِ الّتي يَشقَى بها أهلُها؛ وحَشَوا هذه الرسائلَ بالكَلِم الدِّينيّة والأمثالِ الشرعيّة والحروفِ[1] المُحْتَمَلة والطُّرُق الموهِمة.

فقال: هل رأيتَ هذه الرسائل؟

قلتُ: قد رأيتُ جملةً منها، وهي مبْثوثةٌ من كلّ فنٍّ نُتَفًا بلا إشْباعٍ ولا كفاية، وفيها خُرافات وكِنايات وتلفيقات؛ وقد غَرَقَ الصَّوابُ فيها لغلبة الخطأ عليها.

وحملتُ عِدّةً منها إلى شيخنا أبي سليمان المنطقيّ السِّجِستانيّ (محمد بن بهرام) وعرضْتُها عليه ونظر فيها أيامًا واختبرها طويلًا ثم ردَّها عليَّ وقال: تَعِبوا وما أغْنَوا، ونَصِبوا وما أَجْدَوا، وحامُوا وما وَرَدوا، وغَنَّوا وما أَطرَبوا، ونَسَجوا فهَلْهَلُوا، ومَشَطوا ففَلْفَلوا[2]، ظَنّوا ما لا يكون ولا يُمكِن ولا يُستطاع؛ ظنُّوا أنهمْ يمكنهم أن يدسُّوا الفلسفةَ- التي هي علْمُ النُّجومِ والأَفْلاك والمِجَسْطِي والمقَاديرِ وآثارِ الطَّبيعة، والموسِيقى التي هي مَعْرفة النَّغَم والإيقاعاتِ والنَّقَراتِ والأَوْزان، والمنطق الّذي هو اعتبارُ الأَقْوال بالإضافات والكَمِّيات والكيفيّات- في الشريعة، وأن يَضُمّوا الشريعةَ للفلسفة.

وهذا مرامٌ دونَه حَدَد[3]؛ وقد توفَّرَ على هذا قَبْلَ هؤلاء قوم كانوا أحدَّ أنْيابًا، وأحضَرَ أسبابًا، وأعظَمَ أقْدارًا، وأرفَعَ أخْطارًا، وأوْسَعَ قُوًى، وأوْثَقَ عُرًى، فلَمْ يَتِمَّ لهمْ ما أرادُوه، ولا بَلَغوا منه ما أمَّلُوه؛ وحَصَلوا على لُوثاتٍ قبيحة، ولَطَخاتٍ فاضحة، وألقابٍ مُوحِشة، وعَواقبَ مُخْزِية، وأوْزارٍ مُثقِلة.

(١) الحروف: الكلمات.

(٢) فلفلوا: أي جعلوا الشعر شديد الجعودة. يقال: شعر مفلفل، إذا كان كذلك.

(٣) دونه حدد: أي دفع ومنع.

فقال له البُخاريّ أبو العَبّاس: ولِمَ ذلك أيها الشيخ؟

قال: إنّ الشريعةَ مأخوذةٌ عن الله- عزَّ وجلَّ- بوَساطة السَّفير بينه وبين الخَلْق مِن طريقِ الوَحْي، وبابِ المناجاة، وشهادةِ الآيات، وظهورِ المعجزات، على ما يوجِبُه العقل تارةً، ويُجَوِّزُه تارةً، لمصالحَ عامَّةٍ مُتقَنة، ومراشدَ تامَّةٍ مُبيَّنة؛ وفي أثنائها ما لا سبيلَ إلى البحثِ عَنْه، والغَوْصِ فيه؛ ولا بدَّ من التّسليم للداعي إليه، والمنبِّهِ عليه: وهناكَ يَسقُطُ (لِمَ) ويَبْطُلُ (كيْفَ)، ويَزُول (هَلَّا) ويذهبُ (لوْ) و(لَيْتَ) في الرِّيح، لأنَّ هذه الموادَّ عنها مَحْسُومة، واعتراضات المعترضين عليها مردودةٌ، وارتيابَ المُرتابين فيها ضارٌّ، وسكونَ الساكنين إليها نافع؛ وجُمْلَتُها مُشتمِلةٌ على الخير، وتَفصيلُها موصولٌ بها على حُسن التّقبُّل، وهي متداوَلة بين متعلِّق بظاهرٍ مكشوف، ومحْتَجٍّ بتأويلٍ معروفٍ؛ وناصرٍ باللغة الشائعة، وحامٍ بالجدَل المُبين، وذابٍّ بالعمل الصالح، وضاربٍ للمثل السائر، وراجعٍ إلى البرهانِ الواضح، ومتفقِّهٍ في الحلال والحرام، ومُستنِدٍ إلى الأثر والخبَرِ المشهورَين بين أهلِ المِلَّة، وراجع إلى اتفاق الأمّة. وأساسُها على الوَرَع والتَّقْوى، ومُنتهاها إلى العبادةِ وطلَبِ الزُّلْفَى.

ليس فيها حديثُ المنجِّم في تأثيراتِ الكواكِب وحركاتِ الأفلاكِ ومقادير الأجرام ومطالِع الطَّوالع ومغارب الغوارب.

ولا حديثُ تشاؤُمِها وتيامُنِها، وهُبوطِها وصُعودها، ونَحْسِها وسَعْدها، وظُهورِها واسْتِسرارِها، ورُجوعِها واستقامتِها، وتربيعِها وتثليثِها، وتسديسِها ومُقارنتِها.

ولا حديثُ صاحبِ الطبيعة الناظرِ في آثارِها، وأشكال الأُسْطُقُسَّات، بثبوتها وافتراقها، وتصريفها في الأقاليم والمعادنِ والأبدان، وما يتعلق بالحرارة والبرودة والرطوبة واليُبوسة؛ وما الفاعل وما المُنفعل منها؛ وكيف تمَازُجُها وتَزاوُجُها، وكيف تَنافُرُها وتَسايُرُها؛ وإلى أين تَسْرِي قُواها، وعلى أي شيء يَقف مُنتهاها.

ولا فيها حديثُ المهندسِ الباحثِ عن مقادير الأشياء ونُقَطِها وخطوطِها وسُطوحِها

وأجسامِها وأضلاعِها وزواياها ومقاطِعها، وما الكُرة؟ وما الدائرة؟ وما المُستقيم؟ وما المُنحنى؟

ولا فيها حديثُ المنطقيّ الباحثِ عن مراتب الأقوال، ومَناسِب الأسماء والحروف والأفعال؛ وكيف ارتباطُ بعضها ببعض على موضوع رجل من يونان حتى يَصحّ بزعمه الصدق، ويُنبَذَ الكَذِب.

وصاحبُ المنطق يرى أنّ الطبيبَ والمنجِّم والمهندِسَ وكل من فاهَ بلفظٍ وأَمَّ غرضًا فقراء إليه، محتاجون إلى ما في يديه.

قال: فَعَلَى هذا كيف يَسُوغ لإخوان الصّفاء أن ينصبوا من تِلقاء أنفسهم دعوةً تَجمع حقائقَ الفلسفة في طريق الشريعة؟

على أن وراء هذه الطوائف جماعة أيضًا لهم مآخذُ من هذه الأغراض، كصاحب العزيمة وصاحب الطِلَّسْم وعابرِ الرؤيا ومُدَّعِي السِّحْر وصاحبِ الكيمياء ومستعمِل الوَهْم.

قال: ولو كانت هذه جائزةً وممكنةً لكان الله تعالى نبَّه عليها، وكان صاحبُ الشريعة يُقوِّم شريعتَه بها، ويُكَمِّلها باستعمالها، ويتلافى نقصَها بهذه الزيادة التي يجدها في غيرِها، أو يحضّ المتفلسفين على إيضاحها بها ويتقدم إليهم بإتمامها، ويَفْرض عليهم القيامَ بكل ما يُذَبّ به عنها حسبَ طاقتهم فيها، ولم يفعل ذلك بنفسه، ولا وَكَله إلى غيره من خلفائه والقائمين بدينه؛ بل نهى عن الخوْض في هذه الأشياء، وكرَّه إلى الناس ذِكرَها، وتوعَّدَهم عليها، وقال: من أتى عرّافًا أو طارقًا[1] أو حازيًا[2] أو كاهنًا أو منجِّمًا يطلب غيب الله منه فقد حارب الله، ومن حارب الله

(١) الطارق: الذي يطرق الحصى مستخبرًا إياه عن الغيب.

(٢) الحازي: الذي ينظر في الأعضاء وفي خيلان الوجه يتكهن. ومنه قولهم: على الحازي وقعت، أي على الخبير؛ والحازي أيضًا: الذي يزجر الطير.

حُرِب، ومن غالبَه غُلب، حتى قال: «لو أنّ الله حَبَسَ عن الناس القَطْرَ سبعَ سنينَ ثم أرسله لأصبحتْ طائفةٌ به كافرين» .

ويقولون: مُطرنا بنوْء المِجْدَح، فهذا كما ترى، والمِجْدَحُ: الدَّبَران[1].

ثم قال: ولقد اختلفت الأمّةُ ضروبًا من الاختلاف في الأصول والفروع، وتنَازَعوا فيها فُنونًا من التنازع في الواضح والمُشكل من الأحكام، والحلالِ والحرام، والتفسير والتأويل، والعِيان والخبر، والعادةِ والاصطلاح؛ فما فَزعوا في شيء من ذلك إلى منجِّم ولا طبيب ولا منطقيٍّ ولا مُهَنْدِسٍ ولا مُوسيقيّ ولا صاحب عزيمةٍ وشَعْبَذة وسِحْرٍ وكِيمِياء، لأن الله تعالى تمّم الدين بنبيه صلَّى الله عليه وسلم، ولم يُحْوِجْه بعد البيان الوارد بالوَحْي إلى بيانٍ موضوعٍ بالرأي.

قال: وكما لم نجد في هذه الأمَّة من يَفْزَع إلى أصحاب الفلسفة في شيء من دِينها، فكذلك أمّة عيسى عليه السلام وهي النصارى، وكذلك المجوس.

قال: ومما يَزيدك وُضوحًا ويُريكَ عجبًا أنّ الأمّة اختلفتْ في آرائها ومذاهبها ومقالاتها فصارت أصْنافًا فيها وفِرَقًا؛ كالمُرْجِئة والمعتزِلة والشِّيعة والسُّنِّيّة والخوارِج، فما فزعتْ طائفةٌ من هذه الطوائف إلى الفلاسفة، ولا حَقَّقتْ مَقالتها بشواهدهم وشهادتهم، ولا اشتغلَتْ بطريقتهم، ولا وَجَدَتْ عندهم ما لم يكن عندها بكتاب ربِّها وأثر نبيِّها.

وهكذا الفقهاء الذين اختلفوا في الأحكام من الحلال والحرام منذ أيَّام الصَّدْر الأوّل إلى يوْمِنا هذا لم نَجِدْهم تَظاهروا بالفَلاسفة فاستنْصَروهم، ولا قالوا لهم: أعينونا بما عندكم؛ واشهدوا لنا أو علينا بما قِبَلَكُمْ.

قال: فأين الدِّينُ من الفلسفة؟ وأين الشيء المأخوذُ بالوَحْيِ النَّازل، من الشيء

(١) الدَّبَرَانُ: خمسة كواكب من الثَّور وهو من منازل القمر، أو نجمة ثنائيَّة في مجموعة نجوم برج الثَّور، تبعد عن الأرض ٦٨ سنة ضوئيّة، وهي من أسطع النُّجوم في السَّماء. ومن أسمائه المِجْدَح والتويبع وعين الثور.

المأخوذِ بالرّأي الزائل؟

فإذا أَدَلُّوا بالعقل فالعقل مَوْهِبَةٌ من الله جلّ وعزَّ لكلّ عبد، ولكن بقَدْرِ ما يُدْرك به ما يَعلوه، كما لا يَخْفى به عليه ما يَتْلوه، وليس كذلك الوحي، فإنه على نوره المنتشِر، وبيانِه الميسَّر.

قال: وبالجملة، النّبيُّ فَوْقَ الفَيْلَسُوف، والفَيْلَسُوفُ دون النبيّ؛ وعلى الفَيْلسوف أن يتّبع النبيّ، وليس على النبيّ أن يَتَّبع الفيْلَسُوف، لأنّ النبيّ مبعوث، والفيلسوفَ مبعوثٌ إليه.

قال: ولو كان العقلُ يُكتَفى به لم يكن للوحْي فائدةٌ ولا غَناءٌ، على أن منازِل الناسِ متفاوتةٌ في العقل، وأنْصِباؤهم مختلفةٌ فيه؛ فلو كنّا نَسْتَغْني عن الوحي بالعَقْل كيف كنّا نَصْنَع، وليس العَقْل بأسْرِه لواحدٍ منّا، وإنما هو لجميع الناس، فإن قال قائل بالعبث والجهل: كلُّ عاقل مَوْكُولٌ إلى قَدْرِ عَقلِه، وليس عليه أن يَسْتَفيد الزيادة مِنْ غيْرِه، لأنّه مَكْفِيٌّ به، وغيرُ مُطالَبٍ بما زاد عليه.

قيل له: كفاكَ تمادِيًا في هذا الرأي أنه ليس لك فيه موافِق، ولا عليه مُطابِق؛ ولو استقلّ إنسانٌ واحدٌ بعقله في جميع حالاته في دينه ودنياه لاستقلّ أيضًا بقوته في جميع حاجاته في دينه ودنياه، ولكان وَحْدَه يفي بجميع الصِّناعات والمعارف، وكان لا يحتاج إلى أحدٍ من نوعه وجِنْسه؛ وهذا قَوْلٌ مَرْذُول ورأيٌ مَخْذول.

قال البخاريّ: وقد اختلفَتْ أيضًا دَرَجاتُ النبوة بالوَحْي، وإذا ساغ هذا الاختلاف في الوَحْي ولم يكن ذلك ثالمًا له، ساغ أيضًا في العَقل ولم يكن مؤثِّرًا فيه.

فقال: يا هذا، اختلافُ درجات أصحاب الوَحْي لم يُخْرِجْهُمْ عن الثِّقة والطُّمَأنينة بمن اصطفاهم بالوَحْي، وخصَّهُمْ بالمناجاة، واجتباهم للرسالة، وأكمَلَهم بما ألْبَسَهُمْ من شِعار النبوة؛ وهذه الثِّقةُ والطُّمَأْنينة مفقُودتان في الناظرين بالعقول المختلفة، لأنهم على بُعْدٍ من الثّقة والطُّمأْنينة إلاّ في الشيء القليل والنَّزْرِ اليَسير؛ وعَوارُ هذا

الكلامِ ظاهِر، وخَطَلُ هذا المتكلِّم بَيِّن.

قال الوزير: أفما سمعَ شيئًا من هذا المقدسيُّ؟ قلتُ: بَلَى، قد ألقيْتُ إليه هذا وما أشْبهه بالزّيادة والنقصان، والتقديم والتأخير، في أوقات كثيرة بحَضْرَةِ حَمْزَةَ الورّاق في الورَّاقين، فسَكتَ، وما رآني أهلًا للجواب؛ لكن الجريريّ غلام ابن طَرّارة هَيَّجَه يومًا في الورّاقين بمثْل هذا الكلام؛ فاندفع فقال: الشريعة طِبُّ المَرضَى، والفلْسفةُ طِبّ الأصحّاء، والأنبياء يُطبّبون للمَرْضَى حتى لا يتزايَد مَرَضُهُمْ، وحتى يزولَ المرضُ بالعافية فقط. فأما الفلاسفة فإنهم يَحفظون الصّحةَ على أصْحابها حتى لا يَعْتَرِيهمْ مَرَضٌ أصلًا، فبين مدبِّرِ المريض ومدبِّرِ الصحيحِ فَرْقٌ ظاهر وأمرٌ مكشوف، لأن غاية مدبِّر المريض أن ينتقل به إلى الصحة، هذا إذا كان الدواء ناجعًا، والطبعُ قابلًا، والطبيبُ ناصحًا، وغاية مدبِّر الصحيح أن يحفظ الصحَّةَ، وإذا حفِظَ الصحّة فقد أفادَهُ كَسْبَ الفضائل، وفرَّغه لها، وعَرَّضَه لاقتنائها؛ وصاحبُ هذه الحال فائزٌ بالسعادة العُظْمى، ومتبوِّئٌ الدرجةَ العُليا؛ وقد صار مستحقّا للحياة الإلهيَّة؛ والحياةُ الإلهيةُ من الخُلودِ والدَّيْمومةِ والسَّرْمَدِية.

فإنْ كَسَبَ من يَبرأ من المرضِ بطبِّ صاحِبه الفضائلَ أيضًا؛ فليست تلك الفضائلُ من جِنْس هذه الفضائل، لأنّ إحداهما تقليديّة، والأخرى برهانيّة؛ وهذه مظْنونةٌ، وهذه مستيقَنة، وهذه رُوحانيّة، وهذه جسميّة، وهذه دَهْريّة، وهذه زَمانيّة.

* * *

تعقيب على رسالة إخوان الصفاء

ظهرت رسائل إخوان الصفاء في القرن الرابع الهجري، وهي من أهم المصادر للفلسفة الإسلامية، ولا تعرف أسماء مؤلفيها بالضبط، ولكن يرجح أن التوحيدي كان بينهم- كما يذكر زكي مبارك في كتابه «النثر الفني في القرن الرابع الهجري».

أما لغتها فليست من النثر الفني الذي كلف به مشاهير الكتاب في ذلك العصر، ولكنها لغة وسط بين لغة الكتابة ولغة التأليف؛ لأن كُتابها أرادوا أن يفهموا الجماهير ما يرمون إليه من الأغراض السياسية والدينية، فلم يكن لهم بد من أن يتخيروا تلك اللغة الخالصة من شوائب البديع؛ كالسجع والتورية والجناس، ولكن غلبت عليهم النزعة العامية في بعض الأحيان(١).

ورسائل إخوان الصفاء هذه تمثل الحياة العقلية في ذلك العصر، كما تمثل الحياة السياسية أو قل أقوى من تمثيلها للحياة السياسية، فهي مرآة تنعكس فيها الحياة العقلية انعكاسًا مباشرًا، ونحن نرى فيها هذه الحياة واضحة جلية، نرى أن العقل الإسلامي في القرن الرابع كان قد وعى ما نُقِلَ إليه من فلسفة اليونان وحكمة الهند وآداب الفرس والآداب العربية والإسلام وغيره من الديانات السماوية وغير السماوية، وجمع ذلك كله، ورتَّبه ولاءم بينه، وحاول أن يكوِّن منه مزاجًا واحدًا مؤتلفًا هو خلاصة الثقافة التي يجب على الرجل المستنير حقًّا أن يظفر بها، ويأخذ منها بالحظ الموفور(٢).

(١) انظر: النثر الفني في القرن الرابع الهجري، ص ٤٩٦. وسنذكر هذا الأمر لاحقًا.

(٢) انظر: رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، والمقدمة التي كتبها طه حسين للكتاب ص ٧ وما بعدها.

أما مسألة انتساب أبي حيان التوحيدي إلى إخوان الصفاء، وأنه كان أحد كتابها كما ذكر زكي مبارك وأحمد أمين، فإن فوائد معصوم في كتابه «إخوان الصفا: فلسفتهم وغايتهم» يذكر أن أبا حيان سواء أكان منتميًا إلى هذه الجماعة أم لم يكن، فإن لكلامه قيمته التاريخية والموضوعية، ذلك أنه كان متصلًا بالجماعات الفلسفية والحركات السرية، يدل على ذلك كتبه، وبالأخص «المقابسات» و«الإمتاع والمؤانسة» وقلقه وسخطه على الأوضاع السائدة في عصره. وقد ورَّق لزيد بن رفاعة، أي كان ينسخ له كتبه ورسائله، وصلته به كانت حميمة، كما يدل على ذلك كتاب الوزير[١].

وقد اعتمد بعض المؤرخين على ما جاء في رسالة أبي حيان عن إخوان الصفاء في تحديد بعض كُتَّاب تلك الرسائل المنسوبة إلى إخوان الصفاء، المحاطة بسياج قوي من السرية والكتمان، فالبيهقي (المتوفى سنة ٥٦٥ هـ = ١١٦٩م) يؤكد كلام أبي حيان. والخوارزمي (المتوفى عام ٦١٧هـ = ١٢٢٠م) يقول عند الكلام عن رسائل إخوان الصفاء: «صنفها جماعة من الحكماء، منهم أبو سليمان بن محمد بن مسعر المقدسي وأبو حسن علي بن هارون الزنجاني وأبو أحمد النهرجوري[٢]، وزيد بن رفاعة، وألفاظ هذه الرسائل للمقدسي» ويذهب إلى ذلك كل من القفطي (المتوفى سنة ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨م) والشهرزوري (المتوفى عام ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ م) وابن العبري (المتوفى سنة ٦٨٥ هـ = ١٢٨٦م)[٣].

وهي نفس الأسماء التي ذكرها أبو حيان في هذه الرسالة؛ لذلك تكتسب هذه الرسالة قيمة تاريخية كبيرة، فهي من الرسائل النادرة التى تكشف عن بعض محرري رسائل إخوان الصفاء المحاطة بالغموض والكتمان.

* * *

(١) فؤاد معصوم: إخوان الصفا: فلسفتهم وغايتهم، دار المدى، مصر، ص ٥٣.

(٢) ذكره أبو حيان باسم: أبو أحمد المِهْرَجانيّ. راجع ص ٨٦ والهامش رقم (٤) في نفس الصفحة.

(٣) إخوان الصفا: فلسفتهم وغايتهم، ص ٥٦.

(٤)

رسالة في العلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

أطالَ اللهُ بقاءكم، وأدامَ كرامتَكُمْ، وَحَرَسَ نِعمَهُ عليكم، وحفظ مواهبَهُ لديكُمْ، ولا أَخلاكُمْ من عوائِدِهِ الجسيمةِ، وفوائِدِهِ الكَرِيْمَة. وَجَعَلَ حَظَّ الغريب السَّلامةَ بينكم، إذا فاتته الغنيمةُ منكم، وقد كان يقالُ:

مَنْ لَمْ يغضبْ لِنَفْسِهِ ناصرًا، لم يغضبْ لبَنِي جنسهِ منتصرًا. ومن لم يَخِفَّ عند العظيمة منتصفًا، لم يُرْجَ عند النَّوائبِ مُسْعِفًا. ومن لم يأنف من القذع[١] في عِرْضِهِ آبيًا لم يبتْ عَلَى الخسف[٢] إلا راضيًا.

فالغضبُ، وإن كان مذمومًا عند بعض الخلال[٣]، فإنَّهُ محمودٌ في بعض الأحوال، وكما أنَّ استمرارَ الغَضَبِ، في جميعِ الأحوالِ، نوعٌ من فساد الأخلاق، كذلك أيضًا الرِّضا في جميع الأمورِ، ضَربٌ من ضروب النِّفاقِ، ولا بُدَّ من التَّقلُّبِ بين الرِّضا والغضب، كما أَنَّهُ لا بُدَّ من التَّردُّد بين الرَّاحةِ والتَّعب.

(١) القَذَعُ: الخَنَى والفُحْشُ. قَذَعَه يَقْذَعُه قَذْعًا وأَقْذَعَه وأَقْذَعَ له إِقْذاعًا: رماه بالفُحْشِ وأَساء القولَ فيه.

(٢) خَسَفَتِ الأَرْضُ: غَارَتْ بِمَا عَلَيْهَا. والخَسْف يقصد به هنا الذل والهوان. نقول: سَامَهُ الْخَسْفَ: أَذَاقَهُ الذُّلَّ وَالْهَوَانَ.

(٣) الخَلال: جمع خُلَّة، وهو الصديق (يستوي فيه المذكر والمؤنَّث والمفرد والجمع) وخُلّة الإنسان: أهل مودته. وتجمع أيضًا على خُلَل.

وقد كنتُ أحبُّ لصديقي، وجليسي، ومن يأنسُ بمكاني، ألّا يجعلَ اللِّجاجَ مُطْيَتَهُ، والمَحْلَ[1] والمَكْرَ طَوِيَّتَهُ، فإنَّ ذلكَ أحسنُ له عند الله، وأزينُ له عند النَّاسِ.

ومن بعدِ ذلك، فإنِّي لم أَرِدْ بلادَكم من العراق مُباهيًا لكم، ولا حضرتُ مجالسَكم طاعنًا فيكم؛ ولا تأخَّرتُ عنكم متطاولًا عليكم، ولا تتبَّعتُ مساويكُم شامتًا بكُمْ، بل وردتُ مُستفيدًا ومُفيدًا؛ ومُباحثًا ومُستزيدًا.

فما هذا الذي بَلَغَنِي عن بعضكم، على حُسنِ توفُّري على صغيركم وكبيركم؟ أما إنَّه لو أنصف لَعَلِمَ أنِّي إلى تسمُّحه أحوج مِنِّي إلى تَصفُّحِه، وهو، بمجاملتِه، أسعد منِّي بمجادلته، وأنا لإحسانه أشكرُ منِّي لامتحانه. وهذا بابٌ باطنُه ظاهرٌ، وشاهدُه حاضرٌ، وَخَفِيُّه جَليٌّ. ولكن ما أصنعُ؟ والشَّاعرُ يقول:

* إِنَّما لِلْعَبْدِ مَا رُزِقَا *[2]

ولعمري، ما زال النَّاس يعتادون التَّقاذُف والتَّقارُفَ[3]، ولكن كانوا يرون التَّعاسفَ[4] والتَّناصفَ، ولا ينسونَ بينهم التَّعاوُن والتَّوازُرَ[5]، والتَّرادُفَ[6] والتَّناصُرَ.

والذي هاجني لهذه الشَّكوى، وأحوجني إلى هذه العَدْوَى، قَوْل قائلٍ منكم: لَيْسَ للمنطقِ مَدْخَلٌ في الفقهِ، ولا للفلسفةِ اتِّصالٌ بالدِّينِ، ولا للحكمةِ تأثيرٌ في الأحكام.

وهذا كلامُ من لو أنعمَ النَّظرَ، واستقصى الحال، لَوَقَفَ على ما عليه فيه، وعَرَفَ ما

(١) المَحْلُ: انقطاعُ المطر ويُبْسُ الأرض من الكلإ. والمَحْلُ: الشدة. ورَجُل محْل الأخلاق: فاجِر.

(٢) شطر بيت ينسب للعباس بن الأحنف (ديوانه: ٢١٧) وتمامه:

أنا لم أُرْزَقْ مَحَبَّتَها إِنَّما لِلْعَبْدِ مَا رُزِقَا

(٣) التقارف من (قَرَفَ) قَرَفَ الرَّجُلُ: كَذَبَ، خَلَّطَ. وقرَف فلانًا: عابه واتَّهمه.

(٤) التعاسف من: العسف: الظلم.

(٥) التوازر من: المؤازرة، أي أن يؤازر بعضهم بعضًا، وهي الإعانة والتقوية على الأمر.

(٦) الرِّدف: ما تبع الشيء، وكلُّ تبع شيئًا فهو ردفه، وإذا تتابع شيء خلف شيء فهو: الترادف.

له منه، فكانَ يستبدلُ بالخلافِ وفاقًا وبالمُنازعةِ خلاقًا[1].

عابَ هذا الرَّجلُ المنطقَ، وهجَّنَ[2] طريقةَ الأوائل، وزَرَى على الحكمةِ، وفَيَّلَ رأي النَّاظِرِ فيها، وقَبَّحَ اختيار الباحث عنها. وهذا كُلُّهُ، وإن لم يكن قِلَّةَ تحصيلٍ وسوءَ تمييزٍ، فإنَّهُ يُوشكُ أن يكونَ ضِيقَ عَطَنٍ[3]، وحَرَجَ صدرٍ، ومجازفةً في القولِ، وانحرافًا عن الصَّوابِ، وأمنًا من الاعتقاب.

الدَّليلُ على ذلك والبرهانُ فيه أَنَّهُ قد سَبَقَ في قضايا العقول الصَّحيحةِ، وثبت في مقدِّماتِ الألباب الصَّريحةِ؛ أنَّ العلمَ أشرفُ من الجهل، بل لا شرفَ للجهل، فيكون غيرُهُ أشرفَ منه، لأنَّ الجهلَ عَدَمٌ، هكذا قيل، والوجودُ أشرفُ من العَدَمِ، والصِّحَّةُ أشرف من السَّقم.

فإذا كان العلمُ شريفًا وأشرفَ من كلِّ شيءٍ فقد استوعبَ الجنس هذا العموم، واشتملَ على الأصل والفرع هذا الإطلاقُ لأنَّ العلم بالألف واللام لا يختصُّ معلومًا دون معلوم، ولا مشارًا إليه دون مدلولٍ عليه. فقد دَخَلَ في هذا الطَّيِّ كلُّ ما أنبأ عن شيء، كانَ ذلك من قبيل الحسِّ عند مُصَادَمَتِه، أو من قبيلِ العقل عند مُصادَفَتِهِ.

وسأبيِّنُ أصنافَ العلم، في هذا الموضع، على وجه الإيجاز، فإن استقصاءها لا تحويه هذه الرِّسالة، ولا يتَّسعُ له هذا الوقتُ، على أنَّ شيوخ العلم وأربابِ الحكمةِ وفُرسان الأدبِ قد فرغوا من جميع ذلك، في كتبٍ مشهورةٍ، تشتملُ على آدابٍ مأثورةٍ، مثلَ كتاب أقسامِ العلوم، وكتاب اقتصاص الفضائل، وكتاب تسهيل سُبُلِ المعارف. فَمَنْ نَظَرَ في هذه الكتب عَرَفَ مَغَازِي الحكماءِ، ومرامي العلماءِ، وبان له في المُشكَلِ دليلُهُ، ووضح عند الخصام احتجاجُه، فحينئذٍ لا يُعادي ما جَهِل، ولا

(١) الخَلاقُ: الحَظُّ والنَّصيب من الخير والصلاح. يقال: لا خَلاق له في الآخرة. ورجل لا خلاق له أَي لا رَغْبة له في الخير ولا في الآخرة ولا صَلاح في الدين .ولعلها هنا من الاخلولاق: التجمع بعد الافتراق.

(٢) هجَّن الأمرَ: قبَّحه وعابه.

(٣) العَطَنُ: مَبْرَكُ الإبل ومَربِضُ الغنم عند الماء، والعَطَنُ بالمجاز: السعة والقدرة.

يناوئ مَنْ عَلِمَ، ولا يستطيلُ على من عَرَفَ، ويعتقدُ ما في المداراةِ من الخير، وما في المماراة من الشَّرِّ.

الفقه

وأمَّا الفقهُ فإنَّه دائرٌ بين الحلال والحرام، وبين اعتبار العِلَلِ في القضايا والأحكامِ، وبين الفَرْضِ والنافلَةِ، وبينَ المحظُورِ والمُباحِ، وبين الواجبِ والمُستحبِّ، وبين المحثوثِ عليه والمُنزَّهِ عنه.

وكلُّ ذلك موقوفٌ على ظاهرِ الكتاب وباطنه، وتنزيله وتأويله، ومُحكمِهِ ومُتشابهِهِ، وناسخه ومنسوخه؛ وتقديمه وتأخيرِهِ، وعُمُومهِ وخُصُوصه، وإجماله وتفسيره، وإطلاقهِ وتقييده، وجمعه وتوحيده، وكنايته وضميره، ومجازه وحقيقته، وتعريضه وتصريحه، وإشباعه وإشمامِهِ[1]، ونَصِّهِ وأغراضه، ومفهومه وشرحه، وحذفه وزيادته، وإشارته وتوكيده، ووعده ووعيده، سوى أسرار تجلُّ عن أفهام الخلق.

فسبحانَ من أنزلهُ مُحْكَمًا، وَجَعَلَهُ بين العباد حَكَمًا. ولذلك قال بعضُ السَّلَفِ:

القرآنُ فيه خَبَرُ مَنْ بَعْدِكُم، وحُكْمُ ما بينكم. القويُّ يعجزُ عن معارضته، والعقولُ تَتَحَيَّرُ في عجائبه. لا يزلُّ الحقُّ عنه، ولا يعلو الباطلُ عليه.

السُّنَّة

والسُّنَّةُ، من بعده، تاليةٌ له- أعني الكتابَ- في حُدودهِ ورُسُومه، وأسمائِهِ ومعانيهِ، وأسبابهِ وأغراضهِ، على أنَّ منها ما يُحدِثُ العلمَ إحداثًا، ومنها ما يُوجِبُ العَمَلَ إيجابًا. ولشائعها حُكْمٌ ليس لمتواترها، ولواحدها شأنٌ ليس لمشهورها، ولمجموعها حالٌ ليس لمفردها.

(١) الإشباع: إطالةُ الحركة حتَّى يتولَّد منها حرفُ مدّ. والإشمام (لدى القراء): الإشارة بالشفتين إلى الضمة المحذوفة من آخر الكلمة الموقوف عليها بالسكون من غير تصويت بهذه الضمَّة.

وليسَ، في جميع عَوارضها، أشدُّ من معرفةِ صحيحها من سقيمها، وجائزها من مُحَالِهَا. والكلامُ في ذلك بينَ أهلها.

القياس

ثُمَّ القياسُ، من بعدهما، أصلٌ يُعوَّلُ عليه، ورُكْنٌ يُسْتَنَدُ إليه، وعُروةٌ يُستمسكُ بها. والطَّاعنُ فيه يعلمه، وإنْ أنكره، ويفزعُ إليه، وإن أباه، ولا يَجِدُ محيدًا عنه، وإن لَمْ يَثِقْ به. وإنَّما يَتَفَرَّدُ به بمختلف ألفاظٍ تؤدِّيهِ إلى نفس القياس.

والذي يوحشُ منه، فسادُ بعضهِ عند الاعتبار، وتوقُّفُهُ عن الاستمرار. وليسَ ذلك رافعًا لأصلِهِ، ولا قادحًا في حكمه. وما بنا حاجةٌ، في هذا الموضع، إلى البيانِ عن صورته، وحال نافيهِ، فإنَّهُ يَمِيْلُ عن سَنَنِ كلامنا، ومُتَوجَّهِ غَرضِنا.

علم الكلام

وأمَّا عِلْمُ الكلامِ فإنَّهُ بابٌ من الاعتبارِ في أصولِ الدِّينِ، يَدُورُ النَّظَرُ فيه على مَحْضِ العقل، في التَّحسينِ والتَّقبيحِ، والإحالة والتَّصحيح، والإيجاب والتَّجويز، والاقتدار والتَّعجيزِ والتَّعديلِ والتَّحويرِ، والتَّوحيدِ والتَّكفير. والاعتبارُ فيه يَنْقَسِمُ بين دقيقٍ يتَفَرَّدُ العقلُ به، وجليلٍ يُفزَع إلى كتاب الله تعالى فيه.

ثُمَّ التَّفاوُتُ في ذلك بين المُتَحلِّينَ به، على مَقَادِيْرِهِمْ في البحث والتَّنقير[1]، والفكر والتَّحْبِيْر[2]، والجَدَلِ والمناظرةِ، والبيانِ والمُناضلةِ. والظَّفَرُ بينهم في الحقِّ سِجَالٌ، ولهم عليه مكرٌّ ومجالٌ، وبابُهُ مُجاورٌ لباب الفقه، والكلامُ فيهما مشتركٌ وإن كان بينهما انفصالٌ وتباينٌ. فإنَّ الشِّرْكَةُ بينهما واقعةٌ، والأدِلَّة فيهما متضارعةٌ. ألا ترى أنَّ الباحث عن العالم في قِدَمِه وحُدُوثِه وامتداده وانقراضهِ يُشاورُ العقلَ ويخدمهُ،

(١) التَّنقير: التفتيش، ويقال: رجل نقارٌ ومنقِّر. والمناقرة: مراجعة الكلام بين اثنين وبثهما أحاديثهما وأمورهما.
(٢) تَحْبِيرُ الكَلاَمِ: تَحْسِينُهُ، تَزْيِينُهُ. وتَحْبِيرُ الرِّسَالَةِ: كِتَابَتُهَا.

ويستضيءُ به ويستفهمه. كذلك النَّاظرُ في العبد الجاني: هل هو مشابهٌ للمال فيردُّ إليه أو مشابه للحُرِّ فيُحملُ عليه، فهو يخدُمُ العقلَ ويستضيءُ به.

ومتى خلصت هذه المشاورةُ والاستضاءةُ، والاستفهامُ والمناظرةُ من الهوى والتَّعصُّبِ، والنَّكْرِ والتَّغضُّبِ، ومن التَّشاكسِ والاسترسال، ومن التَّواني والاستعجالِ، ومن سرعة التَّكذيبِ والتَّصديقِ، ومن سوء التَّحصيلِ والتَّحقيقِ. نعم، ومِمَّا هو أعظمُ من جميعِ ما تقدَّم، من الإلف والعادةِ، وتقليد الرُّؤساءِ والسَّادة، كان الحقُّ رَسِيلَ[1] طَلَبِ الطَّالبِ، ومظفورًا به عند قَصْدِ القاصد. فهذان بابان قد أحكمنا أساسَهُما، وذلَّلنا البيانَ عنهما، لنسوقَ إليهما غيرَهما، فيكونُ في حُكمهما.

النَّحو

وأمَّا النَّحو فمقصورٌ على تتبُّعِ كلام العرب في إعرابها، ومعرفة خطئها وصوابها، واعتياد ما تواطأت عليه وأَلِفَت استعماله. ولولا انفتاحُ أبواب المعاني به، لم يكن في النَّحو أكثر من مخالفة الحركة باللفظ.

لكن قد صَحَّ بالتَّجربَةِ والاستعراضِ أنَّ في مخالفة حركات الألفاظِ فَسَادَ المعاني والأغراض. ولا بُدَّ لنا، ما دُمنا تبعًا لهذه الأمة- أعني العربَ- من الاقتداء بهم، والاقتفاء لأثرهم، من غير تحريف ولا تجزيف.

ألَا تَرَى أنَّكَ تتبع نبأ اللفظ في قولهم:

أذهب؟ إذا نووا استفهامًا.

وفي قولهم: سَيذْهبُ. إذا نووا خبرًا منتظَرًا.

وفي قولهم: قد ذَهَبَ. إذا نووا خَبَرًا ماضيًا.

كذلك، تَتَّبِعُ حركاتِ اللفظ، لأنَّ حدَّ الإعراب هو تغييرُ أواخر الْكَلِمِ، كالدَّالِ من زَيْدٍ. ألا ترى أنَّكَ تقول:

(١) الرسيل: الرسول.

جاءني زيدٌ، ومررتُ بزيدٍ، ورأيت زيدًا.

فزيدٌ هو واحدٌ في هذه المواضع، لكنَّ صُوَرَهُ مختلفةٌ للإعراب الفاصل بين مُرادٍ ومُراد.

وفنونُ هذا الباب كثيرةٌ، وعللُها عويصةٌ. والنَّاظرُ فيه يقومُ بمعانيه، على حسب عنايته ودرايته.

اللغة

وأمَّا اللغة فجدواها عظيمةٌ، ومنافعها جَمَّةٌ، لأنَّها مادَّةُ الكلام، والنَّحو صورةٌ من صورها، ولأنَّهَا تُحيطُ بالاشتقاقِ وأصوله، والتَّصريفِ وأبنيته، والوزنِ وأمثلته. وبابُها مردودٌ إلى توسُّعِ السَّماعِ، كما أنَّ باب النَّحو موقوفٌ على تَتَبُّعِ الطِّباع.

فكلُّ من تكامل حظُّهُ من اللغة، وتوفَّرَ نصيبُه من النَّحو، كان بالكلام أمهر، وعلى تصريف المعاني أقدر، وازداد بصيرةً في قيمة الإنسان المفضَّلِ على جميع الحيوان، وعرف عُوار المتكلِّمين، وَوَقَفَ على عادة الفقهاء في أمرٍ. فإن شَدَا[1]، بعد ذلك، شيئًا من المنطق، فَقَدْ سَبَقَ جميع النَّاظرين.

المنطق

وأنا أصفُ لك المنطق وصفًا، ليكُونَ ما قلناه تمامًا ونظامًا. أمَّا المنطقُ فهو اعتبارُ معاني الكلام في اعتدالها وانحرافها، واختلافها وائتلافها، وإبهامها وإيضاحها، وإغماضها وإفصاحها، وتمييزها والتباسها، واطِّرادها وانعكاسها، واستمرارها واستقرارها.

وبه تُفصلُ الحُجَّةُ من الشُّبهة، وتُنْفَى الشُبهةُ عن الحُجَّةِ، وتُعرفُ حِيلَةُ المُغالط

(١) شدا من الأدب والعلم شيئًا: حَصّل طرفًا منه.

ونصيحةُ المحقِّق، وهو آلةٌ عند أربابه، كالميزان يَزِنُوْنَ به كُلَّ مختلَفٍ فيه، ومُتَّفَقٍ عليه. وليس فيه كُفرٌ ولا جَهْلٌ. ولا دينٌ ولا مذهبٌ، ولا نِحْلةٌ ولا مقالةٌ. وإنَّما هو تصفيةُ المعاني، وتنقيةُ الألفاظ.

فَمَنْ غَمَرَهُ الشَّكُّ في هذا القول، واعتراهُ الرَّيْبُ عند هذا الوصف، فلْيتقدَّمْ ناظرًا فيه، مُتصَفِّحًا لأوائله وثوانيه؛ فإنَّهُ يَجِدُ بيانَ هذا القولِ حاضرًا، والشَّاهدَ فيه ظاهرًا.

وقد عابهُ ناسٌ، ولكن كانوا عامَّةً أو أشباهَ عامَّةٍ. فأمَّا الخاصَّةُ فلا يعيبونه، ولا يُجيزون عَيْبَهُ. والصُّوَرُ الماثلة للعين، والأحوالُ الجاريةُ في العالم، والمعاني القائمةُ بالعقل، والأمورُ الثَّابتةُ في النَّفْس، هي كُلُّها لا تخرُجُ عن هذا الاعتبار المنطوي على الإضافاتِ والتَّخصيصاتِ والتَّعميماتِ. وهذا لأَنَّ العالم منوطٌ بعْضُهُ إلى بعض، ومقيسٌ بعضُهُ ببعضٍ، ومنسوبٌ بعضُهُ إلى بعضٍ، ومقيسٌ بعضُهُ على بَعْض.

الطِّبُّ

والنَّاظِرُ في الطِّبِّ غَرَضُهُ حِفْظُ الصِّحَّةِ إذا وَجَدَها، وطَلَبُها إذا فَقَدَهَا. وهو خَادِمٌ للطَّبيعةِ بالعلمِ والعملِ. عِلمٍ يُحيطُ بعينِ العِلَّةِ، وعملٍ يأتي على اجتلابِ الصِّحَّة.

النُّجوم

والنَّاظرُ في النُّجوم ينقسمُ نَظَرُهُ، أيضًا، إلى أحَدِ غَرضَيْن: إمَّا إلى علم أحوال الكواكب، في اختلاف مَسيْرِها ووقوفِهَا، وطُلوعِهَا وغُروبِهَا، واقترانها واختلافها. فيكون اطِّلاعُه على ذلك اطِّلاعَ ربِّ البيت على زوايا بَيْتِهِ؛ واختلافِ متاعه وأثاثِهِ، وعددِ سُكَّانِهِ ومُجاوريه. وله في هذا النَّظَرِ تعجُّبٌ يفتحُ قلبَه، ويشرحُ صدرَهُ، ويقوِّي توحيدَهُ، ويُكثر عِبَرَهُ؛ ويُشوق نفسَه.

وفي القسم الآخر، يريدُ النَّاظرُ أن يَقْتَبِسَ الأحكامَ في الأمور المستقبلة. وهذا عزيزٌ جدًّا، كتمازُجِ صُوَرِ الكواكبِ، ودِقَّةِ أفعال النُّجومِ، واختلافِ أشكالِ الفَلَكِ،

واعتياصِ[1] أسرارِ الفضاءِ، وبُعدِ مرام القَدَرِ والجبرِ الموجود في العالم.

وصاحبُ هذا الغَرَضِ شديدُ التَّعَبِ، قليلُ الدَّركِ[2]. خطأُه أكثرُ من إصابته، وإصابتُهُ أضرُّ من جهله. والأوَّل الذي أفادَ التَّعَجُبَ، واستكثرَ من العِبْرةِ، أرخى بالًا، وأحسنُ اختيارًا، وأقربُ إلى الرُّشْدِ من هذا الثَّاني.

الحساب

وأمَّا النَّاظرُ في الحسابِ المفرد بالعَدَدِ فهو شريكُ صاحب النُّجوم، اللهُمَّ إلَّا أن يتفرَّدَ بالحساب والعمل فحينئذٍ لا يستحقُّ شرف العلماء، لأنَّه يكونُ في درجة الصُّنَّاع، كالكاتِب والماسِح.

الهندسة

وأمَّا النَّاظرُ في الهندسة فإنَّهُ، أيضًا، إنْ سَلَكَ الصَّنَائعَ بها، فهو نظيرُ حافر الأنهارِ ومجرى الأودية، وباني الحمَّاماتِ، ومن قام بمصالح العباد، وعمل البلاد، وإن سَلَكَ طَرِيقَ من يفرضُ المقادير فرضًا، ويَتَكَلَّمُ عليها كلامًا، فهو العالم العاري من العمل.

البلاغة

وأمَّا النَّاظِرُ في البلاغةِ، فإنَّهُ مَشامٌ[3] لكلِّ ما سَلَفَ وصفُهُ، وتَقَدَّمَ نَعْتُهُ لأنَّهُ يُباشرُ بِلِسَانِهِ وقَلَمِهِ، أحوالًا مشتبهةً، يرومُ فيها أقصى معانيها.

والذي لا يُحَبُّ البتَّةَ أن يكونَ القليلُ فيه القيامُ بطُرُقِ الألفاظ، ومشارَفةِ فرق

(١) اعتياص: غموض، نقول: عَوِصَ الْكَلَامُ: صَعُبَ فَهْمُهُ، خَفِيَ مَعْنَاهُ.

(٢) الدرك: الإدراك.

(٣) اسم مكان من (شامَ). نقول: شَامَ السَّحَابَ والبرقَ: نظر إليه يتحقَّق أَين يكون مَطَرُه، وشَامَ مخايلَ الشيءِ: تطلُع إليها مترقبًا.

المعاني، لأَنَّهُ قد يُدفع بصناعته إلى سلِّ السَّخائم[1]، وإلى حلِّ الشَّكائم[2]، وإلى السِّفارة في الملك، وإلى دقيق ما يَتَعَلَّقُ بالخاصَّةِ، وجليل ما يرجع نَفْعُهُ إلى العامَّةِ. فعقله أبدًا مسافرٌ، ولفظهُ مُتتبَّع.

والنَّاس له أعداءٌ، لأَنَّهُم بين جاهلٍ لا يلحظُ ما لَحَظ، وعالم يحسدهُ على ما لَفَظ. وعند ذلك، يلزمهُ مداواةُ الجاهل بالإعراض، ومداراة العالم بالانقباض، لئلَّا ينفذَ فيه من الأوَّل سهمُهُ، ولا ينفُثَ عليه من الثَّاني سُمُّه.

والذي ينبغي له أن يبرأ منه، ويتباعد عنه، التَّكلُّفُ. فإنَّهُ مَفْضَحَةٌ، وصاحبُهُ مزحومٌ، ومن وُسِمَ به مُقِت، ومن اعتاده سُخف. والتَّكلُّفُ، وإن كان هكذا في كلِّ ما دخله وتَخَلَّلَهُ، فإنَّهُ في البيان أبْيَنُ عوارًا، وأظهرُ عارًا، وأقبحُ سمةً، وأشنعُ وصمةً.

ومن استشار الرَّأيَ الصَّحيحَ في هذه الصِّناعة الشَّريفة، علم أنَّه إلى سلاسة الطَّبع، أحوجُ منه إلى مُغالبة اللفظ، وأنَّه متى فاتهُ اللفظ الحُرُّ، لم يظفر بالمعنى الحُرِّ، لأَنَّه مَتَى نَظَمَ معنًى حُرًّا، ولفظًا عَبدًا، أو معنًى عبدًا، ولفظًا حُرًّا، فقد جَمَعَ بين متنافرين بالجوهر، ومُتناقضين بالعنصُر.

وما أحسن ما حصر هذا الباب ابن المعتز، وأبو العباس عبد الله بن المعتز؛ عَليُّ المحلِّ في بلاغتي النَّظْم والنَّثْرِ، وكلامُهُ السِّحُر الحلالُ والعذبُ الزّلالُ، واللؤْلؤُ المنثورُ، والرَّوضُ الممطُورُ، بمعانٍ دقيقة وألفاظٍ رقيقةٍ، يُريكَ من نفسه مَلِكًا في زيِّ مسكين ومسكينًا في هِمَّةِ جبَّار.

قال: مدار الكلام على أربعة أركان: منها ما جاد لفْظُهُ ومعناه، ومنها ما خسَّ لفظُه ومعناه، ومنها ما جاد لفظُه وخَسَّ معناه، ومنها ما خسَّ لفظه وجاد معناهُ. هذا قوله. فقد وضح للمُنصف أنَّ ثلاثةَ أركانٍ من هذه الأربعة قد تَهَدَّمَت وتداعتْ، وأنَّ المفزَع إلى الأوَّل.

(١) السَّخائم جمع سَخِيمَة، والسخيمة: الحقد والضغينة والموجدة.

(٢) الشَّكائم: المفرد (الشكيمة) وهي:الحديدةُ المعترضةُ في فم الفرس من اللجام. يقصد إطلاق اللسان بالفصاحة والبلاغة.

قد أطلنا هذا الفصل جريًا مع القَلَمِ وذهابًا في السَّهو، وأرجو أن لا أستحقَّ به ذامًّا، إن شاء الله.

التَّصوُّف

وإذا شفينا بعضَ الغليلِ، بمعاتبةِ من هَجَّنَ الحكمةَ وَحَسَدَ الفاضلَ، وشرح مراتبَ العلم، على حدِّ ما سمح الرَّأيُ به، وانفسحَ الوقتُ له، فما أحرانا بذكر مرتبة التَّصوُّفِ. فإنَّهُ اسمٌ قد رِيْمَ[1] به معنى، ولفظٌ قد ضُمِّنَ مُرادًا. إن لُهينا عنه، بدا علينا من العَجْزِ ما يشمتُ به العدوُّ ويشمئزُّ منه الصَّديقُ.

اعلمْ أنَّ التَّصوُّفَ علمٌ يدورُ بين إشارات إلهيَّةٍ، وعباراتٍ وهميَّةٍ، وأغراضٍ عُلْويَّةٍ، وأفعالٍ دينيَّةٍ، وأخلاقٍ مُلُوكيَّة. وللنكرةِ، في بعض ذلك، مجالٌ، وذلك لفسادٍ يعرضُ في البيان، وللتَّحيُّز في ذلك مُتَصَرَّفٌ ولكنَّ ذلك ليس يعيبُ عند الامتحان.

وقد لحقَ الطَّريقةَ حَيْفٌ، لكثرةِ الدُّخلاء فيها. كما لحق البلاغة لكثرة مُدَّعيها. ومتى صَحَّ تصفُّحك، علمت أنَّ شيئًا من هذه المعارف، عند أصحابها، ليس على حقيقةِ ما ينبغي. وهذا لانقراض الدُّنيا، وقرب أشراطِ القيامة. ولذلك لا تجدُ النَّاسِكَ في نُسْكِه، ولا الفاتِكَ في فَتْكِه، ولا السَّائسَ في سياسته، ولا الرَّئيسَ في رِئاسَتِهِ، في الغايةِ المطلوبة والنِّهاية المحبوبة.

ولا بدَّ من نُقصانٍ يعتري الإنسان، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، كيلا يستبدَّ باستطاعته، ولا يغترَّ بكمالِهِ، ولا يختالَ في مِشْيَتِه، ولا يَتَهَكَّمَ في لفظه، ولا يَتَحَكَّمَ على ربِّهِ، ولا يعدو على بني جنسهِ، ولئلا يعرى من مُذَكِّرٍ بالله، وزاجر عن أمر الله، وداعٍ إلى ما عند الله، ومحذِّرٍ من عقاب الله، ومُرغِّبٍ في ثوابِ الله، وليعلم أنَّ الذي امتحنهُ بالنَّقصِ هو الذي يملكُ الزِّيادةَ، وأنَّ الذي ضَرَبَهُ بالبلاء هو الذي ضَمِنَ له الجنَّةَ، وأنَّ الذي قد

(١) ريم: فعل مبني للمجهول من رام يروم، أي قصد.

تابع له الأدِلَّة هو الذي قد أراد له المعرفة، وأنَّ الذي تعرَّف إليه بالنِّعَمِ هو الذي خَوَّفَهُ بالإصرار على مخالفته، والاغترار بشبابه وجدَّته، وأمره ونهيه.

فسبحان من له هذه الأسرار واللطائفُ، وهذه النِّعمُ والأيادي، وهذه المواهبُ والتَّفَضُّلُ. أليس حقيقًا أن يُعرَف ويُعبدَ ويُطاعَ ويُحبَّ؟ بلى، ولكن:

﴿ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾.

[المعارج: ١٩- ٢١].

أَخَذَ الله بأيدينا وأيديُكْم، وعَطَفَ علينا وعليكم، وأحْسَنَ إلينا وإليكم، بِمَنِّهِ ولُطفِهِ.

هذا ما أجرينا إليهِ الكَلامَ من معاتبتكم وموعظتكم، في جُمْلَةِ ما أوضحناهُ من شَرْحِ مَرَاتبِ العلوم. وإذا أتاحَ الله تعالى الفَرَجَ من عنده، وأزاحَ الحَرَج من عبدِهِ، أتى البَيَانُ من وراءِ ما يكونُ لِفْقًا[1] له وناضحًا عنه. وأنا أسألُ جماعتكم، عندَ قراءتكم هذه الرِّسالةَ إيثار النَّصَفَةِ[2]، والأخذِ بحُكم الدِّينِ والمروة. فإنَّ ذلكَ أولى بي وبكُمْ، وأحسنُ لذكري وذكركمْ، وأنظم لشملي معكم.

وأنا أستخلفُ الله منكم وعليكم. وأستغفرُهُ لي ولكم. إنَّهُ غَفُورٌ رحيمٌ، منوحٌ كريمٌ. أطال الله بقاءكُم، وأدامَ كَرَامَتَكُم، وحَفِظَ مواهبَهُ لديكم، ولا أخلاكم من عوائده الجسيمة، وَفَوَائِدِهِ الكريمة، إن شاء الله.

اللهُمَّ صُنْ وَجْهَنَا باليَسَارِ؛ ولا تَبْتَذِلنا للإقتار، فنسترزقُ أهلَ رزقك، ونسألُ شِرارَ خلقك. فنُبتلى بِحَمْدِ من أعطى، وذمِّ من مَنَعَ، وأنتَ من دونهم وليُّ الإعطاء، وبيدك خزائنُ الأرض والسَّماء، يا ذا الجلال والإكرام.

* * *

(١) لِفْقًا من لفق الثَّوب لفقًا: ضمَّ أحد شقي الثوب إلى الآخر وخاطه.

(٢) النصفة: الانتصاف والعدل.

(٥)

رسالة في علم الكتابة

قالَ الشَّيخُ أَبو عليٍّ بنُ محمَّد العبَّاس التَّوحيديُّ الصُّوفيُّ البَغْدَادِيُّ رَحْمَةُ اللهِ تعالى عَلَيْهِ:

كنتُ- أَطالَ اللهُ بَقَاءكِ وَأَدَامَ سُرورَكَ- يَوْمًا مِن الأَيَّام عِنْدَ بعضِ الرُّؤساءِ، وَجَرَى كَلامٌ في نَعْتِ الخطِّ وَشَرْحِ أقسامِه، وَتَفْصِيلِ فُنُونِه، وَوَصْفِ مذاهبِ أصحابِه مِن أَهْلِ العِراقِ وغيرهمْ، وَكَانَ هذا الرَّئيسُ ذا خطٍّ مُعْجِزٍ منه، وكانَ عَدِيمَ الْمُساجِلِ عليه. فانبريتُ بكلامٍ كُنْتُ وَعَيْتُ جُلَّهُ من البربري أبي محمَّد[1]؛ المحرِّرِ عِنْدَنَا بِبَغْدَادَ، وكان مُبرَّزًا في صِناعَتِه، وارثًا لها مِن أبيه وعمِّه- والعِرقُ إذا وَشَجَ على شيءٍ من الفَضَائِلِ والرَّذائِلِ أتى بالغَرائِبِ، وَأوفَى على العَجائِبِ- وَوَصَلْتُ ذلكَ بِمَا كُنْتُ سمعْتُهُ من الأفاضلِ وأصحابِ الأقلامِ البارعة، وأربابِ الخطوطِ اليانِعَةِ ممَّا التقطته أيدي الأقلامِ من ترتيبِ الحروفِ على أحسن نظامٍ، من رِقَّةِ اللطافةِ، ودِقَّةِ الظَّرافَةِ مِمَّنْ تقدَّموا، وكانت العِبْرَةُ في زمانِهِمْ بتعيين قواعدِ الخطِّ الكوفيِّ بأنواعه، وهيَ اثنتا عَشَرَةَ قاعدةً.

١- **أَنْوَاعُ الْخُطِّ العَرَبِيِّ:** الإِسْمَاعِيلِيُّ، وَالْمَكِّيُّ، وَالْمَدَنِيُّ، وَالأَنْدَلُسِيُّ، وَالشَّامِيُّ،

(١) راجع الفهرست لابن النديم: ١١، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي: ٢/ ٦١٦.

وَالعِرَاقِيُّ، وَالعَبَّاسِيُّ، وَالبَغْدَادِيُّ، وَالْمُشَعَّبُ، وَالرَّيحَانيُّ، وَالْمُجَرَّدُ، وَالْمِصْرِيُّ. فَهَذِهِ هِيَ الْخُطُوطُ العَرَبِيَّةُ الَّتِي كَانَ مِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَعْمَلٌ قَدِيمًا، وَمِنْهَا قَرِيبَةُ الْحُدُوثِ. وَأَمَّا هَذِهِ الطَّرَائِقُ الْمُسْتَنْبَطَةُ فهِيَ مَرْوِيَّةٌ عَنْ الصَّحَابَةِ حَتَّى اتَّصَلَتْ بِابنِ مُقْلَةَ[1] وَيَاقُوتَ وَغَيرِهِمْ وَهُمْ تَفَنَّنُوا فِيهَا بِحَسْبِ اجْتِهَادِهِمْ.

٢- **أَنْوَاعُ أقلام الْخَطِّ:** وكنتُ، أطال الله بقاءك، في مجلس ابن البربري وقد حَفَلَ بأرباب الأقلام والخطوط وصار كلٌّ منهم يظهر مَخْبَآتِهِ من النَّوادر، فقال أحدهم: خَيرُ الأَقْلَامِ (القَصَبِ) مَا اسْتَمْكَنَ نُضْجُهُ فِي جِرْمِهِ، وَجَفَّ مَاؤُهُ فِي قِشْرِهِ، وَقُطِعَ بَعْدَ إِلْقَاءِ بِزْرِهِ، وَصَلُبَ شَحْمُهُ، وَثَقُلَ حَجْمُهُ.

وقال آخر: إِنَّ القَلَمَ الْمُحَرَّفَ يَكُونُ الْخَطُّ بِهِ أَضْعَفَ وَأَحْلَى، وَالْمُسْتَوِي أَقْوَى وَأَصْفَى، وَالْمُتَوَسِّطُ بَينَهُمَا يَجْمَعُ أَحَدَ حَالَيهِمَا. وَمَا كَانَ فِي رَأسِهِ طُولٌ فَهُوَ يُعِينُ اليَدَ الْخَفِيفَةَ عَلَى سُرْعَةِ الكِتَابَةِ، وَمَا قَصُرَ فَبِخِلافِهِ.

٣- **أنواع البري: وَقَالَ آخَرُ: البَرْيُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ:**

أ- **الفَتْحُ:** وَهُوَ فِي القَلَمِ الصُّلْبِ أَكْثَرُ تَقْعِيرًا، وَالرَّخْوِ أَقَلُّ، وَالْمُعْتَدِلِ بَينَهُمَا.

ب- **النَّحْتُ:** وَالنَّحْتُ نَوعَانِ: نَحْتُ حَوَاشِيهِ، وَنَحْتُ بَطْنِهِ. أَمَّا حَوَاشِيهِ فَيَكُونُ مُسْتَوِيًا مِنْ جِهَةِ السِّنَّينِ مَعًا، وَلَا يَحِيفُ عَلَى أَحَدِ الشِّقَّينِ فَتَضْعُفُ سِنُّهُ. وَتَكُونُ شَحْمَةُ القَلَمِ فِي بَطْنِهِ مُتَسَاوِيَةً، وَأَنْ يَكُونَ الشَّقُّ مُتَوَسِّطًا لِجَلْفَةِ[2] القَلَمِ؛ دَقَّ أَو غَلُظَ.

جـ- **الشَّقُّ:** وَأَمَّا الشَّقُّ فَبِاعْتِبَارِ الأَقْلَامِ: إِنْ كَانَ صُلْبًا فَيُشَقُّ أَكْثَرُ الْجَلْفَةِ، وَإِنْ كَانَ رَخْوًا يَكُونُ مِقْدَارُ ثُلُثِ الْجَلْفَةِ، وَإِنْ كَانَ مُعْتَدِلًا يُتَوَسَّطُ.

---

(١) ابن مقلة: هو أَبو عليٍّ محمَّدُ بن عليٍّ الحسين بن مقلة الكاتب المشهور؛ أَديبٌ وشاعرٌ استوزره المقتدرُ العباسيُّ سنة ٣١٦هـ، فقبض عليه بعد عامين وصادره ونفاه إلى فارس، ثم استوزره القاهرُ بالله سنة ٣٢٠هـ ونكبه، ثمَّ وزر للرَّاضي ثمَّ نقمَ عليه فسجنه وقطع يده اليمنى، فكان يشدُّ القلم على ساعده ويكتب به. ولد سنة ٢٧٢هـ ومات في السِّجن سنة ٣٢٨هـ.

(٢) الجَلْفَةُ من القلم: ما بين مَبْرَاهُ إلى سِنِّه.

د- القطُّ: وَأَمَّا القطُّ فَأَنْوَاعٌ: مُحَرَّفٌ، وَمُسْتَوٍ، وَقَائِمٌ، وَمُصَوَّبٌ. وَأَجْوَدُهَا: الْمُحَرَّفُ الْمُعْتَدِلُ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْنَحُ إِلَى تَدْوِيرِ القَطَّةِ وَيَمُدُّهَا، وَيَرْغَبُ فِيهَا. وَأَعْنِي بِالْمدَوَّرةِ أَنْ لَا تُظْهِرَ لَهَا تَحْرِيفًا، وَأَنْ يَكُونَ وَضْعُ يَدِكَ بِالسِّكِّينِ عَلَى الاسْتِواءِ لَا يَمِيلُ إِلَى جِهَةٍ بِشَيءٍ البَتَّةَ. وَالقَائِمُ أَنْ يَكُونَ اسْتِوَاءُ القِشْرَةِ وَالشَّحْمَةِ مَعًا. وَالْمُصَوَّبُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الشَّحْمَةِ أَوِ القِشْرَةِ غَيرُ مَحْمُودٍ.

وَقَالَ الْمُدَقِّقُ الفاضِلُ الوَزِيرُ الكَاتِبُ أَبو عَلِيِّ بن مُقْلَةَ فِي وَصْفِ القَلَمِ: أَطِلْ الْجَلْفَةَ، وَحَسِّنْهَا، وَحَرِّفِ القَطَّةَ وَأَيمِنْهَا، وَالقَطُّ هُوَ الْخَطُّ.

٤- معاني الخط: وَالكَاتِبُ يَحْتَاجُ إِلَى سَبْعَةِ مَعَانٍ: الْخَطِّ الْمُجَرَّدِ بِالتَّحْقِيقِ، وَالْمُحَلَّى بِالتَّحْدِيقِ، وَالْمُجَمَّلِ بِالتَّحْوِيقِ، وَالْمُزَيَّنِ بِالتَّخْرِيقِ، وَالْمُحَسَّنِ بِالتَّشْقِيقِ، وَالْمُجَادِ بِالتَّدْقِيقِ، والمُمَيَّزِ بِالتَّفْرِيقِ.

فَهَذِهِ أُصُولُهُ وَقَوَاعِدُهُ الْمُتَضَمِّنَةُ لِفُنُونِهِ وَفُرُوعِهِ، وَكُلُّ قَلَمٍ يُظْهِرُ لَهُ العَمَلُ عَلَى قَدْرِهِ -وَالوِرْدُ كِفَاءُ صَدْرِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ.

أَمَّا الْمُجَرَّدُ بِالتَّحْقِيقِ فَإِبَانَةُ الْحُرُوفِ كُلِّهَا؛ مَنْثُورِهَا وَمَنْظُومِهَا، مُفَصَّلِهَا وَمَوصُولِهَا، بِمَدَّاتِهَا وَقَصْرَاتِهَا، وَتَفْرِيجَاتِهَا وَتَعْوِيجَاتِهَا، حَتَّى تَرَاهَا كَأَنَّهَا تَبْتَسِمُ عَنْ ثُغُورٍ مُفَلَّجَةٍ، أَو تَضْحَكُ عَنْ رِيَاضٍ مُدَبَّجَةٍ. فَهَذَا مَا يَعُمُّ الْحُرُوفَ كُلَّهَا عَمَّاء، فَأَمَّا مَا يَخُصُّ وَاحِدًا وَاحِدًا مِنْهَا فَسَأَقُولُهُ عَلَى أَثَرِ هَذَا.

وَأَمَّا الْمُرَادُ بِالتَّحْدِيقِ فَإِقَامَةُ الْحَاءِ وَالْخَاءِ وَالْجِيمِ وَمَا أَشْبَهَهَا عَلَى تَبْيِيضِ أَوسَاطِهَا، مَحْفُوظَةً عَلَيهَا مِنْ تَحْتِهَا وَفَوقِهَا وَأَطْرَافِهَا، أَكَانَتْ مَخْلُوطَةً بِغَيرِهَا أَو بَارِزَةً عَنْهَا، حَتَّى تَكُونَ كَالأَحْدَاقِ الْمُفَتَّحَةِ.

وَأَمَّا الْمُرَادُ بِالتَّحْوِيقِ فَإِدَارَةُ الوَاوَاتِ وَالفَاءَاتِ وَالقَافَاتِ وَمَا أَشْبَهَهَا مُصَدَّرَةً وَمُوَسَّطَةً وَمُذَنَّبَةً بِمَا يُكْسِبُهَا حَلاوَةً وَيَزِيدُهَا طَلاوَةً.

وَأَمَّا الْمُرَادُ بِالتَّخْرِيقِ فَتَفْتِيحُ وُجُوهِ الْهَاءِ وَالعَينِ وَالغَينِ وَمَا أَشْبَهَهَا كَيفَمَا وَقَعَتْ

أَفْرَادًا وَأَزْوَاجًا بِمَا يَدُلُّ الْحِسُّ الضَّعِيفُ عَلَى اتِّضَاحِهَا وَانْفِتَاحِهَا.

وأَمَّا الْمُرَادُ بِالتَّعْرِيقِ فَإِبرَازُ النُّونِ وَالياءِ وَمَا أَشْبَهَهَا مِمَّا يَقَعُ فِي أَعْجَازِ الكَلِمَةِ مِثْلِ: مَنْ وَعَنْ وَفِي وَمَتَى وَإِلَى وَعَلَى بِمَا يَكُونُ كَالْمَنْسُوجِ عَلَى مِنْوَالٍ وَاحِدٍ.

وأَمَّا الْمُرَادُ بِالتَّشْقِيقِ فَتَكَنُّفُ الصَّادِ وَالضَّادِ وَالكَافِ وَالطَّاءِ وَالظَّاءِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِمَّا يَحْفَظُ عَلَيهَا التَّنَاسُبَ وَالتَّسَاوِي، فَإِنَّ الشَّكلَ بِهِمَا يَصِحُّ وَمَعَهُمَا يَحْلُو، وَالْخَطُّ فِي الْجُمْلَةِ كَمَا قِيلَ: هَنْدَسَةٌ رُوحَانِيَّةٌ بِآلَةٍ جِسْمَانِيَّةٍ.

وأَمَّا الْمُرَادُ بِالتَّنْسِيقِ فَتَعْمِيمُ الْحُرُوفِ كُلِّهَا؛ مَفْصُولِهَا وَمَوصُولِهَا بِالتَّصْفِيَةِ، وَحِيَاطَتُهَا مِنْ التَّفَاوُتِ فِي التَّأْدِيَةِ، وَنَفْضُ العِنَايَةِ عَلَيهَا بِالتَّسْوِيَةِ.

وأَمَّا الْمُرَادُ بِالتَّوفِيقِ فَحِفْظُ الاسْتِقَامَةِ فِي السُّطُورِ مِنْ أَوَائِلِهَا وَأَوسَاطِهَا وَأَوَاخِرِهَا وَأَسَافِلِهَا وَأَعَالِيهَا بِمَا يُفِيدُهَا وِفَاقًا لا خِلافًا.

وأَمَّا الْمُرَادُ بِالتَّدْقِيقِ فَتَحْدِيدُ أَذْنَابِ الْحُرُوفِ بِإِرْسَالِ اليَدِ وَاعْتِمَالِ سِنِّ القَلَمِ، وَإِدَارَتِهِ مَرَّةً بِصَدْرِهِ، وَمَرَّةً بِسِنِّيهِ، وَمَرَّةً بِالاتِّكَاءِ، وَمَرَّةً بِالإِرْخَاءِ، بِمَا يُضِيفُ إِلَيهَا بَهْجَةً وَنُورًا وَرَونَقًا وَشُذُورًا[1].

وأَمَّا الْمُرَادُ بِالتَّفْرِيقِ فَحِفْظُ الْحُرُوفِ مِنْ مُزَاحَمَةِ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ، وَمَلَابَسَةِ أَوَّلٍ مِنْهَا لآخرٍ، لِيَكُونَ كُلُّ حَرْفٍ مِنْهَا مُفَارِقًا لَصَاحِبِهِ بِالبَدَنِ، مُجَامِعًا بِالشَّكلِ الأَحْسَنِ.

فَهَذِهِ جُمْلَةٌ كَافِيَةٌ مَتَى كَانَ طَبْعُ الكَاتِبِ مُؤَاتِيًا، وَفِعْلُهُ مُوَاطِئًا، وَقَرِيحَتُهُ عَذْبَةً، وَطِينَتُهُ وَطِئَةً.

أقوال في الخطوط

وَسَمِعْتُ الأَعْسَرَ الْخَطَّاطَ أَبَا الْحَسَنِ يَقُولُ: الْخَطُّ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ؛ فَالأَوَّلُ هُوَ الْمُحَقَّقُ بِالقَلَمِ الغَلِيظِ، وَالوَسَطُ، وَالدَّقِيقُ مُحَرَّفًا أَو مُقَوَّمًا، ثُمَّ الشَّبِيهُ فِيهِمَا. قَالَ: فَاجْتَهِدْ أَلَّا

(١) الشذور: المفرد (شَذْر) وهو قِطعُ الذَّهَب تُلْتقطُ من مَعْدِنه، وخَرَزٌ يُفصَلُ به بين حبّات العِقدِ ونحوِه.

يَكُونَ الغَلِيظُ مِنَ الأَقْلَامِ جَافِيًا، وَلَا الوَسَطُ مِنْهَا مُنَافِيًا، وَلَا الدَّقِيقُ مِنْهَا ضَعِيفًا.

وَقَالَ الْمُدَرِّسُ بِبَابِ الطَّاقِ يَومًا لابنِ الْخَلَّالِ الوَرَّاقِ: يَا هَذَا، إِذَا حَرَّفْتَ القَلَمَ فَلَا تُثْقِلْ عَلَيهِ يَدَكَ، وَإِذَا قَوَّمْتَهَا فَلَا تُخَفِّفْهَا عَنْهُ، وَعَيبُ خَطِّكَ مَعَ حَلَاوَتِهِ أَنَّ شَحْمَةَ قَلَمِكَ زَائِدَةٌ عَلَى الْحَاجَةِ، وَلَكَ فِيهِ خَطْرَفَةٌ تَدُلُّ عَلَى قِلَّةِ الْمُبَالَاةِ، فَلَا تَفْعَلْ، فَإِنَّ سَطْرًا مِنَ التَّحْسِينِ أَنْفَعُ لَكَ، وَأَنْفَقُ عَلَيكَ مِنْ عَشْرِ وَرَقَاتٍ فِي التَّشْمِيرِ. وَسَمِعْتُهُ يَقولُ يَومًا: الخَطُّ بِالحِبْرِ في الجُمْلَةِ مَفْسَدَةٌ.

وَسَمِعْتُ ابنَ سُورِينَ[1] الكَاتِبَ يَقُولُ: «النَّاسُ يَظُنُّونَ أَنَّ إِدْمَانَ الْمَشْقِ مُجَوِّدٌ لِلْخَطِّ، فَلَمْ أَجِدْ هَذَا الْحُكْمَ مُنْتَظِمًا بِالصَّوَابِ، وَلا مُطْمَئِنًّا إِلَى الْحَقِّ، وَلَا مُلْقًى بِالقَبُولِ، لأَنَّ الإِدْمَانَ لِلْمَشْقِ مُوَالاةُ الْحَرَكَةِ بِالْحَرَكَةِ مَعَ تَفَاوُتِ النِّسَبِ، وَذَلِكَ مَجْلَبَةٌ لِلشَّعَثِ، لأَنَّهُ يَصْدُرُ عَنْ كَلَالَةِ اليَدِ، وَرُبَّمَا أَورَثَ القَلَمَ طُغْيَانًا، أَو أَحْدَثَ فِي الأَدَاةِ عِصْيَانًا.

وَسَمِعْتُ عَليَّ بنَ جعفر[2] الكَاتِبَ للطَّائِعِ، وَكانَ حَسَنَ الخَطِّ، يَغْلُبُ عَلَيهِ التَّدْوِيرُ يَقولُ: لَا شَيءَ أَنْفَعُ لِلْخَطَّاطِ مِنْ أَنْ لَا يُبَاشِرَ شَيئًا بِيَدِهِ فِي رَفْعٍ وَوَضْعٍ، خَاصَّةً إِذَا كَانَ الشَّيءُ ثَقِيلًا، فَإِنَّ الْحَرَكَاتِ إِذَا تَمَثَّلتْ بِالْحُرُوفِ، وَالْحُرُوفَ إِذَا انْدَفَعَتْ بِالْحَرَكَاتِ، كَانَتِ الصُّورَةُ الْخَطِّيَّةُ، وَأَلْحُرُوفُ الشَّكْلِيَّةُ مَحْفُوظَةَ الأَعْيَانِ بِامْتِلَائِهِما بِهَا، مَحْرُوسَةَ الأَبْدَانِ بِانْتِسَابِهِما إِلَيهَا. قال: وَلَقَدْ رَفَعْتُ يَدي بِسَوطي إِلَى الدَّابَّةِ مِرارًا في بَعْضِ الأَيَّامِ وَقَنَّعْتُها بِهِ فَتَغَيَّرَ خَطِّي مدَّةً.

فَحَكَيْتُ ذلكَ لأبي سُليمانَ فقالَ: لله دَرُّه! لَكَأَنَّما اشْتَقَّ هذا الوَصْفَ مِنَ المُوسيقارِ لأَنَّه يَزِنُ الحركاتِ المخْتَلِفَةَ في الموسيقى، فَتَارَةً يَخْلِطُ الثَّقيلةَ بالخفيفةِ، وتارةً يجرِّدُ الخفيفةَ من الثَّقيلَةِ، وتارةً يرفعُ إحداهما على صاحِبَتِها بِزِيَادَةِ نَقْرَةٍ، أو نُقْصَانِ نَقْرَةٍ،

(١) ذكره أبو حيان التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة: ٣/ ١٨٠، ط دار آفاق، القاهرة.

(٢) ذكره أبو حيان التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٧٧.

ويَمُرُّ في أثناءِ الصِّناعةِ بأَلْطَفِ ما يَجِدُ مِنَ الحِسِّ في الحسِّ، ولَطيفُ الحسِّ مُتَّصِلٌ بالنَّفسِ اللطِيْفَةِ، كما أنَّ كَثيفَ النَّفْسِ مُتَّصِلٌ بكثيفِ الحسِّ. وكانَ كلامُهُ أبلغَ من هذا ولكنْ له مَوْضِعٌ هو أولَى بِهِ.

وسمعتُ أبا إسحاق الصَّابي[1] يقولُ: ما حرَّرتُ كتابًا قَطُّ عُقَيبَ التَّسويدِ إلَّا وَرأيتُ التَّنافرَ في خطِّي، والتَّطايرَ من قَلَمي، والتَّثاقلَ في يدي، فأمَّا إذا جَمَمْتُ[2] بعده جَمَّةً، أو نِمْتُ بعده نومَةً فأنا على صواب ما أُريدُ منه جريء، ومن الخطأ فيه بريء.

وسمعتُ ابنَ الزُّهْريِّ[3] يقول- وكان لحق ابن مقلة وابن الزنجي وابن الثوابة-: «مَنْ حَقَّقَ الْحُرُوفَ الْمُفَصَّلةَ تَحْقِيقًا ثُمَّ وَصَلَ الاثْنَينِ بِالثَّالِثِ ثُمَّ وَصَلَ الثَّلَاثَةَ بِالرَّابِعِ عَلَى هَذَا إِلَى آخِرِ مُتَّصِلٍ بِالكَلِمَةِ، كَقَولِهِمْ: فَسَيَكْفِيكَهُمُ، ويَسْتَنْصِرُونَ، وَالاسْتِعْلامُ، والاسْتِفْهَامُ، والاسْتِقَامَةُ، وَالاسْتِنَامَةُ، وَخَجْخَح، وَجَحْجَبَا، والاسْتِنْجَاحُ، وَالْجَحَاجِحَةُ، وَالصَّيَادِنَةُ، وَالصَّيَاقِلَةُ، والصَّقَالِبَةُ، والغَطَارِفَةُ، والطَّرَاخِنَةُ، والبَطَارِقَةُ، وَوَقَفَ عَلَى الْمُتَمَاثِلَينِ، مِثْلِ: حَطَطْتُ، وَخَطَطْتُ، وَقَطَطْتُ، وَنَصَصَ، وَحَصَصَ، وَقَصَصَ، وَاسْتَنْصَحَ، وَاسْتَصْحَبَ، وَتَكَوكَبَ، وَاسْتَنْجَحَ، وَاسْتَصْلَحَ، وَاسْتَقْبَحَ، وَاسْتَشْرَحَ، وَمَا أَشْبَهَ هَذَا فَإِنَّهُ كَثِيرٌ، رَجَوتُ لَهُ أَن يَبْلُغَ مِنْ رَسْمِ الخَطِّ الذُّرْوَةَ العَالِيَةَ.

قالَ: وَملاكُ الأَمْرِ تَقْوِيمُ أَعْجَازِ السُّطُورِ، وَتَسْوِيَةُ هَوَادِي[4] الْحُرُوفِ، وَحِفْظُ التَّنْسِيقِ، وَقِلَّةُ العَجَلَةِ، وَإِظْهَارُ القُدْرَةِ فِي عَرْضِ الاسْتِرْسَالِ، وَإِرْسَالُ اليَدِ فِي طَيِّ الاقْتِدَارِ.

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصَّابي، كان كاتب الإنشاء ببغداد عند الخليفة وعند عزِّ الدَّولة البويهيِّ، وتقلَّد ديوان الرَّسائل، مات قبل سنة ٣٨٠هـ.

(٢) جمَّ الشَّخصُ: استراح فعادت إليه قوّته.

(٣) لعله الزهري الذي ذكره التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة عدة مرات في (١/ ١١٧)، (٢/ ١٥٦) ، (٣/ ١١٧). وهو أبو الفضل عبيد الله بن عبد الرَّحمن البغدادي، كان محدِّثًا ثقة، توفي سنة ٣٨١هـ.

(٤) هوادي: أوائل.

وَسَمِعْتُ العسْجدِيَّ يَقُولُ: لِلْخَطِّ دِيبَاجَةٌ مُتَسَاوِيَةٌ، وَأَمَّا وَشْيُهُ فَشَكلُهُ، وَأَمَّا التِمَاعُهُ فَمُشَاكَلَةُ بَيَاضِهِ لِسَوَادِهِ بِالتقْدِيرِ، وَأَمَّا حَلاوَتُهُ فَافْتِرَاقُهُ فِي اجْتِمَاعِهِ.

وسمعتُ الْمَرْزَبَانِي[1] الكَاتِبِ البَلِيغِ يَقُولُ: الْخَطُّ هَنْدَسَةٌ صَعْبَةٌ، وَصِنَاعَةٌ شَاقَّةٌ، لأَنَّهُ إِنْ كَانَ حُلْوًا كَانَ ضَعِيفًا، وَإِنْ كَانَ مَتِينًا كَانَ مَعْسُولًا، وَإِنْ كَانَ جَلِيلًا كَانَ جَافِيًا، وَإِن كَانَ دَقِيقًا كَانَ مُنْتَشِرًا، وَإِن كَانَ مُدَوَّرًا كَانَ غَلِيظًا، فَلَيسَ يَصِحُّ لَهُ شَكْلٌ جَامِعٌ لِصِفَاتِهِ فِي الكِبَرِ وَالصِّغَرِ إِلَّا في الشَّاذِّ الْمُسْتَنْدَرِ.

نقد بعض الخطَّاطين

وَسَمِعْتُ ابنَ المشرِّف البغداديَّ يقولُ: رأيتُ خَطَّ أحمد بن أبي خالد كَاتِبِ المأمونِ وكانَ مَلِكُ الرُّوم يُخْرِجُهُ في يومِ عِيدِهِ في جُمْلَةِ زينتِه، وَيَعْرِضُهُ على العُيونِ. فقالَ: وكانتْ أَلِفاتُهُ ولامَاتُهُ على غَايَةِ الانتصابِ والتَّقويم، ولَمْ أجِدْ في جَمِيْعِ حُروفِ خَطِّهِ عَيْبًا إلا في الواواتِ الْمَوْصُولَةِ، والياءاتِ الْمَفْصُولَةِ. قال: ورأيتُ خطَّ إبراهيم ابن العبَّاس[2]، وكان ضَعيفًا جِدًّا، ولكنَّه كانَ شَدِيدَ الحلاوةِ قهَّارًا للعيونِ. قال: ورأيتُ خَطَّ ذي الرِّياستين[3] وكانَ نِهَايةً، لكنَّهُ كانَ لا يكتبُ بالقَلَمِ الأوسَطِ ولا الدَّقيقِ. قالَ: وليسَ لأهلِ المشْرِقِ ولا لأَهلِ المغربِ خَطٌّ موصوفٌ.

قالَ لَنَا أَبو عَبْدِ الله بْنِ الزَّنْجي الكاتِبِ وَرَأيتُهُ بِأَذَرْبيجانَ يَكْتُبُ لإِبْرَاهيمَ بْنِ المَرْزُبَانِ السَّلَّار يَقولُ: أَصْلَحُ الخُطوطِ وَأَجْمَعُها لأَكْثَرِ الشُّروطِ ما عَلَيهِ أَصْحابُنا

(١) المرزباني: هو أَبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى، أَصله من خراسان، كان من الأُدباء الإخباريين المصنِّفين، وله كتبٌ كثيرةٌ في الأَدب والتاريخ عدَّها صاحبُ الفهرست وقال: «إنَّه صادق اللهجة، واسع المعرفة بالروايات، كثير السَّماع». توفي سنة ٣٧٨هـ.

(٢) إبراهيم بن العباس: هو أَبو إسحق إبراهيم بن العبَّاس الصُّولي، شاعرٌ وكاتبٌ مشهورٌ تنقَّل في أَعمال السُّلطان ودواوينه إلى أَن توفي سنة ٢٤٣هـ. وقد كانت ولادته سنة ١٧٦هـ.

(٣) هو الفضل بن سهل السرخسي (١٥٤هـ - ٢٠٤هـ) ولُقب بذي الرياستين لتوليه الوزارة والجيش معًا في عهد الخليفة المأمون.

بالعِرَاق. فَقُلْتُ: ما تَقولُ في خَطِّ ابْنِ مُقْلَة؟ قالَ: ذاكَ نَبيٌّ فِيهِ أُفْرِغَ الخَطُّ في يَدِهِ كَما أُوحِيَ إِلى النَّحلِ في تَسْدِيسِ بُيُوتِه.

وقلتُ لأَبي الجمل[1]، وكتب لشاشنيكير نصر الدَّولة: بأَيِّ شيءٍ تفرِّقُ بينَ خَطِّ أهلِ العِراقِ؟

قالَ: بِمَا لا يَخْفَى على ذي حِسٍّ، ولا يُحْتاجُ فيهِ إلى شَكٍّ وحَدْس؛ خَطُّ أصحابِنَا سِفرٌ ناضرٌ، وخَطُّ أهلِ الْجَبَلِ كَمَدٌ، جافٍ، عليه نُبُوٌّ. وإذا اتَّفَقَ فيه قَويمٌ كانَ كالخطَأ في طَيِّ الصَّوابِ، ثُمَّ لا يكونُ رَونقٌ لتأَهُّبِ الحروفِ الباقِيَةِ، وكُلُّ شَيءٍ مستغرقٌ في أَشياء فلا بهجة له.

وسمعتُ أَبا تَمَّام الزَّينبي[2] وكانَ حَسَنَ الخطِّ، بَدِيعَ البلاغةِ، يقولُ، وقيلَ: قيلَ لَهُ: أَنَّي لكَ هذا الخطُّ وهذه البلاغَةُ؟ قال: أَمَّا الخَطُّ فإِنِّي تلقَّيت فيه ابن مقلة أبا علي، وإن كنتُ بعيدًا من شأوه، غير شاقٍّ لِغُبارِهِ. وأَمَّا البلاغة فالعرق الهاشميُّ أنجبُ، والاقتداء ببني توابة أَفْيَدُ.

أقوال في الخطِّ ووظائفه

وإِنْ ذَهبتُ أحكي جَميعَ ما وَعَيْتُ مِنْ سَادَةِ هذا الشَّأنِ، وكُبَرَاءِ هذِهِ الصِّناعةِ، طالَ وكَثُرَ. وأروي لكَ في هذا الجزءِ فِقَرًا للحكماءِ والعلماءِ تتَّصلُ بِوَصْفِ الخطِّ، وتُفيدُ دُرْبَةً لِطَالِبِهِ حَتَّى يصيرَ محذرًا به على التَّنافسِ فيه، واقتباسِ الخطِّ الأوفى بِحَوْلِهِ وقوَّتِه، والمدارُ على الطَّبعِ الْمُنْقَادِ، والإرادةِ القَويَّة، والتَّأييدِ السَّابقِ.

قالَ بعضُ السَّلفِ: الخَطُّ الحسَنُ يَزيدُ الحَقَّ وُضوحًا.

وقالَ قَتَادَةُ في قولِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١].

(١) ذكره التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة: (١/ ٨١).

(٢) ذكره التَّوحيدي ذاته في الصَّفحات ٨٩، ١٣٢، ١٨٠ من الجزء الثالث من الإمتاع والمؤانسة في معرض حضور مجالس العلم والمناظرة، وعدَّه في المرَّة بين أكابر القوم من العلماء والأدباء.

قالَ: الخطُّ الحسَنُ.

ورُوِيَ عن وهب قالَ: إنَّ رَجُلًا كَتَبَ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيْمِ) فأحسنَ تَمْطِيْطَهُ وَتَخْطِيْطَهُ فَغَفَرَ اللهُ لَهُ.

وقالَ عُمَرُ بن الخطَّاب: شَرُّ القِرَاءَةِ الهَذْرَمَةُ[1]، وَشَرُّ الكِتَابَةِ الْمَشْقُ[2].

وقالَ عمرُ: أَحْسَنُ الخطِّ أَبْيَنُهُ، وأَبْيَنُ الخطِّ أَحْسَنُهُ.

وَقَالَ عبَّاسٌ: الخطُّ لِسَانُ اليَدِ.

والبلاغَةُ لِسَانِ العَقْلِ.

والعَقْلُ لِسَانُ المحاسِنِ.

والْمَحَاسِنُ كَمالُ الإنسانِ.

أقوال في الأقلام ووظائفها

وقالَ الحكيمُ الأوَّلُ: القَلَمُ أَحَدُ اللسانَيْنِ.

كَمَا قِيْلَ: قِلَّةُ العِيَالِ أَحَدُ اليَسَارِيْنِ.

وقيلِ لنصر بن سيَّار: فلانٌ لا يخطُّ. قالَ: تلكَ الزَّمانَةُ[3] الخَفِيَّةُ.

وَقَالَ ابنُ الزَّيَّاتِ الوَزِيرُ: بِالقَلَمِ تُزَفُّ بَنَاتُ العُقُولِ إلى خُدُورِ الكُتُبِ.

وقالَ ابن التَّوَّأم: خَطُّ القلم يُقْرأُ بِكُلِّ مكانٍ وفي كُلِّ زَمانٍ، ويُتَرْجَمُ بِكلِّ لِسَانٍ، وَلَفْظُ اللسَانِ لا يجاوزُ الآذانَ، ولا يعمُّ النَّاسَ بالبيانِ، ولولا الكتَّابُ لاختلفتْ أخبارُ الماضين، وانْقَطَعَتْ أنباءُ الغابرينَ، وإنَّما اللسانُ للشَّاهِدِ لكَ، والقَلَمُ للغائِبِ عَنْكَ، وللماضي والغابِرِ بَعْدَكَ، فَصَارَ نَفْعُهُ أعمَّ، والدَّواوين إليه أفقرَ، والْمَلِكُ المقيمُ بِوَاسِطَةِ

(١) الهَذْرَمَةُ: سرعةُ الكلام والقراءَة. وهَذْرَمَ الرجلُ في كلامِه هَذْرَمةً إذا خلَّط فيه، ويقال للتخليط الهَذْرَمةُ، ويقال: هو السرعة في القراءة والكلام والمشْي.

(٢) المَشْقُ في الكتابة: مدُّ حروفها.

(٣) الزَّمانَةُ: العاهة الدائمة.

بلادِهِ لا يُدْرِكُ مَصَالِحَ أَطْرَافِهِ، وسدَّ ثغورِهِ، وتَقْوِيمَ مَمْلَكَتِهِ إِلَّا بالكتَّاب، ولولا الكتَّابُ لَمَا استقرَّ التَّدبيرُ، ولا اسْتَقَامَتِ الأُمُورُ.

وَقَالَ إسماعيلُ بن صبيح الثَّقفيُّ[1]: عُقُوْلُ الرِّجالِ تَحْتَ أسنانِ أقلامِهَا.

وقال قَالَ عَلِيُّ بنُ عُبَيدَةَ[2]: القَلَمُ أَصَمُّ، وَلَكِنَّهُ يَسْمَعُ النَّجْوَى، وَأَبكَمُ وَلَكِنَّهُ يُفْصِحُ عَنِ الفَحْوَى، وَهُوَ أَعْيَا مِنْ بَاقِلَ[3]، وَلَكِنَّهُ أَفْصَحُ وَأَبْلَغُ مِنْ سَحْبَانِ وَائِلَ[4]؛ يُتَرْجِمُ عَنِ الشَّاهِدِ، وَيُخْبِرُ عَنِ الغَائِبِ.

وَقَالَ أحمدُ بن يوسف[5] كَاتِبُ المأمون: ما عَبَرَاتُ الغَوانِي فِي خُدُورِهِنَّ بِأَحَسَنَ مِن عَبَرَاتِ الأقلامِ في بُطُوْنِ الكُتُبِ.

وقَالُ جعفرُ بنُ يَحْيَى[6]: الْخَطُّ سِمْطُ[7] الْحِكْمَةِ؛ بِهِ تُفَصَّلُ شُذُورُهَا، وَيُنْظَمُ مَنْثُورُهَا، وَيُؤَلَّفُ بَدَدُهَا، وَيُكْتَنَفُ مَدَدُهَا.

وَقَالَ النَّمريُّ: الأَقْلامُ مَطَابُ الفِطَنِ، وبَرْدُ القَرائِحِ، وطَلائعُ الألبابِ.

وقال جَبَلُ بنُ يَزِيدَ: القَلَمُ لِسَانُ البَصِيرِ يُنَاجِيهِ بِمَا اسْتَتَرَ مِن الأَسْمَاعِ، وَيُنَاغِيهِ بِمَا اسْتَثَارَ مِنَ الطِّبَاعِ، وَيُحَدِّثُهُ بَمَا حَدَثَ وَإِنْ كَانَ فِي البِقَاعِ».

(١) هو إسماعيل بن صبيح الكاتب، كتب ليحيى بن جعفر البرمكي، وقلده هارون الرشيد ديواني الخراج والرسائل.

(٢) علي بن عبيدة: هو أَبو الحسن عليُّ بن عبيدة الرَّيحانيُّ؛ الكاتبُ البليغُ. كان له اختصاصٌ بالمأمون. وصنَّف كتبًا عديدةً، توفي سنة ٢٩١هـ.

(٣) باقل رجل من ربيعة، قال الليث: بلغ من عِيِّ باقل أَنه كان اشترى ظَبْيًا بأَحد عشر دِرْهمًا ، فقيل له: بِكَم اشتريت الظبي؟ ففتح كفيه وفرَّق أَصابعه وأَخرج لسانه يشير بذلك إِلى أَحد عشر فانفلت الظبي وذهب فضربوا به المثل في العِيّ.

(٤) سَحْبان هو من ربيعة أَيضًا من بني بكْر كان لَسِنًا بليغًا.

(٥) هو أحمد بن يوسف بن صبيح الكاتب الشاعر، كتب للمأمون، والأرجح أنه توفي سنة ٢١٣هـ.

(٦) هو جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي وزير الرَّشيد المشهور.

(٧) السِّمْطُ: هو الخيط ما دام فيه الخرز أو حبات العقد، وإلا فهو سلك.

وقَالَ عَبْدُ الْحَمِيدِ بنُ يَحْيَى[1] كَاتِبُ مَرْوَانَ: القَلَمُ شَجَرٌ ثَمَرَتُه اللَّفْظُ وَالفِكْرُ، وَبَحْرٌ لُؤْلُؤُهُ الْحِكْمَةُ وَالبَلَاغَةُ، وَمَنْهَلٌ فِيهِ رَيُّ العُقُولِ الظَّامِئَةِ، وَالْخَطُّ حَدِيقَةٌ زَهْرَتُها الفَوَائِدُ البَالِغَةُ.

وقال ابن المقفَّع: القلمُ بريدُ العلم يخبرُ بالخير، ويَجْلي مستور النَّظر، ويشحذُ كليل الفِكَر، ويُجْتَنَى من مَشْقِهِ ثَمَرَةُ الغِيَرِ والعِبَرِ.

وقَالَ أَبو دُلَفَ العِجْلِيُّ[2]: القَلَمُ صَائِغُ الكَلَامِ؛ يُفَرِّغُ مَا يَجْمَعُهُ القَلْبُ، وَيَصُوغُ مَا يَسْكُبُهُ اللُّبُّ.

وقَالَ هِشَامُ بْنُ الْحَكَمِ: الخطُّ حِلْيٌ تَصُوغُهُ اليَدُ مِنْ تِبْرِ العَقْلِ، وَقَصَبٌ[3] يَحُوكُهُ القَلَمُ بِسِلْكِ الحِذْقِ.

وقالَ فيلسوفُ يونان: بِنُورِ الخطِّ تُبْصَرُ الْحِكْمَةُ، وَبِرِفْقِ القَلَمِ تُصَوَّرُ السِّيَاسَةُ.

وقالَ ثُمامَةُ: ما أَثْرَتْهُ الأقلامُ لَمْ تَطْمَعْ فِي دُرُوسِهِ[4] الأَيَّامُ.

وقالَ هشامُ بنُ عبد الملك: الخطُّ صُورةٌ ضَئِيلةٌ لكنْ لَهَا معانٍ جليلةٌ، وَشَبَحٌ حَقِيرٌ لكنْ له شأنٌ كبيرٌ.

وَقَالَ صاحب الطَّاق[5]: رُبَّ خَطٍّ جَافٍ عن العيونِ قَدْ مَلأَ أَقطارَ الظُّنونِ.

وَقَالَ هشامُ بنُ سالم: صُوْرَةُ الْمِدَادِ فِي الأبصارِ سَوْدَاءُ، ولكنَّها في البَصَائِرِ بَيْضَاءُ.

(١) عبد الحميد الكاتب: هو عبد الحميد بن يحيى المعروف بعبد الحميد الكاتب؛ كاتب مروان بن محمد المشهور المقتول معه على أيدي العبَّاسيين سنة ١٣٢هـ.

(٢) أبو دُلف العجلي قائد عباسي في زمن المأمون والمعتصم وهو شاعر وأديب. وكان أمير الكرخ، وسيد قومه، وأحد الأمراء الأجواد الشجعان الشعراء. ولقد قلده الخليفة العباسي هارون الرشيد أعمال «الجبل» ثم كان من قادة جيش المأمون. وكان من العلماء بصناعة الغناء، ويقول الشعر ويلحنه، وتوفي في بغداد سنة ٢٢٦ هـ.

(٣) القَصَبُ: شرائطُ مذهبةٌ أو مفضَّضةٌ تحلَّى بها الثياب ونحوها.

(٤) دروسه: اندثاره وزواله.

(٥) هو عبد الله بن الفضل بن محمد بن هلال بن جعفر، أبو موسى الطائي، الأخباري، صاحب الطاق، أو شيطان الطاق.

وَقَالَ بِشرُ بنُ المعتمر[1]: القَلْبُ مَعْدِنٌ، والعَقْلُ جَوْهرٌ، واللسانُ مُسْتَنْبِطٌ، والقَلَمُ صَائغٌ، والخطُّ صِيْغَةٌ.

وَقَالَ سَهْلُ بنُ هارونَ: القَلَمُ أَنْفُ الضَّميرِ، إذا رَعَفَ[2] أَعْلَنَ أَسْرَارَهُ، وأبانَ آثارَهُ، وأَشَاعَ أَخْبَارَهُ.

وَقَالَ أعرابيٌّ وَنَظَرَ إلى أحمدَ بنِ أبي خالد وهوَ يَكْتُبُ: الدَّواةُ مَنْهَلٌ، والْقَلَمُ واردٌ، والكتابُ عَطَنٌ.

وقَالُ الْمَأْمُونُ: الْخَطُّ رَوضَةُ العِلْمِ، وَقَلْبُ الفَهْمِ، وَفَنُّ الْحِكْمَةِ، وَدِيبَاجَةُ البَيَانِ.

وقال إبراهيم بن جَبَلَةَ: مرَّ بي عبد الحميد الكاتب وأنا أخطُّ خطًّا رديئًا فقال: أتحبُّ أن يَجُودَ خَطُّكَ؟

قلت: نعم.

قال: قلمك أَطِلْ جَلْفَتَهُ، وأعِدْ قطَّته. ففعلت فجاد خطِّي.

وَنَظَرَ جعفرُ بنُ يحيى[3] إلى خَطٍّ حَسَنٍ فَقَالَ: لَمْ أَرَ باكيًا أحسنَ تَبَسُّمًا من القَلَمِ.

فوائد الخطِّ والقلم

وَنَظَر المأمونُ إلى مُوَآمَرَةٍ[4] بِخَطٍّ حَسَنٍ فقالَ: لله دَرُّ القَلَمِ! كيفَ يَحُوكُ وَشْيَ الْمَمْلَكَةِ، ويطرِّزُ أطرافَ الدَّولَةِ، وَيُقِيْمُ أعلامَ الخلافَةِ.

وَدَخَلَ كَاتبٌ لعمرو بن العاصِ عَلَى عُمَرَ فَقالَ لهُ: ألستَ ابن القَيْنِ بِمَكَّة؟ قالَ:

(١) هو أبو سهل البغدادي بشر بن المعتمر، وهو فقيه مناظرٌ من كبار المعتزلة ومؤسس فرقة منها سميت بالبشرية نسبة له، ومما تميز به قوله إنْ الأطعمة والألوان والروائح والإدراكات كلها من السمع. توفي ببغداد سنة ٢١٩هـ/ ٨٢٥م.

(٢) رَعَفَ الأَنْفُ : خَرَجَ مِنْهُ الدَّمُ.

(٣) هو جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد المعروف.

(٤) الموآمرة: المشاورة، ومن ذلك نقول: آمَرَهُ في الأمر وَوَامَرَه واستأمره موآمرة أي شاوره.

بَلَى. قالَ عُمَرُ: لا يَلْبَثُ القَلَمُ أنْ يَبْلُغَ بَصاحِبِهِ.

وَكَانَ الرَّشيد مُعْجَبًا بِخَطِّ إسماعيل بن صبيح فَقالَ لأعرابيٍّ: صِفْ لِي إسماعيل في كِتَابَتِه. فَقالَ: ما رَأيتُ أطْيَشَ مِنْ قَلَمِهِ، ولا أثْبَتَ من حُكْمِهِ. فَقالَ: أحْسَنْتَ يا أعرابيُّ. وَأَمَرَ لَهُ بِمَالٍ.

وقَالَ الفضلُ بنُ يَحْيَى[1]: رَدَاءَةُ الْخَطِّ إِحْدَى الفِدَامَتَينِ[2]، كَمَا قَالُوا: حُسْنُ الْخَطِّ إِحْدَى البَلَاغَتَين.

وَنَظَر عبد الله بن طاهر[3] إلى خَطِّ كاتبٍ فَلَمْ يَرْضَهُ قَالَ: نَحُّوا هَذا عَنْ مَرْتَبَةِ الدِّيوانِ فَإنَّه عَلِيْلُ الخطِّ ولا يُؤْمَنُ أنْ يُعْدِي غَيرَهُ.

وَرَفَع معبد بن فلان رُقْعةً إلى عبد الله بن طاهر بخَطٍّ قبيحٍ فوقَّع فيها:

أرَدْنَا قَبُوْلَ عُذْرِكَ، فأقْطَعَنَا دُوْنَهُ ما قَابَلْنَا مِن قُبحِ خَطِّكَ، ولو كُنْتَ صَادقًا في اعْتِذَارِكَ لَسَاعَدَتْكَ حَرَكَةُ يَدِكَ، أَوَ مَا عَلِمْتَ أنَّ حُسْنَ الخطِّ يُناضِلَ عن صاحِبِهِ، ويوضِّحُ الحُجَّةَ، وَيُمَكِّنُهُ من دَرْكِ البُغْيَةِ.

وتَخَايَرَ غُلامانِ في خَطِّهما إلى سهل بن هارون فقالَ لأحَدِهِمَا: أمَّا أنتَ فَخَطُّكَ تِبْرٌ مَسْبُوكٌ. وقالَ للآخرِ: أمَّا أنتَ فَخَطُّك وَشْيٌ مَحُوْكٌ، تَكَافَأْتُمَا إلى نِهايةٍ، وتَوَافَيْتُمَا عَلَى غَايَةٍ.

من تعريفات فلاسفة اليونان للخط

وقالَ إقليدس: الخطُّ هَنْدَسةٌ رُوحانيَّةٌ ظَهَرَتْ بِآلةٍ جَسَدِيَّةٍ.

---

(١) الفضل بن يحيى: هو أَبو العبَّاس الفضل بن يحيى من خالد البرمكي الجواد المشهور، كان أَخًا للرَّشيد في الرِّضاع، ووزِّر له قبل أخيه جعفر بن يحيى، ثمَّ ولَّاه خراسان. ولد سنة ١٤٧هـ/ ٧٦٥م وتوفي في روايةٍ سنة ٢٠٨هـ/ ٨١٧م وفي رواية أُخرى سنة ١٩٣هـ/ ٨٠٨م.

(٢) الفَدْمُ من النَّاس: العيُّ عن الحجة والكلام مع ثقل ورخاوة وقلة فهم.

(٣) لعلَّه: أبو عبد الله بن طاهر. كان نائبًا عن أبي نصر سابور، كما كان من رجالات صمصام الدولة. مات مقتولًا سنة ٣٨٠هـ.

وقالَ أوميرس: الخطُّ وَشْيٌ أظْهَرَهُ العَقْلُ بِوَسَاطَةِ الحسِّ في القَلَمِ، فلَّما قابلَ النَّفسَ عَشِقَتْهُ بالعُنْصِرِ الأوَّل.

وقالَ أفلاطون: القَلَمُ عِقالُ العُقُوْلِ، والخطُّ بَسْطُ الحسِّ والْمُدْرَكِ، بِهِ مُرَادُ النَّفسِ.

وقالَ مودوطيس: القلمُ قَيِّمُ الحكمَةِ، والخطُّ مَخْدُومُ القلمِ، والمعنى جُودُ العَقْلِ، والبلاغَةُ زِيْنَةُ الْجُمْلَةِ.

وقالَ جالينوس: القَلَمُ طَبِيْبُ الخطِّ، والخطُّ مُدبِّرُ النَّفسِ، والمعنى عَيْنُ الصِّحَّة.

وَقَالَ بلياس: القلمُ الطَّلسمُ الأكبرُ، والخطُّ نَتِيْجَتُهُ.

وَقَالَ أرسطوطاليس: القلمُ العلَّةُ الفَاعِلَةُ، والْمِدَادُ العلَّةُ العُنْصِريَّةُ، والخطُّ العلَّةُ الصُّوريَّةُ، والبلاغَةُ العلَّةُ التَّماميَّةُ.

وَقَالَ مَلِكُ يونان: أَمْرُ الدُّنيا تَحْتَ شيئينِ، أَحَدُهُما تحتَ الآخرِ؛ السَّيفُ والقلمُ، والسَّيفُ تحتَ القلمِ.

وَقَالَ الإسكندرُ: لولا القَلَمُ ما استقامَتِ الْمَمْلَكَةُ، وكُلُّ شيءٍ تحتَ العقلِ واللسان لأنَّهما الحاكمانِ على كلِّ شيءٍ، والقَلَمُ يُرِيْكَهُما شَكْلَينِ، ويُشْهِدُكَهُمَا صُورَتين.

وَزَعَمَ الْمُنَجِّمُونَ أنَّ القلمَ نفَّاعٌ في حِسَابِ الْجُمَلِ.

الخط صناعة جمال

وَقَالَ يَحْيَى بن خالد: الْخَطُّ صُورَةٌ، فَرُوحُهَا الْبَيَانُ، وَيَدُهَا السُّرْعَةُ، وَقَدَمُهَا التَّسْوِيَةُ، وَجَارِحَتُهَا مَعْرِفَةُ الْوَصْلِ.

وقيل لأعرابي: كيف ترى إِبْرَاهِيمَ بنَ العَبَّاسِ[1] في كتابَتِه؟ قالَ: يُثَجْثِجُ[2] اللؤلُؤَ

(١) إبراهيم بن العباس: هو أبو إسحق إبراهيم بن العباس الصُّولي؛ شاعرٌ وكاتبٌ مشهورٌ، تنقَّل في أعمال السلطان ودواوينه إلى أن توفي سنة ٢٤٢هـ/ ٨٥٧م. وقد كانت ولادته سنة ١٧٦هـ/ ٧٩٢م.

(٢) ثَجَّ الْمَاءُ: انْصَبَّ، تَدَفَّقَ.

المنثورَ مَنْطِقُهُ في الخُطَبِ، وَيَنْظِمُ الدُّرَّ بالأقلامِ في الكُتُبِ.

كيفيَّة البري

وقال إبْرَاهِيمُ بنُ العَبَّاسِ لغلام بين يديه: لِيَكُنْ قَلَمُكَ صُلْبًا بَينَ الدِّقَّةِ وَالغِلَظِ، وَلَا تَبْرِهِ عِنْدَ عُقْدَةٍ فَإِنَّ فِيهِ تَعْقِيدَ الأُمُورِ، وَلَا تَكْتُبْ بِقَلَمٍ مُلْتَوٍ، وَلَا ذِي شِقٍّ غَيرِ مُسْتَوٍ، فَإِنْ أَعْوَزَكَ (افْتَقَرْتَ إِلَى) الفَارِسِيُّ وَالبَحْرِيُّ وَاضْطُرِرْتَ إِلَى النَّبْطِيَّةِ فَاخْتَرْ مِنْهَا مَا يَضْرِبُ إِلَى السُّمْرَةِ، وَاجْعَلْ سِكِّينَكَ أَحَدَّ مِنَ الْمُوسَى، وَلَا تَبْرِ بِهِ غَيرَ القَلَمِ، وَتَعَهَّدْهُ بِالإِصْلَاحِ، وَلْيَكُنْ مِقَطُّكَ أَصْلَبَ الْخَشَبِ لِتَخْرُجَ القَطَّةُ مُسْتَوِيَةً، وَابْرِ قَلَمَكَ إِلَى الاسْتِوَاءِ لِإِشْبَاعِ الْحُرُوفِ، وَإِذَا أَجْلَلْتَ فَإِلَى التَّحْرِيفِ، وَأَجْوَدُ الخَطِّ أَبْيَنُهُ، وَأَجْوَدُ القِرَاءَةِ أَبْيَنُهَا.

وَكَانَ الْحَسَنُ بنُ وَهْبٍ[1] يَقُولُ: يَحْتَاجُ الكَاتِبُ إِلَى خِلَالٍ، مِنْهَا: تَجْوِيدُ بَرْيِ القَلَمِ، وَإِطَالَةُ جَلْفَتِه، وَتَحْرِيفُ قَطَّتِه، وَحُسْنُ التَّأَنِّي لامْتِطَاءِ الأَنَامِلِ، وَإِرْسَالُ الْمَدَّةِ بِقَدْرِ إِشْبَاعِ الْحُرُوفِ، وَالتَّحَرُّزُ عِنْدَ إِفْرَاغِهَا مِنَ التَّطْلِيسِ، وَتَرْكُ الشَّكلِ عَلَى الْخَطَأِ، وَالإِعْجَامُ عَلَى التَّصْحِيفِ، وَتَسْوِيَةُ الرَّسْمِ، وَالعِلْمُ بِالفَضْلِ، وَإِصَابَةُ الْمَقْطَعِ.

آداب الخط

وقال سَعِيدُ بنُ حُمَيدٍ[2] الكَاتِبُ الَّذِي يَقُولُ: «مِنْ أَدَبِ الكَاتِبِ أَنْ يَأْخُذَ القَلَمَ فِي أَصْلَحِ أَجْزَائِهِ، وَأَبْعَدِ مَا يُمْكِنُ فِي مَوضِعِ الْمِدَادِ فِيهِ. وَيُعْطِيَهُ مِن أَرْضِ القِرْطَاسِ

(١) هو أَبو علي الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو الكاتب؛ من أُسرة كتَّاب كتبوا في الدَّولتين الأمويَّة والعبَّاسيَّة. وكان الحسن يكتب بين يدي ابن الزَّيَّات ثمَّ ولي ديوان الرَّسائل، وولي بعض الأعمال بدمشق وبها مات وهو يتولى البريد آخر أَيَّام المتوكِّل.

(٢) سعيد بن حُمَيد: شاعرٌ مترسِّلٌ يحسنُ السَّرقة حتَّى قال بعضهم: لو قيل لكلام سعيد وشعره ارجع إلى أَهلك لما بقي معه منه شيء. وله ديوان صغيرٌ وديوان رسائل. وكان بينه وبين فضل الشَّاعرة مراسلاتٌ ومطارحات. توفي نحو سنة ٢٦٠هـ.

حَظَّهُ. وَلَا يَكْتُبَ بِالطَّرَفِ النَّاقِصِ مِنْ سِنِّهِ. وَيَضَعَهُ عَلَى عِيَارِ قِسْطِهِ. وَيُصَوِّرَهُ بِأَحْسَنِ مَقَادِيرِهِ حَتَّى لا يَقَعَ التَّمنِّي لِمَا دُونَهُ. وَلَا يَخطُرَ بِالبَالِ شَأوُ مَا فَوقَهُ. وَيَعْدِلَهُ فِي شَطْرِهِ. وَيُشْبِهَهُ مِمَّا يأتِي مِنْ شَكْلِهِ. وَيَقْرُنَ الْحَرْفَ بِالْحَرْفِ، عَلَى قِيَاسِ مَا مَضَى شَرْطُهُ فِي تَقْرِيبِ مسَاحَتِهِ، وَبُعْدِ مَسَافَتِهِ. وَلَا يَقْطَعَ الكَلِمَةَ بِحَرْفٍ يُفْرِدُهُ فِي غَيرِ سَطْرِهِ. وَيُسَوِّي أَضْلاعَ خُطُوطِ كِتَابَتِهِ. وَلا يُحَلِّيَهُ بِمَا لَيسَ مِنْ زِيِّهِ. وَلَا يَمْنَعَهُ مَا هُوَ لَهُ بِحَقِّهِ، فَتَخْتَلَفَ حِلْيَتُهُ، وَتَفْسُدَ قِسْمَتُهُ».

وقال سَلِيمُ الْحَرَّانِيُّ: عَطِّرُوا دَفَاتِرَ آدَابِكُم بِسَوَادِ الحِبْرِ.

ونَظَرَ العَتَابِيُّ[1] إِلَى وَرَّاقٍ يَخُطُّ فَلَمْ يَرْتَضِ خَطَّهُ فَقَالَ لَهُ: اغْتَفِرْ رَدَاءَةَ خَطِّكَ بِسَوَادِ حِبْرِكَ، فَإِنَّ شِدَّةَ القُبْحِ أَولَى بِشِدَّةِ السَّوَادِ.

وقَالَ الْمَأْمُونِ: كَوَاكِبُ الْحِكَمِ فِي ظُلَمِ الْمِدَادِ.

وقال المنصورُ: إن هذه الحكمَ تندُّ، فاجعلوا الكتب لها حُماةً، والأعلام لها دعاة.

وَقَالَ ابن التَّوأم: شَكِّلوا قَرائِنَ الآدابِ لا تَنْفِرُ عَن الصَّوابِ.

وَرَفَعَ رَجُلٌ قِصَّةً إلى عبد الله بن طاهر فَوقَّعَ على ظَهْرِهَا: ما أَحْسَنَ ما كَتَبَ لولا أَنَّه أَكْثَرَ شُوْنِيْزَهُ[2]!

وَقَالَ ابنُ ثوابة[3]: إِعْجَامُ الكتابِ يَمْنَعُ مِن اسْتِعْجَامِهِ.

وَقَالَ عليُّ بن عيسى الوزيرُ ما حَدَّثَنا به ابنُه عيسى: الخطوطُ الْمُعْجَمَةُ كالبُرُودِ المُعْلَمَةِ[4].

(١) العتابي: هو أَبو عمرو كلثوم بن عمرو العتابي؛ الكاتب الشَّاعر المصنِّفُ المشهور. توفي سنة ٢٢٠هـ/ ٨٣٥م.

(٢) الشُّونِيزُ: الحبَّة السوداءُ، وهي المعروفة بحبَّة البَرَكة.

(٣) ابن ثوابة: هو أبو العباس أحمد بن محمد بن خالد بن ثوابة الكاتب المشهور. توفي سنة ٢٧٣هـ/ أو ٢٧٧هـ.

(٤) العَلَمُ: رَسَمَ الثَّوْبَ، وعَلَمَه: رقمه في أطرافه، وقد أعلمه: جعل فيه علامةً وجعل له عَلَمًا، وأعلم القصار الثوب فهو مُعْلِمٌ. والثَّوب مُعْلَمٌ.

وَرَفَع رَجُلٌ إلى عبد الله بن طاهر قِصَّةً قَدْ أَكْثَرَ تُرَابَها فوقَّعَ فيها: إنْ ضَمِنَ لَنَا مِن الصَّابونِ ما نَغْسِلُ بِهِ ثِيابَنَا من تُرَابِ قِصَّتِهِ قَضَيْنَا حَاجَتَهُ.

وَقَالَ أبو أَيُّوب المورياني: حَلُّوا عَوَاطِلَ العِلْمِ بالتَّقييدِ، وَحَصِّنوها من شُبَهِ التَّحريفِ.

من وظائف القلم

وَقَالَ إبراهيمُ بن العبَّاس الصُّولي: القلمُ يَنْطِقُ عَن السَّاكِتِ، ويُخْبِرُ عن الباهِتِ، وَيُتَرْجِمُ عن القُلوبِ، ويطَّلعُ على الغُيُوبِ، ويُشَافِهُ على بُعْدِ الدَّارِ، وتنائي المزارِ، لا تنقطعُ أخبارُهُ، ولا تَدْرُسُ آثارُهُ، ناطقٌ ساكتٌ، مقيمٌ مسافرٌ، شاهدٌ غائبٌ، ناءٍ حاضرٌ، إن استُنْهِضَ بادَرَ، وإنْ وعى أحضر، كتوم السِّرِّ، مأمون الشَّرِّ.

وَقَالَ محمَّدُ بنُ عبد الملك الوزير: الكتاب المُعْجَمُ هوَ العَرَبيُّ، وغير المعجمِ هو النَّبَطيُّ.

وَقَالَ سعيدُ بن حميد: مَن سَلَكَ طَريقًا بلا أعلامٍ ضَلَّ، وَمَن قَرَأَ خَطًّا بلا إعجامٍ زلَّ.

وَقالَ عبدُ الحميد: الأرضُ الملساءُ وحشةٌ، والرَّوضةُ الزَّهراءُ بهجةٌ، فإذا نُوِّرَت فقد انتهى حُسْنُهَا، وكذلك الخطُّ بلا نُقَطٍ ولا إعجامٍ كالأرضِ الملساءِ، والمنقوطُ المعجمُ كالرَّوضة المُنَوَّرَة.

وقال ابنُ ثوابة: الشَّكلُ للكتابِ كالشَّكلِ للدَّوابِ.

وقال سهلُ بنُ هارون: سُوْءُ الخطِّ زَمَانَةُ الأديبِ، وَقُبْحُ العِبَارَةِ وَصْمةٌ على اللبيبِ.

نَظَرِ الْحَسَنُ بنُ وَهْبٍ إِلَى خَطِّ كَاتِبٍ فَقَالَ: هَذَا مُتَنَزَّهُ اللَّحْظِ الغَنِجِ، وَمُجْتَبَى اللَّفْظِ البَهِجِ.

نصائح عليِّ بن أبي طالب لتجميل الخط

وَقالَ عُبَيدُ بنُ أبي رَافع: كُنْتُ أكْتُبُ لعليّ بنِ أبي طالب كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ فَقالَ لي: يا عُبَيدَ الله! أَلِقْ[1] دَواتَكَ، وَأَطِلْ سِنَّ قَلَمِكَ، وَفَرِّجْ بَينَ سُطورِكَ، وَقَرْمِطْ[2] حُروفَكَ، والزَم الاسْتِوَاءَ.

وقال أبو سَلِيم: كُنْتُ أَكْتُبُ الْمَصَاحِفَ فَمَرَّ بِي عَليُّ بنُ أَبي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَالَ: أَجْلِلْ قَلَمَكَ.

فَقَصَمْتُ مِنْهُ قَصْمَةً ثُمَّ كَتَبْتُ.

فَقَالَ: نَعَمْ، هَكَذَا، نَوِّرْهُ كَمَا نَوَّرَهُ اللهُ.

خطر الخطِّ الرَّديء

وَقالَ ابنُ سيرينَ: كانَ يُكْرَهُ أَنْ يُكْتَبَ القُرْآنُ مِشْقًا لأنَّ في ذلكَ تَعَجْرُفًا وَخُرْقًا.

وَقَرَأ عُمَرُ بنُ الخطَّاب رَضي اللهُ عَنْهُ مِنْ خَطِّ كاتبٍ لأبي موسى الأشعريِّ لَحْنًا فَكَتَبَ إِلَيهِ: قَدْ أَرْسَلْتُ لَكَ سَوْطًا وَقالَ بلّ في حَقِّهِ إِلَيكَ، فَكَتَبَ لَهُ الله مَحْذوفًا.

فَكَتَبَ إِلَيهِ: أَنا أَنْتَ اضْرِبْ كاتِبَهُ سَوطًا.

عاقبة حسن الخطِّ

وقال إِبْرَاهِيمُ بنُ العَبَّاسِ: مَنْ وُهِبَ لَهُ العَقْلَ فِي نَفْسِهِ، وَالبَلاغَةَ فِي لِسَانِهِ، وَالْخَطَّ فِي يَدِهِ، وَالسَّمْتَ فِي هَيئَتِهِ، وَالْحَلاوَةَ فِي شَمَائِلِهِ، فَقَدْ نُظِمَت الْمَحَاسِنُ لَهُ نَظْمًا،

(١) أَلِقْ من لاقَ الدَّواة لَيْقًا وألاقها إلاقةً فلاقت أَي لزق المدادُ بصوفها ولُقْتُها لَيْقًا أَيضًا، والاسم منه اللِّيقةُ، وهي لِيقَة الدَّواة. لسان العرب ، مادة (ليق).

(٢) القرمَطَةُ في الخطِّ: دقَّة الكتابة وتدني الحروف، وقَرْمَطَ الكاتِبُ إذا قارب بين كتابته.

وَنُثِرَتْ عَليهِ الفَضَائِلُ نَثْرًا، وَبَقِيَ عَلَيهِ الشُّكْرُ، وَأَنَّي لَهُ ذَلِكَ.

وَقالَ عُبَيدُ اللهِ بنُ الْحَسَنِ العَنْبَرِيُّ[1]: مَا قَرَأتُ كِتَابًا بَلِيغًا إِلَّا وَأَعْشَبَ فُؤَادِي سُرُورًا، وَلَا رَأَيتُ خَطًّا حَسَنًا إِلَّا وَامْتَلأَتْ عَينِي قُرُورًا.

وَنَظَرَ المتوكِّلُ إِلَى خَطِّ أحمدَ بنِ الخَطيبِ فَرَآهُ رَديئًا فَقالَ:

ما أَقْدَرَ الله مَا يَشاءُ: لَقَدْ جَمَعَ هذا الرَّجلُ فِرَقَ الخِزْي في جِلْدَتِهِ؛ خُبْثَ الطَّبْعِ، وَسَفَهَ اللِّسانِ، وَفَسادَ العَقيدَةِ، وَسوءَ المُعَامَلَةِ، وَقُبْحَ الوَجْهِ، وَرَداءَةَ الخطِّ. إِنِّي أَظُنُّ أَنَّ جَليسَهُ مَعَهُ في بَلْوى، وَمَخُوفٌ عَلَيهِ العَدْوَى.

وَرَأيتُ أَبا الوَفاءِ المُهَنْدِسِ يَقولُ لابن سَعْدَان[2]: وَاللهِ أَيُّها الوَزيرُ، إِنَّ خَطَّكَ في الغايَةِ، وإِنَّ بَلاغَتَكَ في النِّهايَةِ، فَما الَّذي يَدْعُو إِلى الاسْتِعَانَةِ بالصَّابي أبي إِسْحَاقَ[3] في مُكَاتَبَةِ ابن عبَّاد؟

فَقالَ: إِنَّ ابنَ عَبَّادَ كَثيرُ التَّتَبُّعِ للعَيبِ، شَديدُ الشَّماتَةِ بالعاثِرِ، وَأَنا أَكْرَهُ أَنْ يَرْميني فَيُصْمي وَلا يَشْوي[4]، وَلأَنْ أُحَصِّنَ عَقْلي وَعِرْضي بِتَرْكِ اعْتِمالِ خَطِّي وَلَفْظِي أَحَبُّ إِليَّ مِنْ أَنْ أصبرَ مَلْسوعًا بِإِبْرَتِهِ، مَكْسُوعًا[5] بِحَضْرَتِهِ.

---

(١) العنبري: هو عبيد الله بن الحسن بن الحصين العنبري. ولي قضاء البصرة سنة ١٥٧هـ مكان سوار بن عبد الله لوفاته، وعزل عن الصَّلاة بالناس بعد سنتين، وفي سنة ١٦٦هـ/ ٨٨٣م عزل عن القضاء، وتوفي في السَّنة ذاتها.

(٢) ابن سعدان: هو أَبو عبد الله الحسين بن أَحمد بن سعدان العارض. كان وزيرًا لصمصام الدَّولة بن عضد الدَّولة من سنة ٣٧٢هـ إلى سنة ٣٧٥هـ. والعارض لقب له.

(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصَّابي، كان كاتب الإنشاء ببغداد عند الخليفة وعند عزِّ الدَّولة البويهيِّ، وتقلَّد ديوان الرَّسائل سنة ٣٤٩هـ، وقال النَّديم إنَّه مات قبل سنة ٣٨٠هـ.

(٤) أصمى الصائدُ الصيدَ: رماه فقتله في مكانه.

الشوى – كنوى– اليدان والرجلان والأطراف وعظم الدماغ. وأشواه وشوَّاه بالتشديد: أصاب شواه لا مقتله. وفي المثل: الموت قانص يصمي ولا يشوي.

(٥) كَسَعَهُ: ضَرَبَ دُبُرَهُ بِيَدِهِ، أَو بصَدْرِ قَدَمِهِ.

خاتمة الرسالة

قالَ الشَّيخُ أبو حَيَّانَ: هذا ما انْتَهَى [إلَيه] القَولُ في الخَطِّ وَصِفَاتِه، والقَلَم وحالاتِه، وَإِنْ زِدْنا عَلَى ذلك ثَقُلَ ومُلَّ، وَأَرْجو أَنْ تُعِيرَهُ مِنْ رِضاكَ [ما] يَكونُ لي سَبَبًا قَوِيًّا في المَكَانَةِ مِن قِبَلِكَ، وَالقَبُولِ في نَفْسِكَ والسَّلام.

❊ ❊ ❊

(٦)

مناظرة بين

أبي سعيد السِّيرافي ومتى بن يونس القُنَّائي

النَّحْوِ العربي والمَنْطِقِ اليُونَانِيِّ

إنِّي أيُّها الشَّيخُ -أحياكَ الله لأهلِ العلمِ وأحيَا بِكَ طالبيه- ذَكَرْتُ للوزيرِ[١] مناظَرةً جَرَتْ في مجلسِ الوزيرِ أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات[٢] بَيْنَ أبي سعيد السيرافي[٣] وأبي بِشْر مَتَّى[٤] واختصرتُها؛ فقَالَ لي: اكتبْ هذه المناظرَةَ على التَّمَامِ فَإنَّ شيئًا يَجْرِي في ذلكَ المجلسِ النَّبيهِ بَيْنَ هذين الشَّيخينِ بحضرةِ أولئكَ الأعلامِ ينبغي أن يُغتَنمَ سماعُهُ، وتُوعَى فوائِدُهُ، ولا يُتَهَاوَنَ بشيءٍ منه. فكتبتُ:

(١) هو الوزير ابن سعدان: أَبو عبد الله الحسين بن أَحمد بن سعدان العارض. كان وزيرًا لصمصام الدَّولة بن عضد الدَّولة من سنة ٣٧٢هـ إلى سنة ٣٧٥هـ. والعارض لقب له، كما مر ذكره.

(٢) كان من بلغاء الكتاب المجيدين، يُعرف بان خنزابة وهي أمه. ولاه الخليفة المقتدر العباسي ببغداد وزارته وظل فيها إلى آخر مدة المقتدر، وتولى الدواوين في وزارة أبي علي بن مقلة. وفي عهد الراضي تولى على الشام وحلب. ولد سنة ٢٧٩هـ وتوفي سنة ٣٢٧هـ.

(٣) أبو سعيد السيرافي هو الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي النحوي المعروف؛ سكن بغداد وتولى القضاء بها، وكان من أعلم الناس بنحو البصريين، وتوفي سنة ثمان وستين وثلاثمائة.

(٤) أبو بشر متّى، هو ابن يونس القُنَّائي من أهل دَيْر قُنَّى. كان نصرانيًّا عالمًا بالمنطق، وإليه انتهت رئاسة المنطقيين في زمنه، نزل بغداد بعد سنة عشرين وثلاثمائة، وكانت وفاته في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة.

حَدَّثني أبو سعيد[١] بلُمَعٍ من هذه القِصَّةِ. فأمَّا عليُّ بن عيسى[٢] الشَّيخُ الصَّالحُ فإنَّهُ رَوَاها مشروحةً.

لَمَّا انعقدَ المجلسُ سَنَةَ ستٍّ وعشرينَ وثلاثمائةٍ، قَالَ الوزيرُ ابنُ الفرات للجماعَةِ، وفيهم: الخُلديُّ[٣] وابنُ الأخشادِ والكتبيُّ وابنُ أبي بِشْرٍ وابنُ رَباحٍ وابنُ كعبٍ وأبو عمرو قُدَامَةُ بنُ جعفر والزُّهريُّ وعليُّ بنُ عيسى الجرَّاح وابنُ فِراسٍ وابنُ رشيد وابنُ عبدِ العزيزِ الهاشميِّ وابنُ يحيى العلويِّ ورسولُ ابنِ طغج من مصر والمرزبانيُّ صاحبُ آل سامان: ألا[٤] يَنتدبُ منكم إنسانٌ لِمُنَاظَرَةِ مَتَّى في حديثِ المنطقِ، فإنَّهُ يقولُ: لا سبيلَ إلى معرفَةِ الحقِّ مِن الباطلِ والصِّدقِ من الكَذِبِ، والخيرِ من الشرِّ، والحجَّةِ من الشُّبهةِ، والشَّكِّ من اليقينِ، إلا بِما حويناهُ من المنطقِ ومَلَكْنَاهُ من القيامِ به، واستفدناهُ من واضعِهِ على مراتِبِهِ وحدودِهِ، فاطلعنا عليه من جِهَةِ اسمهِ على حقائقِهِ؟ فأَحْجَمَ القومُ وأطرقوا.

قَالَ ابنُ الفراتِ: والله إنَّ فيكم لَمَنْ يَفِي بكلامِهِ بمناظَرته وَكَسْرِ ما يذهبُ إليه، وإنِّي لأعُدُّكُمْ في العلم بِحَارًا، وللدِّينِ وأهلِه أنصارًا، وللحقِّ وطُلَّابِهِ منارًا؛ فَمَا هذا التَّرامزُ والتَّغَامُزُ اللذَان تَجلُّونَ عنهما؟

فَرَفَعَ أبو سعيد السِّيرافيُّ رأسهُ فَقَالَ: اعذُرْ أيُّها الوزيرُ، فإنَّ العلمَ المصونَ في الصَّدرِ غيرُ العلمِ المعروضِ في هذا المجلسِ على الأسماعِ المُصيخَةِ[٥]، والعيونِ المحدِقَةِ،

(١) يعني السيرافي.

(٢) هو أبو الحسن علي بن عيسى بن عبد الله الرُّماني، مُفَسِّر وفيلسوف معتزلي، ومن كبار النحاة، كان مُتَبَحِّرًا في علوم الفقه واللغة والكلام والفلك، ألَّف ما يقارب مائة كتاب. عاصر أبا علي الفارسي وأبا سعيد السيرافي. له الجامع في القرآن. وقيل في أسلوبه أنه كان يمزج النحو بالمنطق. كان من تلاميذه أبو حيان التوحيدي.

(٣) جَعْفَر الْخُلْدِيُّ، واسْمه جعْفَر بن مُحَمَّد بن نصير أَبُو مُحَمَّد الْخَواص، ويُكنّى أبا محمد، أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الرابع الهجري. توفي سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة في رمضان وله خمس وتسعون سنة.

(٤) في المقابسات: أريد أن يُنتدب.

(٥) المصيخة: المنصتة.

والعقولِ الحادَّةِ واللبابِ النَّاقدَةِ. لأنَّ هذا يستصحبُ الْهَيْبَةَ، والهيبةُ مَكْسَرَةٌ، وَيَجْتَلِبُ الحياءَ، والحياءُ مَغْلَبَةٌ، وليسَ البِرازُ في معركةٍ خاصَّةٍ كالمِصاعِ[1] في بقعةٍ عامَّةٍ.

فقَالَ ابنُ الفراتِ: أنتَ لَها يا أبا سعيد، فاعتذارُك عن غيرِكَ يُوْجِبُ عليكَ الانتصارَ لِنَفْسِكَ، والانتصارُ في نفسكَ راجعٌ إلى الجماعةِ بِفَضْلِكَ.

فَقَالَ أبو سعيد: مخالفةُ الوزيرِ فيما رَسَمَهُ هُجْنةٌ، والاحتجازُ عن رأيِهِ إخلادٌ إلى التَّقصيرِ. ونعوذُ بالله من زَلَّةِ القَدَمِ، وإيَّاهُ نسألُ حُسنَ المعونَةِ في الْحَرْبِ والسِّلْمِ. ثُمَّ واجَهَ متَّى فقَالَ:

حدِّثني عن المنطقِ ما تَعني به؟ فإنَّا إذا فَهِمْنا مُرَادَكَ فيه كَانَ كلامُنا معكَ في قَبُوْلِ صَوابِهِ وَرَدِّ خطئِهِ على سَنَنٍ مَرضيٍّ وطريقةٍ معروفةٍ.

قَالَ متَّى: أعني بِهِ أَنَّهُ آلَةٌ من آلاتِ الكلامِ يُعرَفُ بها صحيحُ الكلامِ من سَقِيْمِهِ، وفاسدُ المعنى من صالِحِهِ، كالميزانِ، فإنَّي أعرفُ به الرُّجْحانَ من النُّقصانِ، والشَّائلَ[2] من الْجَانِحِ.

فقَالَ أبو سعيد: أخطأتَ، لأنَّ صحيحَ الكلامِ من سقيمِهِ يُعرَفُ بالنَّظمِ المألوفِ والإعرابِ المعروفِ إذا كنَّا نَتكَلَّمُ بالعربيَّةِ. وفاسدُ المعنى من صالحِهِ يُعرَفُ بالعقلِ إذا كنَّا نبحثُ بالعقلِ، وهَبْكَ عرفت الرَّاجحَ من النَّاقصِ من طُرُقِ الوزنِ، فَمَنْ لَكَ بمعرفَةِ الموزونِ أيُّما هو حديدٌ أو ذَهَبٌ أو شَبَهٌ[3] أو رَصَاصٌ. فأراكَ بعدَ معرفةِ الوزنِ فقيرًا إلى مَعْرِفَةِ جوهرِ الموزونِ وإلى معرفَةِ قِيْمَتِهِ وسائرِ صِفاتِهِ الَّتِي يطولُ عَدُّها. فَعَلَى هذا لم يَنْفَعْكَ الوزنُ الَّذي كَانَ عليهِ اعتمادُكَ، وفي تحقيقِهِ كَانَ اجتهادُكَ، إلَّا نفعًا يسيرًا من وجهٍ واحدٍ، وَبَقِيَتْ عليكَ وُجُوْهٌ، فأنتَ كما قَالَ الأوَّلُ[4]:

(١) المصاع: من صاع الشجاع أقرانه إذا حمل عليهم ففرق جمعهم.

(٢) الشائل من شال الميزان إذا ارتفعت إحدى كفَّتيه.

(٣) الشَّبَه، بالتَّحريك: النُّحاس الأصفر.

(٤) هو أبو نواس؛ وأول البيت: فقل لمن يدّعي في العلم فلسفة*حفظت شيئًا... إلخ.

حَفِظْتَ شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْياءُ

وَبَعْدُ، فقد ذَهَبَ عليكَ شيءٌ هاهنا، ليسَ كُلُّ ما في الدُّنيا يوزَنُ، بَلْ فيها ما يوزنُ، وفيها ما يُكالُ، وفيها ما يُزْرَعُ، وفيها ما يُمسحُ، وفيها ما يُحزَرُ. وهذا وإنْ كَانَ هكذا في الأجسامِ المرئيَّةِ، فإنَّهُ على ذلك أيضًا في المعقولات المقرَّرَةِ. والإحساساتُ ظلالُ العقولِ تحكيها بالتَّقريبِ والتَّبعيدِ، مَعَ الشَّبَهِ المحفوظِ والمماثَلَةِ الظاهرَةِ. وَدَعْ هذا، إذا كَانَ المنطقُ وَضَعَه رجلٌ من يونانَ على لُغَةِ أَهْلِهَا واصْطلاحِهم عليها وما يتعارفونَهُ بها من رُسُومِها وصِفاتِهَا، فَمِنْ أَيْنَ يَلْزَمُ التُّرْكَ والهندَ والفُرسَ والعَرَبَ أنْ ينظروا فيه ويَتَّخِذُوهُ قاضيًا وحَكَمًا لَهُمْ وعليهم، ما شَهِدَ لَهُمْ بِهِ قَبِلُوْهُ، وما أَنْكَرَهُ رفضوه؟

قَالَ متَّى: إنَّما لَزِمَ ذلكَ لأنَّ المنطقَ بَحْثٌ عن الأغراضِ المعقولَةِ والمعاني المدرَكَةِ، وتصفُّحٌ للخواطرِ السَّانِحَةِ والسّوانحِ الهاجِسَةِ. والنَّاسُ في المعقولات سواءٌ، ألا تَرَى أنَّ أربعةً وأربعةً ثَمَانِيَةٌ سواءٌ عندَ جَمِيْعِ الأمم، وكذلك ما أشبهه.

قَالَ أبو سعيد: لَوْ كَانَت المطلوباتُ بالعقلِ والمذكوراتُ باللفظ تَرْجِعُ مَعَ شُعَبِهَا المختلِفَةِ وطرائقِها المتباينَةِ إلى هذه المرتبةِ البيِّنَةِ في أربعةٍ وأربعةٍ وأَنَّهُما ثمانيةٌ، زَالَ الاختلافُ وَحَضَرَ الاتِّفاقُ، ولكنْ ليسَ الأمرُ هكذا، ولقد موَّهتَ بهذا المثالِ، ولَكُمْ عادةٌ بِمِثْلِ هذا التَّمويهِ. ولكنْ مَعَ هذا أيضًا إذا كَانَت الأغراضُ المعقولَةُ والمعاني المدرَكَةُ لا يُوْصَلُ إليها إلا باللغة الجامِعَة للأسماءِ والأفعالِ والحروفِ، أفليسَ قد لَزِمَت الحاجةُ إلى معرفةِ اللغة؟

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: أخطأتَ، قُلْ في هذا الموضعِ: بَلَى.

قَالَ: بَلَى، أنا أقلِّدُكَ في مثل هذا.

قَالَ: أنتَ إذًا لستَ تدعونا إلى علمِ المنطقِ، إنَّما تدعو إلى تَعَلُّمِ اللغةِ اليونانيَّةِ وأنتَ لا تعرفُ لغةَ يونانَ، فكيفَ صِرْتَ تدعونا إلى لُغَةٍ لا تفي بها؟ وقد عَفَتْ منذ

زمنٍ طويلٍ، وبادَ أهلُها، وانقرضَ القومُ الَّذينَ كَانَوا يتفاوضونَ بها، ويتفاهمونَ أغراضَهُم بتصاريفها. على أنَّك تَنقُلُ من السِّريانيَّة، فما تقولُ في معانٍ مُتَحوِّلةٍ بالنَّقلِ من لُغَةِ يونانَ إلى لغةٍ أُخْرَى سريانيَّة، ثُمَّ مِن هذه إلى أُخْرَى عربيَّةٍ؟

قَالَ متَّى: يونانُ وإنْ بادتْ مَعَ لُغَتِها، فإنَّ التَّرْجَمَةَ حَفِظَتْ الأغراضَ وأدَّت المعاني، وأخلصت الحقائقَ.

قَالَ أبو سعيد: إذا سَلَّمنا لكَ أنَّ التَّرجَمَةَ صَدَقَتْ وما كَذَبَتْ، وقَوَّمَتْ وما حَرَّفَتْ، وَوَزَنَتْ وما جَزَفَتْ[1]، وأنَّها ما التَاثَتْ[2] ولا حَافَتْ، ولا نَقَصَتْ ولا زادتْ، ولا قَدَّمَتْ ولا أخَّرتْ، ولا أَخَلَّتْ بِمَعْنَى الخاصِّ والعامِّ، ولا بأخصِّ الخاصِّ ولا بأعمِّ العامِّ – وإن كَانَ هذا لا يكون، وليسَ هو في طبائعِ اللغاتِ ولا في مقاديرِ المعاني – فَكَأَنَّكَ تقولُ: لا حُجَّةَ إلا عُقُوْل يونان، ولا برهانَ إلا ما وَضَعُوْهُ، ولا حقيقةَ إلَّا ما أبرَزُوه.

قَالَ مَتَّى: لا، ولكنَّهم مِنْ بَيْن الأُمَم أصحابُ عنايةٍ بالحكمةِ والبحثِ عن ظاهرِ هذا العالَم وباطِنِه، وعن كلِّ ما يتَّصلُ بِهِ وينفصلُ عنه. وبفضلِ عِنَايَتِهِمْ: ظَهَرَ ما ظَهَرَ، وانْتَشَرَ ما انْتَشَرَ، وفَشَا ما فَشَا، ونَشَأَ ما نَشَأَ من أنواعِ العلمِ وأصنافِ الصَّنائعِ. ولَمْ نَجِدْ هذا لغيرهم.

قَالَ أبو سعيد: أخطأتَ وتَعَصَّبْتَ ومِلْتَ مع الهوى، فإنَّ عِلمَ العَالَم مبثوثٌ في العالَمِ بَيْنَ جميعِ مَنْ فِي العالَم، ولهذا قَالَ القائل:

العِلْمُ فِي العَالَم مَبْثُوْثٌ وَنَحْوَهُ العَاقِلُ مَحْثُوْثُ

وكذلكَ الصِّناعاتُ مَفْضُوضَةٌ عَلَى جميعِ مَن عَلَى جَدَدِ[3] الأرضِ، ولهذا غَلَبَ

(١) جَزَفَ البِضَاعةَ: بَاعَهَا وَاشْتَرَاهَا بِغَيْرِ وَزْنٍ وَلاَ كَيْلٍ.

(٢) اللوث: البطء في الأمر، لوث لوثًا والتاث، والتاث في عمله: أبطأ.

(٣) الْجَدَدُ: ما استوى من الأرض.

عِلْمٌ في مكانِ عِلمٍ، وكَثُرَتْ صناعةٌ في بقعةٍ دُوْنَ صناعةٍ. وهذا واضحٌ والزِّيادةُ عليه مَشغَلةٌ. وَمَعَ هذا فإنّما كَانَ يصحُّ قولُك وتَسْلَمُ دعواكَ لو كَانَتْ يونانُ معروفةً من بَيْن جَمِيْعِ الأمم بالعِصْمَةِ الغالِبةِ، والفِطْنةِ الظَّاهرةِ، والبِنيةِ المخالِفَةِ، وأنَّهم لو أرادوا أن يخطئوا لما قَدَروا، ولو قَصَدوا أن يكذبوا ما استطاعوا، وأنَّ السَّكينةَ نَزَلَتْ عليهم، والحقَّ تكفَّل بهم، والخطأَ تَبَرَّأَ منهم، والفضائلَ لصقت بأصولهم وفروعهم، والرَّذَائِلَ بعدتْ من جواهرهم وعروقِهم. وهذا جَهْلٌ مِمَّنْ يَظُنُّهُ بهم، وعِنَادٌ مِمَّنْ يَدَّعيه لهم. بل كَانَوا كغيرهم من الأمم يُصِيْبونَ في أشياءَ ويخطئونَ في أشياءَ، ويعلمونَ أشياءَ ويجهلونَ أشياءَ، ويَصدُقونَ في أمورٍ ويَكذِبونَ في أمور، ويُحسِنون في أحوالٍ ويسيئونَ في أحوالٍ. وليسَ واضعُ المنطقِ يونانُ بأسرها، إنَّما هوَ رَجُلٌ منهم[1]، وقد أَخَذَ عمَّنْ قَبْلَهُ كَمَا أَخَذَ عنه مَن بَعْدِهِ، وليسَ هو حُجَّةً على هذا الْخَلْقِ الكثيرِ والجمِّ الغفيرِ، وله مخالِفونَ منهم ومِنْ غيرهم. وَمَعَ هذا فالاختلافُ في الرَّأي والنَّظَرِ والبحث والمسألةِ والْجَوابِ سِنْخٌ[2] وَطَبيعَةٌ، فكيفَ يجوزُ أن يأتي رَجُلٌ بشيءٍ، يرفعُ به هذا الخلافَ أو يُحَلْحِلُهُ أو يؤثِّرُ فيه؟ هيهات هذا محالٌ، ولَقَدْ بَقِيَ العالَمُ بعدَ مَنْطِقِهِ على ما كَانَ عليه قَبْلَ مَنْطِقِهِ. فَامْسَحْ وجهكَ بالسَّلوةِ عن شيءٍ لا يُستطاعُ لأَنَّهُ مُنَعَقِدٌ بالفِطرةِ والطِّباعِ، وأنتَ لو فَرَّغتَ بالكَ وصرفتَ عِنَايَتَكَ إلى معرفةِ هذه اللغةِ الَّتي تَحاوَرْنَا بها، وتَجارينا فيها، وتُدارِسُ أصحابكَ بمفهوم أهلها وتشرحُ كُتُبَ يونانَ بِعَادَةِ أصحابها، لَعَلِمْتَ أَنَّكَ غَنيٌّ عن معاني يونانَ كما أَنَّكَ غَنيٌّ عن لغةِ يونان.

وَهَاهُنَا مسألةٌ، أتقولُ: إنَّ النَّاسَ عُقولُهُمْ مختلفةٌ، وأنْصِبَاؤُهُمْ منها متفاوتةٌ؟

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: وهذا الاختلافُ والتَّفاوتُ بالطَّبيعةِ أو الاكتسابِ؟

---

(١) المقصود به هو أرسطو لأَنَّهُ هو الذي وضع المنطق.

(٢) السنخ: الأصل.

قَالَ: بالطَّبيعةِ.

قَالَ: فكيفَ يجوزُ أنْ يكونَ هاهنا شيء يرتفعُ به هذا الاختلافُ الطَّبيعيُّ والتَّفاوتُ الأصليُّ؟

قَالَ مَتَّى: هذا قد مَرَّ في جملةِ كلامِكَ آنفًا.

قَالَ أبو سعيد: فَهَلْ وَصَلْتَهُ بجوابٍ قاطعٍ وبيانٍ ناصعٍ؟ ودَعْ هذا. أسألكَ عن حَرْفٍ واحدٍ، وهو دائرٌ في كلامِ العَرَبِ، ومعانيه متميِّزةٌ عندَ أهلِ العقلِ، فاستخرجْ أنتَ معانيه من ناحيةِ منطقِ أرسطوطاليس الَّذي تُدِلُّ به وتُباهِي بتفخيمه، وهو الواو ما أحكامه؟ وكيف مواقعه؟ وهل هو على وجهٍ أو وجوهٍ؟

فبُهِتَ مَتَّى وقَالَ: هذا نَحْوٌ، والنَّحو لَمْ أنظرْ فيه، لأنَّهُ لا حاجةَ بالمنطقيِّ إليه، وبالنَّحْوِيِّ حاجةٌ شديدةٌ إلى المنطقِ، لأنَّ المنطقَ يبحثُ عن المعنى والنَّحو يبحثُ عن اللفظِ، فإن مرَّ المنطقيُّ باللفظِ فَبالعَرَضِ، وإنْ عَثَرَ النَّحْوِيُّ بالمعنى فَبالعَرَضِ، والمعنى أشْرَفُ من اللفظِ، واللفظُ أوضعُ مِن المعنى.

فقَالَ أبو سعيد: أخطأتَ، لأنَّ الكلامَ، والنُّطْقَ، واللغةَ، واللفظَ، والإفصاحَ، والإعرابَ، والإبانةَ، والحديثَ، والإخبارَ، والاستخبارَ، والعَرْضَ، والتّمنِّيَ، والنَّهيَ، والحضَّ، والدُّعاءَ، والنِّداءَ، والطَّلَبَ، كلُّها منْ وادٍ واحدٍ بالمشاكَلةِ والمماثلَةِ، ألا تَرَى أنَّ رجلًا لو قَالَ:

«نَطَقَ زَيْدٌ بِالْحَقِّ وَلكِنْ مَا تَكَلَّمَ بِالْحَقِّ، وَتَكَلَّمَ بِالفُحْشِ وَلكِنْ مَا قَالَ الفُحْشَ، وَأَعْرَبَ عَنْ نَفْسِهِ وَلكِنْ مَا أَفْصَحَ، وَأَبانَ الْمُرَادَ وَلكِنْ مَا أَوْضَحَ، أَوْ فَاهَ بِحَاجَتِهِ وَلكِنْ مَا لَفَظَ، أو أَخْبَرَ وَلكِنْ مَا أَنْبَأَ».

لَكَانَ فِي جَمِيْعِ هذا مُحَرِّفًا وَمُنَاقِضًا وَوَاضِعًا للكلامِ فِي غيرِ حقِّهِ، ومستعملًا اللَّفظَ على غَيْرِ شهادةٍ من عقلِهِ وعقلِ غيرِهِ، والنَّحْوُ منطقٌ ولكنَّهُ مَسْلُوْخٌ من العربيَّةِ، والمنطقُ نحوٌ، ولكنَّهُ مفهومٌ باللغةِ، وإنَّما الخلافُ بَيْنَ اللفظِ والمعنى أنَّ اللفظَ طبيعيٌّ

والمعنى عقليٌّ، ولهذا كَانَ اللفظُ بائدًا على الزَّمانِ، لأنَّ الزَّمانَ يقفو أثَرَ الطَّبيعةِ بأثَرٍ آخرَ من الطَّبيعةِ ولهذا كَانَ المعنى ثابتًا على الزَّمانِ، لأنَّ مُسْتَملَى المعنى عقلٌ، والعقل إلهيٌّ، وَمَادَّةُ اللفظِ طِيْنِيَّةٌ، وكُلُّ طينيٍّ متهافِتٌ، وقد بَقِيْتَ أنتَ بلا اسم لصناعتكَ الَّتي تنتحلُهَا، وآلتكَ الَّتي تُزهى بها، إلا أنْ تستعيرَ من العربيَّةِ لها اسمًا فتُعارُ، ويسلَّمُ لك بمقدارٍ. وإذا لم يكنْ لكَ بدٌّ من قليلِ هذه اللغةِ من أجلِ التَّرجمةِ فلا بدَّ لكَ أيضًا من كثيرها من أجلِ تحقيقِ التَّرجمةِ واجتلابِ الثِّقةِ والتَّوقِّي من الخلَّةِ اللاحقة.

فقَالَ مَتَّى: يكفيني منْ لُغَتِكُمْ هذه الاسمُ والفعلُ والحرفُ، فإنِّي أَتَبَلَّغُ بهذا القَدْرِ إلى أغراضٍ قد هَذَّبَتْهَا لي يونان.

قَالَ أبو سعيد: أخطأتَ، لأنَّكَ في هذا الاسمِ والفعلِ والحرفِ فقيرٌ إلى وصفها وبنائِها على التَّرتيبِ الواقعِ في غرائزِ أهلها. وكذلكَ أنتَ محتاجٌ بعدَ هذا إلى حركاتِ هذه الأسماءِ والأفعالِ والحروفِ، فإنَّ الخطأَ والتَّحريفَ في الحركاتِ كالخطأِ والفسادِ في المتحرِّكاتِ، وهذا بابٌ أنتَ وأصحابُكَ ورهطُكَ عنهُ في غفلةٍ. على أنَّ هاهنا سرًّا ما عَلِق بكَ، ولا أسفرَ لِعَقْلِكَ، وهو أنْ تعلمَ أنَّ لغةً من اللغاتِ لا تُطابِق لغةً أُخْرَى من جميعِ جهاتِهَا بحدودِ صفاتِهَا، في أسمائها وأفعالها، وحروفها، وتأليفها، وتقديمها وتأخيرها، واستعارتها، وتحقيقها، وتشديدها، وتحقيقها، وسعتها وضيقها، ونظمها ونثرها وسجعها، ووزنها وميلها، وغير ذلك مِمَّا يطولُ ذكره. وما أظنُّ أحدًا يدفعُ هذا الحكمَ أو يشكُّ في صوابها مِمَّنْ يرجعُ إلى مُسْكةٍ من عقلٍ أو نصيبٍ من إنصافٍ، فَمِنْ أَيْنَ يجب أنْ نَثِق بشيءٍ تُرجِم لكَ على هذا الوصفِ؟ بل أنتَ إلى تعرُّفِ اللغةِ العَرَبيَّةِ أحوجُ منكَ إلى تعرُّفِ المعاني اليونانيَّةِ. على أنَّ المعانيَ لا تكونُ يونانيَّةً ولا هنديَّةً، كما أنَّ اللغاتِ تكونُ فارسيَّةً وعربيَّة وتركيَّة.

ومعَ هذا فإنَّكَ تَزْعُمُ أنَّ المعاني حاصلةٌ بالعقلِ والفحصِ والفكرِ، فلم يَبْقَ إلا أحكامُ اللُّغةِ، فَلِمَ تُزْرِي عَلَى العربيَّةِ وأنتَ تشرحُ كتبَ أرسطوطاليس بها، مَعَ جهلكَ بحقيقتها؟

وحدِّثني عن قائلٍ قَالَ لكَ: حالي في مَعْرِفَةِ الحقائقِ والتَّصَفُّحِ لها والبحثِ عنها حالُ قَوْمٍ كَانَوا قبلَ واضعِ المنطقِ؛ أنظرُ كما نظروا، وأتدبَّرُ كما تدبَّروا، لأنَّ اللغةَ قد عَرَفْتُهَا بالمنشأ والوراثَةِ، والمعاني نَقَّرْتُ عنها بالنَّظَرِ والرَّأيِ والاعتقابِ والاجتهاد. ما تقولُ له؟ أتقولُ: إنَّهُ لا يصحُّ له هذا الحُكمُ ولا يَسْتَتِبُّ هذا الأمرُ، لأنَّهُ لا يعرفُ هذه الموجوداتِ من الطَّريقِ الَّتِي عرفتَها أنتَ؟ ولَعَلَّكَ تفرحُ بتقليدِهِ لكَ - وإنْ كَانَ على باطلٍ- أكثرَ مِمَّا تفرحُ باستبدادِهِ وإنْ كَانَ على حَقٍّ، وهذا هو الجهلُ المبينُ، والحُكمُ المَشينُ.

وَمَعَ هذا، فَحَدِّثني عن «الواوِ» ما حُكْمُهُ؟ فإنِّي أريدُ أنْ أبيِّنَ أنَّ تفخيمكَ للمنطقِ لا يُغْنِي عنك شيئًا، وأنتَ تجهلُ حرفًا واحدًا في اللغة الَّتِي تدعو بها إلى حِكْمَةِ يونان، ومَنْ جَهِلَ حرفًا أمكنَ أنْ يجهلَ حروفًا، ومنْ جَهِلَ حروفًا جازَ أنْ يجهلَ اللغةَ بكمالها، فإنْ كَانَ لا يجهلُهَا كُلَّها ولكنْ يجهلُ بَعْضَها، فَلَعَلَّهُ يجهلُ ما يَحتاجُ إليه، ولا ينفعُهُ فيه علمُ ما لا يَحتاجُ إليه. وهذه رتبةُ العامَّةِ أو رتبةُ من هو فوقَ العامَّةِ بِقَدْرٍ يسيرٍ؛ فَلِمَ يتأبَّى عَلَى هذا ويتكبَّرُ، ويَتوهَّمُ أَنَّهُ من الخاصَّةِ وخاصَّةِ الخاصَّةِ، وأَنَّهُ يعرفُ سرَّ الكلام وغامضَ الحكمةِ وخفيَّ القياسِ وَصَحِيْحَ البرهانِ؟

وإنَّما سألْتُكَ عن معاني حرفٍ واحدٍ، فكيفَ لو نَثَرْتُ عليكَ الحروفَ كُلَّها، وطالبتُكَ بمعانيها ومواضعها الَّتِي لها بالحقِّ، والَّتي لها بالتَّجوُّزِ، سمعتكم تقولون:

- إنَّ (في) لا يعرفُ النَّحْوِيُونَ موقعها، وإنَّما يقولونَ: هيَ (للوعاءِ) كما يقولونَ: إنَّ الباءَ للإلصاقِ؛ وإنَّ (في) تقَالُ على وجوهٍ: يُقَالُ «الشَّيءُ في الإناءِ» «والإناءُ في المكانِ» «والسَّائسُ في السِّياسَةِ» «والسِّياسةُ في السَّائسِ».

أَتَرَى أنَّ هذا التَّشقيقَ هوَ من عقولِ يونانَ ومن ناحيةِ لُغَتِها؟ ولا يجوزُ أنْ يُعقَلَ هذا بعقولِ الهندِ والتُّركِ والعَرَبِ؟

فهذا جهلٌ مِنْ كُلِّ مَنْ يدَّعيه، وخطَلٌ من القولِ الَّذي أفاضَ فيه؛ النَّحْوِيُّ إذا قَالَ (في) للوعاءِ فقد أفصحَ في الجملةِ عن المعنى الصَّحيحِ، وكَنَّى مع ذلكَ عن الوجوهِ الَّتِي تظهرُ بالتَّفصيلِ. ومِثْلُ هذا كثيرٌ، وهو كافٍ في موضعِ التَّكْنِيَة.

فقَالَ ابنُ الفرات: أَيُّهَا الشَّيخُ الموفَّقُ، أَجِبْهُ بالبيانِ عن مواقعِ (الواو) حَتَّى تكونَ أشدَّ في إفْحَامِهِ، وَحَقِّقْ عندَ الجماعةِ ما هو عاجزٌ عنه، ومع هذا فهو مشنِّعٌ به.

فقَالَ أبو سعيد: للواوِ وُجُوْهٌ وَمَوَاقِعُ:

منها معنى العطفِ في قولكَ: أكرمتُ زيدًا وعَمرًا.

ومنها القَسَمُ في قولكَ: والله لَقَد كَانَ كذا وكذا.

ومنها الاستئنافُ في قولكَ: خَرَجْتُ وَزَيْدٌ قائمٌ. لأنَّ الكلامَ بعدَهُ ابتداءٌ وَخَبَرٌ.

ومنها معنى رُبَّ الَّتِي هيَ للتَّقليلِ، نَحْوَ قولهم:

وَقَاتِمِ الأعماقِ خاوي المخترَقِ[1].

ومنها أنْ تكونَ أَصْلِيَّةً في الاسمِ كقولكَ: واصلٌ واقدٌ وافدٌ.

وفي الفعلِ كذلكَ كقولكَ: وَجِلَ يَوْجَلُ.

ومنها أنْ تكونَ مُقْحَمَةً نحوَ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ ﴾ [الصافات: ١٠٣- ١٠٤].

أي ناديناه، ومِثْلُه قول الشَّاعرِ:

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الحيِّ وَانْتَحَى[2]

المعنى: انتحَى بِنَا.

وَمِنْهَا مَعْنَى الْحَالِ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:

(١) هذا الشطر من شعر رؤبة بن العجاج.

(٢) هذا الشطر صدر بيت لامرئ القيس، وعجزه: * بنا بَطْنَ خَبْتِ ذِي قِفَافٍ عَقَنْقَل *

﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ [آل عمران: ٤٦].

أي يكلِّم النَّاسَ في حالِ كُهُوْلَتِه.

ومنها أنْ تكونَ بمعنى حرفِ الجرِّ، كقولكَ: استوى الماءُ والْخَشَبَةَ أي مَعَ الْخَشَبَةِ.

فقَالَ ابنُ الفراتِ لِمَتَّى: يا أبا بِشْر: أكانَ هذا في نَحْوِكَ[1]؟

ثُمَّ قَالَ أبو سعيد: دَعْ هذا، هاهُنَا مسألةٌ علاقَتُها بالمعنى العقليِّ أكثرُ من علاقَتِهَا بالشَّكْلِ اللَّفظيِّ، ما تقولُ في قولِ القائلِ:

زَيْدٌ أَفْضَلُ الأخْوَةِ؟

قَالَ: صَحِيْحٌ.

قَالَ: فَمَا تقولُ إنْ قَالَ زَيْدٌ أفْضَلُ أُخْوَتِهِ؟

قَالَ: صَحِيْحٌ.

قَالَ: فَمَا الفرقُ بينهما مَعَ الصِّحَّةِ؟

فَبَلَحَ وجَنَحَ[2] وَغَصَّ بِرِيْقِهِ.

فقَالَ أبو سعيد: أفتيتَ على غَيْرِ بصيرةٍ ولا استبانةٍ. المسألةُ الأولى جَوَابُكَ عنها صَحِيْحٌ وإنْ كنتَ غافلًا عن وَجْهِ صِحَّتِها. والمسألةُ الثَّانيةُ جوابُكَ عنها غَيْرُ صَحِيْحٍ وإنْ كنتُ أيضًا ذاهلًا عَنْ وَجْهِ بُطلانِها.

قَالَ مِتَّى: بَيِّنْ لي ما هذا التَّهجينُ؟

قَالَ أبو سعيد: إذا حَضْرتَ الحَلْقَةَ اسْتَفَدْتَ، لَيْسَ هذا مَكَانُ التَّدريسِ، هُوَ مجلسُ إزَالَةِ التَّلْبِيْسِ، مَعَ مَنْ عَادَتُهُ التَّمويهُ والتَّشبيهُ[3]، والجماعةُ تعلمُ أنّكَ أخطأتَ، فَلِمَ

(١) في المقابسات «في منطقك»؛ وهي أنسب.
(٢) بلح: كَلَّ وعَجَزَ. وجنح، أي مال.
(٣) التشبيه هنا بمعنى اتباع الشبه وترويجها.

تدَّعى أنَّ النَّحْوِيَّ إنَّما ينظرُ في اللَّفظِ دُوْنَ المعنى، والمنطقيَّ ينظرُ في المعنى لا في اللفظِ؟ هذا كَانَ يصحُّ لو أنَّ المنطقيَّ كَانَ يسكتُ ويجيلُ فِكْرَهُ في المعاني، ويرتِّبُ ما يريدُ بالوهمِ السَّانحِ والخاطرِ العارضِ والحَدْسِ الطَّارئ. فأمَّا وهو يريغُ أنْ يَبَرِّرَ ما صَحَّ له بالاعتبارِ والتَّصَفُّحِ إلى الْمُتَعلِّمِ والمُناظِرِ، فلا بدَّ له من اللفظ الَّذي يشتملُ على مرادِهِ، ويكونُ طِباقًا لغرضِهِ، وموافقًا لِقَصْدِهِ.

قَالَ ابنُ الفراتِ لأبي سعيد: تَمِّمْ لنا كلامكَ في شَرْحِ المسألةِ حَتَّى تكونَ الفائدَةُ ظاهرةً لأهلِ المجلس، والتَّبْكِيْتُ عاملًا في نَفْسِ أبي بِشْر.

فقَالَ: ما أكرهُ مِنْ إيضاحِ الْجَوَابِ عَنْ هذه المسألةِ إلَّا مَلَل الوزير، فإنَّ الكلامَ إذا طالَ مُلَّ.

فقَالَ ابنُ الفرات: ما رغبتُ في سَمَاعِ كلامكَ وبيني وبينَ المَلَلِ عَلاقةٌ. فأمَّا الجماعةُ فَحِرْصُها عَلَى ذلكَ ظَاهِرٌ.

فقَالَ أبو سعيد: إذا قلتَ: (زَيْدٌ أَفْضَلُ أُخْوَتِهِ) لمْ يَجُزْ.

وإذا قلتَ: (زَيْدٌ أَفْضَلُ الأَخْوَةِ) جَازَ.

والفَصْلُ بينهما أنَّ أُخوةَ زَيْدٍ هُمْ غيرُ زيدٍ، وزيدٌ خارجٌ عَنْ جملتِهم. والدَّليلُ على ذلكَ أنَّهُ لو سَأَلَ سَائِلٌ فقَالَ: (مَنْ أُخْوَةُ زَيْدٍ). لم يَجُزْ أنْ تقولَ: زَيْدٌ وَعَمْرٌو وَبَكْرٌ وخالدٌ، وإنَّما تقولُ: بَكْرٌ وَعَمْرٌو وَخَالِدٌ ولا يدخلُ زيدٌ في جملتها. فإذا كَانَ زيدٌ خارجًا عن أخوتِهِ صارَ غيرهم. فلم يَجُزْ أنْ تقولَ: أفضلُ أُخْوَتِهِ، كما لم يَجُزْ أنْ تَقُوْلَ: (إنَّ حمارَكَ أفرهُ[1] البغَال) لأنَّ الحميرَ غيرُ البغال، كما أنَّ زيدًا غيرُ أخوتِهِ، فإذا قلتَ: (زَيْدٌ وَعَمْرٌو وَبَكْرٌ وَخَالِدٌ) فيكونُ بمنزلَةِ قولكَ: (حِمَارُكَ أَفْرَهُ الْحَمِيْرِ) لأنَّهُ داخلٌ تحتَ الاسمِ الواقعِ على الحميرِ. فَلَمَّا كَانَ على ما وصفنا جازَ أنْ يضافَ إلى واحدٍ مَنْكُوْرٍ يَدُلُّ عَلى الجنسِ، فتقولُ: (زَيْدٌ أَفْضَلُ رَجُلٍ) وَ (حِمَارُكَ أَفْرَهُ حِمَارٍ)

(١) الدابة الفارهة: النشيطة الحادة القوية، تقَالَ للبراذين والحمير والبغال ولا تقَالُ للخيل.

فَيَدُلُّ (رَجُلٌ) على الجنسِ كما دلَّ الرجالُ. وكما في (عشرينَ درهمًا ومئةَ درهمٍ).

فقَالَ ابنُ الفراتِ: ما بعدَ هذا البيانِ مزيدٌ، ولقد جلَّ علمُ النَّحوِ عندي بهذا الاعتبارِ وهذا الإسفارِ.

فقَالَ أبو سعيد: معاني النَّحْوِ مُنْقَسِمَةٌ بَيْنَ حركاتِ اللَّفظِ وسَكَنَاتِه، وبينَ وَضْعِ الحروفِ في مواضعها المقتضية لها، وبينَ تأليفِ الكلامِ بالتَّقديم والتَّأخيرِ وتَوَخِّي الصَّوابِ في ذلكَ وَتَجَنُّبِ الخطأ منْ ذلكَ، وإنْ زَاغَ شيءٌ عن هذا النَّعتِ فإنَّهُ لا يخلو مِنْ أنْ يكونَ سائغًا بالاستعمالِ النَّادر والتَّأويلِ البعيدِ، أو مردودًا لِخُرُوْجِهِ عن عادة القومِ الجاريةِ على فِطْرَتِهم. فأمَّا ما يَتَعَلَّقُ باختلافِ لغاتِ القبائلِ فذلكَ شيءٌ مسلَّمٌ لهم ومأخوذٌ عنهم، وكلُّ ذلكَ محصورٌ بالتَّتَبُّعِ والرِّوايةِ والسَّماعِ والقياسِ المطَّردِ على الأصلِ المعروفِ منْ غيرِ تحريفٍ، وإنَّما دَخَل العُجْبُ على المنطقيينَ لظَنِّهم أنَّ المعانيَ لا تُعرَفُ ولا تُستوضَحُ إلا بطريقهم، ونظرهم وتكلُّفِهم، فترجموا لغةً هم فيها ضعفاءُ ناقصونَ. وجعلوا تلكَ التَّرجمةَ صناعةً، وادَّعوا على النَّحْوِيِّينَ أنَّهم مع اللَّفظِ لا مَعَ المعنى.

ثُمَّ أقبلَ أبو سعيد على متَّى فقَالَ: أمَا تعرفُ يا أبا بشر أنَّ الكلامَ اسمٌ واقعٌ على أشياءَ قَد ائتلفتْ بمراتب، وتقول بالمثل: هذا ثوبٌ والثَّوبُ اسمٌ يقعُ على أشياءَ بها صارَ ثوبًا، لأنَّهُ نُسِجَ بعدَ أنْ غُزِلَ، فَسَدَاتُهُ لا تكفي دُوْنَ لُحْمَتِه ولُحْمَتُهُ لا تكفي دونَ سَدَاتِه، ثُمَّ تأليفهُ كنسجِه، وبلاغتُهُ كقصارتِه، ورِقَّةُ سِلْكِه كَرِقَّة لَفْظِه، وغِلَظُ غَزْلِه ككثافَةِ حروفِه، ومجموعُ هذا كلِّه ثوبٌ، ولكنْ بعدَ تَقَدُّمِه كلَّ ما يُحتاجُ إليه فيه.

قَالَ ابنُ الفراتِ: سَلْهُ يا أبا سعيد عنْ مسألَةٍ أُخْرَى، فإنَّ هذا كُلَّما تَوَالَى عليه بَانَ انقطاعُهُ، وانخفضَ ارتفاعُهُ، في المنطقِ الَّذي يَنْصُرُهُ، والحقِّ الَّذي لا يُبْصِرُهُ.

قَالَ أبو سعيد: ما تقولُ في رَجُلٍ يقولُ: (لهذا عليَّ درهمٌ غيرَ قيراطٍ، ولهذا الآخَرِ عَلَيَّ دِرْهِمٌ غَيْرُ قيراطٍ).

قَالَ: ما لي عِلْمٌ بهذا النَّمَطِ.

قَالَ: لَسْتُ نازعًا عنكَ حَتَّى يصحَّ عندَ الحاضرينَ أَنَّكَ صاحبُ مَخْرَقَةٍ وزَرْقٍ[1]، هاهنا ما هو أخفُّ من هذا، قَالَ رجلٌ لصاحِبِهِ: (بِكَم الثَّوْبَانِ الْمَصْبُوغَانِ)، وقَالَ آخَرُ: (بِكَمْ ثَوْبَانِ مَصْبُوْغَانِ) وقَالَ آخرُ: (بِكَمْ ثَوْبَانِ مَصْبُوْغَيْن) بَيِّنْ هذه المعاني الَّتِي تَضَمَّنَها لَفْظٌ لَفْظٌ.

قَالَ متَّى: لو نَثَرْتُ أنا أيضًا عليكَ مِنْ مسائلِ المنطِقِ أشياءَ لكانَ حالُكَ كَحَالِي.

قَالَ أبو سعيد: أخطأت، لأَنَّكَ إذا سألتني عنْ شيءٍ أنظرُ فيه، فإنْ كَانَ له علاقةٌ بالمعنى وَصَحَّ لفظُهُ على العادَةِ الجاريةِ أجبتُ، ثُمَّ لا أبالي أنْ يكونَ موافقًا أو مخالفًا، وإنْ كَانَ غيرَ متعلِّقٍ بالمعنى رَدَدْتُهُ عليكَ، وإن كَانَ متَّصلًا باللَّفْظِ ولكنْ عَلَى وَضْعٍ لَكُمْ في الفسادِ عَلَى ما حشوتُمْ به كُتَبَكُمْ رَدَدْتُهُ أيضًا لأَنَّهُ لا سبيلَ إلى إحداثِ لُغَةٍ في لُغَةٍ مقرَّرةٍ بَيْنَ أهلها.

ما وجدنا لكم إلا ما استعرتم من لغةِ العَرَبِ كالسَّبَبِ والآلةِ، والسَّلْبِ والإيجابِ، والموضوعِ والمحمولِ، والكونِ والفسادِ، والمهمَلِ والمحصورِ، وأمثلةٍ لا تنفعُ ولا تُجدِي، وهي إلى العِيِّ أقرَبُ، وفي الفَهَامَةِ أذهَبُ.

ثُمَّ أنتم هؤلاء في منطقكم على نقصٍ ظاهرٍ، لأَنَّكُمْ لا تَفُوْنَ بالكتبِ ولا هي مشروحةٌ، فَتَدَّعونَ الشِّعرَ ولا تعرفونَهُ، وتذكرونَ الخَطابَةَ وأنتم عنها في منقطَعِ التُّرابِ؛ وقد سمعتُ قائلكم يقولُ: الحاجةُ ماسَّةٌ إلى كتاب البرهانِ. فإنْ كَانَ كما قَالَ فلِمَ قُطِعَ الزَّمانُ بِمَا قَبْلَهُ من الكُتُبِ، وإنْ كَانَت الحاجةُ قَدْ مَسَّتْ إلى ما قَبْلَ البرهانِ، وإلَّا فلِمَ صُنِّفَ ما لا يُحتاجُ إليه ويُستغنى عنه. هذا كُلُّهُ تخليطٌ وزَرْقٌ وتهويلٌ وَرَعْدٌ وبرقٌ.

وإَنما بِوِدِّكمْ أن تَشْغَلوا جاهلًا، وتستذلُّوا عزيزًا؟ وغايتُكُمْ أنْ تهوِّلوا بالجنسِ

(١) زَرْق: خداع. جاء في اللسان: رجل زَرّاقٌ : خَدَّاعٌ.

والنَّوعِ والخاصَّةِ والفصلِ والعَرَضِ والشَّخصِ، وتقولوا: الْهَلِيَّة والأيْنِيَّة[1] والماهيَّة والكيفيَّة والكَمِّيَّة والذَّاتيَّة والعَرَضيَّة والجوهريَّة والهَيُوليَّة والصُّوريَّة والأيْسيَّة واللَّيسيَّة[2] والنَّفسيَّة؟

ثُمَّ تتطاولونَ فتقولونَ: (جئنا بالسِّحْرِ) في قولنا: (لا) في شَيءٍ مِنْ (ب) و (ج) فِي بَعْضِ (ب)، فَـ (لا) فِي بَعْضِ (ج) و (لا) فِي كُلِّ (ب) و (ج) في كُلِّ (ب) فإذن (لا) في كُلِّ (ج). هذا بِطَرِيْقِ الْخُلْفِ، وهذا بطريقِ الاختصاصِ.

وهذه كلُّها خُرافاتٌ وتُرَّهاتٌ، ومَغَالِقُ وشبكاتٌ. ومن جادَ عقلُهُ وحَسُنَ تمييزهُ ولَطُفَ نَظَرُهُ وثَقُبَ رأيهُ وأنارتْ نَفْسُهُ استغنى عن هذا كلِّه - بعونِ اللهِ وفضلِهِ- وجَوْدَةُ العقلِ وحُسْنُ التَّمييزِ ولُطفُ النَّظَرِ وثقوبُ الرَّأي وإنارةُ النَّفسِ من مَنَائِحِ الله الهنيَّةِ، ومواهبِهِ السَّنيَّةِ، يختصُّ بها من يشاءُ من عبادِهِ. وما أعرفُ لاستطالَتِكُمْ بالمنطقِ وجهًا، وهذا النَّاشئ أبو العبَّاس قد نَقَضَ عليكم وَتَتَبَّعَ طريقتكم، وبيَّنَ خطأكم، وأبرَزَ ضَعفَكم، ولم تقدروا إلى اليوم أن تردُّوا عليه كَلِمَةً واحدةً مِمَّا قَالَ، وما زِدْتُمْ على قولكم: لم يعرفْ غَرَضَنَا ولا وَقَفَ على مُرَادِنَا، وإنَّما تَكلَّمَ على وَهْمِ. وهذا مِنْكُمْ تَحاجُزٌ ونُكولٌ ورضًى بالعجزِ وكُلولٌ، وكلُّ ما ذكرتم في الموجوداتِ فعليكم فيه اعتراضٌ هذا قولكم في (يَفعلُ وينفعلُ) لم تستوضحوا فيهما مراتبها ومواقعهما، ولم تقفوا على مَقاسِمهما، لأنَّكم قَنِعْتُمْ فيهما بوقوعِ الفِعْلِ مِنْ (يَفعلُ) وقُبُوْلِ الفعلِ من (يَنفعلُ)، ومن وراءِ ذلكَ غاياتٌ خَفِيَتْ عليكم، ومعارفُ ذهبتْ عنكم، وهذا حالكم في الإضافة.

فأمَّا البَدَلُ ووجوهه، والمعرفةُ وأقسامُها، والنَّكِرَةُ ومراتبها، وغير ذلكَ مِمَّا يطولُ ذكرُهُ، فليسَ لَكُم فيه مقَالٌ ولا مجالٌ.

(١) الهلية والأينية: نسبة إلى «هل» و «أين» الاستفهاميتين؛ والنسبة في الألفاظ التي بعدهما معروفة.
(٢) الأيسية والليسية: الإثبات والنفي.

وأنتَ إذا قلتَ لإنسانٍ: (كُنْ منطقيًّا)، فَإِنَّمَا تريدُ: كُنْ عَقْليًّا أو عاقلًا أو اعقِل ما تقول؛ لأنَّ أصحابكَ يزعمونَ أنَّ النُّطقَ هو العقلُ، وهذا قولٌ مدخولٌ، لأنَّ النُّطقَ على وجوهٍ أنتمْ عنها في سَهوٍ.

وإذا قَالَ لكَ آخرُ: (كن نَحْويًّا لُغَويًّا فَصيحًا) فَإِنَّمَا يريدُ: افهمْ عَنْ نفسكَ ما تقولُ، ثُمَّ رُمْ أَنْ يَفْهَمَ عنكَ غيرُكَ. وَقَدِّرِ اللَّفظَ على المعنى فلا يَفضُلُ عنه، وَقَدِّرِ المعنى على اللَّفظِ فلا ينقصُ منه.

هذا إذا كنتَ في تحقيقِ شيءٍ على ما هو بِهِ. فأمَّا إذا حاولتَ فَرْشَ المعنى وبَسْطَ المرادِ فَاجْلُ اللَّفْظَ بالرَّوادفِ الموضِّحَةِ والأشباهِ المقرِّبَةِ، والاستعاراتِ الممتعةِ، وبيِّن المعاني بالبلاغَةِ، أعني لَوِّحْ منها لِشَيءٍ حَتَّى لا تُصاب إلا بالبحثِ عنها والشَّوقِ إليها، لأنَّ المطلوبَ إذا ظُفِرَ بِهِ على هذا الوجهِ عَزَّ وجَلا، وكَرُمَ وعَلا. واشرحْ منها شيئًا حَتَّى لا يمكن أن يُمترى فيه أو يُتعَبَ في فهمِهِ أو يُعَرَّجَ عنه لاغتماضِهِ، فهذا المذهبُ يكونُ جامعًا لحقائقِ الأشباهِ وَلأَشْبَاهِ الحقائقِ. وهذا بابٌ إن استقصيتُهُ خَرَجَ عن نَمَطِ ما نحنُ عليه في هذا المجلس. على أَنِّي لا أدري أيؤثِّرُ فيكَ ما أقول أو لا؟

ثُمَّ قَالَ: حدِّثنا هل فَصَلْتُمْ قَطُّ بالمنطقِ بَيْنَ مختلفينِ، أو رفعتم الخلافَ بَيْنَ اثنينِ؟

أُتراكَ بِقُوَّةِ المنطقِ وبرهانِهِ اعتقدتَ أنْ الله ثالثُ ثلاثةٍ، وأنَّ الواحدَ أكثرُ من واحدٍ، وأنَّ الَّذي هو أكثرُ من واحدٍ هو واحدٌ، وأنَّ الشَّرعَ ما تذهبُ إليه، والحقَّ ما تقوله؟

هيهاتَ، ها هنا أمورٌ ترتفعُ عن دَعْوَى أصحابِكَ وهذيانِهم، وتدِقُّ عن عقولهم وأذهانِهِمْ.

ودَعْ هذا، هاهنا مسألةٌ قد أوقعتْ خلافًا، فَارْفَعْ ذلكَ الخلافَ بمنطقكِ.

قَالَ قائلٌ: (لِفُلانٍ مِنَ الْحَائِطِ إِلَى الْحَائِطِ) ما الحكمُ فيه؟ وما قَدْرُ المشهودِ بِهِ لفلان؟ فقد قَالَ ناسٌ: له الحائطانِ معًا وما بينهما. وقَالَ آخرونَ: له أحدهما. هاتِ الآنَ آيتكَ الباهرَةَ، ومعجزَتكَ القاهرَةَ، وأَنَّى لكَ بهما، وهذا قد بَانَ بغيرِ نظرِكَ وَنَظَرِ أصحابِكَ.

وَدَعْ هذا أيضًا، قَال قائلٌ: (مِنَ الكلامِ ما هو مستقيمٌ حَسَنٌ، ومنه ما هو مستقيمٌ مُحَالٌ، ومنه ما هو مستقيمٌ قبيحٌ، ومنه ما هو محالٌ كَذِبٌ، ومنه ما هو خطأٌ). فَسِّرْ هذه الجملة. واعترضَ عليه عالِمٌ آخَرُ، فاحكمْ أنتَ بَيْنَ هذا القائلِ والمعترِضِ وأرِنا قُوَّةَ صناعَتِكَ الَّتِي تُمَيِّزُ بها بَيْنَ الخطأ والصَّوابِ، وبينَ الحقِّ والباطلِ؟ فإنْ قلتَ: كيفَ أحكمُ بَيْنَ اثنينِ أحدهما قد سمعتُ مقَالَتَهُ، والآخرُ لم أحصِّل اعتراضَهُ؟ قيلَ لكَ: استخرجْ بِنَظْرِكَ الاعتراضَ إنْ كَانَ ما قَالَه محتملًا له، ثُمَّ أوضح الحقَّ منهما، لأنَّ الأصلَ مسموعٌ لكَ، حاصلٌ عندكَ وما يصحُّ به أو يَرِدُ عليه يجبْ أنْ يظهرَ منكَ، فلا تَتَعَاسَرْ علينا، فإنَّ هذا لا يخفى على أحدٍ من الجماعَةِ.

فَقَدْ بَانَ الآنَ أنَّ مركَّبَ اللَّفظِ لا يَحُوزُ مبسوطَ العقلِ؛ والمعاني معقولةٌ ولها اتِّصالٌ شديدٌ وبساطةٌ تامَّةٌ، وليسَ في قوَّةِ اللَّفظِ من أيِّ لغةٍ كَانَ أنْ يَملكَ ذلكَ المبسوطَ ويحيطَ به، ويَنصِبَ عليه سُورًا، ولا يَدَعُ شيئًا مِن داخلِه أنْ يخرجَ، ولا شيئًا من خارِجِه أنْ يَدخلَ، خَوْفًا من الاختلاط الجالبِ للفَسَادِ، أعني أنَّ ذلكَ يَخلِطُ الحقَّ بالباطلِ، وَيُشَبِّهُ الباطلَ بالحقِّ، وهذا الَّذي وَقَعَ الصَّحيحُ منه في الأوَّلِ قَبْلَ وضعِ المنطقِ، وقد عادَ ذلكَ الصَّحيحُ في الثَّاني بعدَ المنطقِ.

وأنتَ لو عرفتَ تصرُّفَ العلماءِ والفقهاءِ في مسائلهم، وَوَقَفْتَ على غَوْرهم في نظرِهم وغَوْصِهم في استنباطهم، وحُسْنِ تأويلهم لِمَا يَرِدُ عليهم، وسَعةِ تشقيقهم للوجوه المحتمَلَةِ والكناياتِ المفيدَةِ والجهاتِ القريبَةِ والبعيدَةِ، لحقَّرْتَ نفسَكَ، وازدريتَ أصحابَكَ، ولَكانَ ما ذهبوا إليه وتابَعوا عليه أقلَّ في عَيْنِكَ من السُّهَا عِنْد القَمَرِ، وَمِنَ الْحَصَا عِنْدَ الْجَبَلِ.

أليسَ الكِنْديُّ وهو عَلَمٌ في أصحابكَ يقولُ في جواب مسألة (هذا من بابِ عدَّ). فَعَدَّ الوجوهَ بِحَسْبِ الاستطاعَةِ على طريقِ الإمكانِ من ناحيةِ الوَهْمِ بلا ترتيب، حَتَّى وَضَعُوا له مسائلَ من هذا الشَّكلِ وغالطوه بها وأرَوْه أنَّها من الفلسفةِ الدَّاخِلَةِ، فَذَهَبَ

عليه ذلكَ الوضعُ، فاعتقدَ فيه أنَّه صحيحٌ وهو مريضُ العقلِ فاسدُ المزاج حائلُ الغريزةِ مشوَّشُ اللُّبِّ.

قَالَوا له: أخبرنا عن اصطِكاكِ الأجرام، وتَضاغُط الأركانِ؟ هل يدخلُ في بابِ وجوبِ الإمكانِ؟ أو يخرجُ من بابِ الفُقْدانِ إلى ما يَخفَى عن الأذهانِ؟

وقَالَوا له أيضًا: ما نِسْبَةُ الحركات الطَّبيعيَّةِ إلى الصُّوَرِ الهَيُولانيَّةِ؟ وهل هي ملابسةٌ للكِيانِ في حدودِ النَّظَرِ والبيانِ، أو مزايلةٌ لَه مزايَلةً على غايةِ الإحكامِ؟

وقَالَوا له: ما تأثير فُقْدانِ الوجدانِ في عَدَمِ الإمكانِ عندَ امتناعِ الواجبِ من وجوبِهِ في ظاهرِ ما لا وجوبَ له لاستحالَتِهِ في إمكانِ أصْلِهِ؟ وعلى هذا فَقَدْ حُفِظَ جَوابُهُ عن جميعِ هذا على غايَةِ الرَّكاكَةِ والضَّعفِ والفَسَادِ والفَسَالَةِ والسُّخفِ. ولولا التَّوقِّي من التَّطويلِ لَسَرَدْتُ ذلكَ كُلَّهُ.

وَلَقَدْ مَرَّ بي في خَطِّهِ: التَّفاوتُ في تلاشي الأشياءِ غيرُ مُحاطٍ به، لأنَّهُ يلاقي الاختلافَ في الأصولِ والاتفاقَ في الفروعِ؛ وكلُّ ما يكونُ على هذا النَّهجِ فالنَّكِرةُ تُزحِمُ عليه المعرفةَ، والمعرفةُ تُناقِضُ النَّكِرةَ والمعرفة من بابِ الألْبِسةِ العاريةِ من ملابسِ الأسرارِ الإلهيَّةِ، لا من بابِ الإلهيَّةِ العارضَةِ في أحوالِ البَشَريَّةِ.

وَلَقَدْ حَدَّثَنا أصْحابُنَا الصَّابئونَ عنه بما يُضحِكُ الثَّكْلَى ويُشْمِتُ العَدُوَّ ويغُرُّ الصَّديقَ، وما وَرِثَ هذا كُلَّه إلا من بركاتِ يونانَ وفوائدِ الفَلْسَفَةِ والْمَنْطِقِ. وَنَسْألُ الله عِصْمَةً وتوفيقًا نَهْتَدِيْ بِهِمَا إلى القولِ الرَّاجعِ إلى التَّحصيلِ، والفعلِ الجاري على التَّعديلِ، إنَّهُ سميعٌ مجيبٌ.

قال أبو حيان: هذا آخرُ ما كتبتُ عن عليِّ بن عيسى الرُّمَّاني الشَّيخِ الصَّالحِ بإملائِهِ. وكانَ أبو سعيد قد رَوَى لُمَعا من هذه القِصَّةِ، وكان يقول: لم أحفظ عن نفسي كلَّ ما قلتُ، ولكن كَتَبَ ذلك القومُ الذين حضروا في ألواح كانت معهم ومحابر أيضًا، وقد اختل عليَّ كثيرٌ منه.

(٧)

في ما بين المنطق والنحو من المناسبة

قلتُ لأبي سليمان[١]: إني أجدُ بين المنطق والنحو مناسبةً غالبةً، ومشابهةً قريبةً، وعلى ذلك فما الفرق بينهما؟ وهل يتعاونان بالمناسبة؟ وهل يتفاوتان بالقرب منه؟

فقال: النحو منطق عربيٌّ، والمنطق نحو عقليٌّ، وجُلُّ نظرِ المنطقي في المعاني، وإن كان لا يجوز له الإخلال بالألفاظ التي هي كالحُلَل والمعارض، وجُلُّ نظر النحوي في الألفاظ، وإن كان لا يسوغ له الإخلال بالمعاني التي هي كالحقائق والجواهر؛ ألا ترى أن المنطقيَّ يقول بخبر وهو ينفعل، والنحوي فيما خلاه اللفظ؟ ونظائر هذا المثال شوائع ذوائع في عرض الفنين والنظرين، أعني المنطق والنحو، وكما أن التقصير في تحبير[٢] اللفظ ضارٌّ ونقصٌ وانحطاطٌ، فكذلك التقصير في تحرير المعنى ضار ونقص وانحطاط، وحد الإفهام والتفهم معروف، وحد البلاغة والخطابة موصوف، والحاجة إلى الإفهام والتفهم على عادة أهل اللغة، أشد من الحاجة إلى الخطابة والبلاغة، لأنها متقدمة بالطبع، والطبع أقربُ إلينا، والعقل أبعدُ عنَّا، والبديهةُ منوطةٌ بالحِس، وإنْ كانت معانة من وجهة الحس، وليس ينبغي أن يُكتفى بالإفهام كيف كان، وعلى أيِّ وجه وَقَع، فإنَّ الدينار قد يكون رديءَ ذهبٍ، وقد يكون رديءَ طبعٍ، وقد يكون فاسدَ

(١) هو أبو سليمان السجستاني أستاذ التوحيدي وقد سبق التعريف به.
(٢) تَحْبِيرُ الكَلَامِ: تَحْسِينُهُ ، تَزْيِينُهُ.

السَّكَّة، وقد يكون جيدَ الذهبِ عجيبَ الطبع حَسَنَ السكة، فالناقدُ الذي عليه المدار، وإليه العيار، يُبَهْرِجُهُ[1] مرة برداءة هذا، ومرة برداءة هذا، ويقبله مرة بحسن هذا، ومرة بحسن هذا.

والإفهامُ إفهامان: رديءٌ وجيدٌ، فالأول لسِفْلة الناس، لأن ذلك غايتهم وشبيه برُتبتهم في نقصهم، والثاني لسائر الناس، لأن ذلك جامع للمصالح والمنافع، فأما البلاغة فإنها زائدة على الأفهام الجيدة بالوزن والبناء، والسجع والتقفية، والحِلية الرائعة، وتخيُّر اللفظ، واختصار الزينة، بالرقة والجزالة والمتانة، وهذا الفنُّ لخاصَّة النفس، لأن القصدَ فيه الإطرابُ بعد الإفهام والتواصلُ إلى غاية ما في القلوب لذوي الفضل بتقويم البيان.

قلتُ له: فما النحو؟

فقال: على ما يحضرني في الساعة من رَسْمِه على غير تصفية حَدِّه وتنقيحه: إنه نظر في كلام العرب يعود بتحصيل ما تألَفُه وتعتادُه، أو تفرقه وتعَلَّلُ منه، أو تفرقه وتخليه، أو تأباه وتذهب عنه، وتستغني بغيره.

قلتُ: فما المنطقُ؟

قال: آلةٌ بها يقع الفصل والتمييز بين ما يقال: هو حق أو باطل، فيما يعتقد، وبين ما يقال: هو خير أو شر، فيما يفعل، وبين ما يقال: هو صدق أو كذب، فيما يطلق باللسان، وبين ما يقال: هو حسن أو قبيح بالفعل.

قلتُ: فهل يُعين أحدُهما صاحبَه؟

قال: نعم، وأي معونة إذا اجتمع المنطقُ العقليُّ والمنطقُ الحسي؟ فهو الغاية والكمال!

(١) بَهْرَجَ كَلامَهُ: زَيَّفَهُ بِحَيْثُ لاَ يُعَبِّرُ عَنِ الوَاقِعِ ، زَوّقَ كَلاَمَهُ.

قال: ويجب أنْ تعلم أنَّ فوائدَ النحو مقصورة على عادة العرب بالقصد الأول، قاصرة عن عادة غيرهم بالقصد الثاني. والمنطق مقصور على عادة جميع أهل العقل من أي جيل كانوا وبأي لغة أبانوا. إلا أنه يتعذر [وجود] أسماء عند قوم وتوجد عند قوم، فحينئذٍ الحال في التقصير يتورَّك على تعذر الأسماء أو على وضعها على الخلاف، إما بالتواطؤ والاصطلاح، وإما بالطبع والأسماع.

قال: وبالجملة، النحو يرتب اللفظ ترتيبًا يؤدي إلى الحق المعروف أو إلى العادة الجارية، والمنطق يرتب المعنى ترتيبًا يؤدي [إلى] الحق المعتَرف به من غير عادة سابقة. والشهادة في المنطق مأخوذة من العقل، والشهادة في النحو مأخوذة من العُرف، ودليلُ النحو طباعيٌّ، ودليل المنطق عقليٌّ. والنحو مقصور، والمنطق مبسوط. والنحو يتبع ما في طباع العرب، وقد يعتريه الاختلافُ، والمنطق يتبع ما في غرائز الناس، وهو مستمر على الائتلاف. والحاجة إلى النحو أكثر من الحاجة إلى المنطق، كما أنَّ الحاجة إلى الكلام في الجملة أكثر من الحاجة إلى البلاغة، لأن ذلك أول، وهذا ثان. والنحو أول مباحث الإنسان، والمنطق آخر مطالبه. وكل إنسان منطقيٌّ بالطبع الأول، ولكن يذهب عن استنباط ما عنده بالإهمال، وليس كل إنسان نحويًّا في الأصل. والخطأ في النحو يسمى لحنًا، والخطأ في المنطق يسمى إحالة. والنحو تحقيق المعنى باللفظ، والمنطق تحقيق المعنى بالعقل. وقد يزول اللفظُ إلى اللفظ، والمعنى بحاله لا يزول ولا يحول؛ فأما المعنى فإنَّه متى زال إلى معنى آخر تغيَّر المعقول ورجع إلى غير ما عُهِد في الأول. والنحو يدخل المنطق، ولكن مرتِّبًا له. والمنطق يدخل النحو، ولكن محقِّقًا له. وقد يُفهم بعض الأغراض وإن عَرِيَ لفظه من النحو، ولا يفهم شيء منها إذا عرى من العقل. فالعقل أشد انتظامًا للمنطق، والنحو أشد التحامًا بالطبع. والنحو شكل سمعيٌّ، والمنطق شيء عقليٌّ. وشهادة النحو طباعية، وشهادة المنطق عقلية. وما يُستعار للنحو من المنطق حتى يتقوم أكثر مما يُستعار من النحو للمنطق حتى

يصح ويستحكم. فالمنطق وزن لعيار العقل، والنحو كيلٌ بصاع اللفظ؛ ولهذا قيل في النحو الشذوذ والنادر، ورديء المنطق ما جرى مجراهما.

فهذا ما اسْتَدَفَّ[1] من قوله، وهو باب مفتوح يمكن أن يقال فيه من هذا الجنس ما يكون شاهدًا لما قال، والسلام.

❊ ❊ ❊

(١) استدفَّ الأَمرُ: استتبَّ واستقام.

(٨)

من محاورات السيرافي(*)

قَالَ أبو حيَّان في كتاب «محاضرات العلماء»:

وحضرتُ مجلسَ شيخِ الدَّهرِ، وقَرِيْعِ[١] العصرِ، العَدِيمِ الْمِثْلِ، المفقودِ الشَّكْلِ، أبي سعيد السِّيرافيِّ، وقد أقبلَ على الحسين بن مردويه الفارسي، يَشْرَحُ لهُ تَرْجَمَةَ «المدخلِ إلى كتابِ سيبويه» من تصنيفه، فقَالَ لَهُ: عَلِّقْ عليه، واصرفْ هِمَّتكَ إليهِ، فَإنَّكَ لا تُدْرِكُهُ إلَّا بِتَعَبِ الحواس، ولا تَتَصَوَّرُهُ إلَّا بالاعتزالِ عن النَّاس.

فقَالَ: أيَّد اللهُ القاضي، أنا مُؤْثِرٌ لذلكَ، ولكنَّ اختلالَ الأمرِ وقصورَ الحالِ يحولُ بيني وبينَ ما أُرِيْدُهُ.

فقَالَ لَهُ: أَلَكَ عِيالٌ؟

قَالَ: لا.

قَالَ: عليكَ ديونٌ؟

قَالَ: دُرَيْهِمَاتٌ.

(*) هذه المحاورات وإن كانت على لسان السيرافي، إلا أن من نقلها وصاغها لنا هو أبو حيان التوحيدي، ففيها فكره وأسلوبه وطريقته في النقل.

(١) القَرِيعُ : المُقارِعُ الذي يقارعك في الحرب: يضاربك، وفلانٌ قريعُ دَهْرِه: سيِّدُ دَهْره.

قَالَ: فأنتَ رَيِّحُ القلبِ، حَسَنُ الحالِ، ناعِمُ البالِ. اشتَغِلْ بالدَّرْسِ والمذاكرةِ، والسُّؤالِ والمناظرَةِ، واحْمدِ اللهَ تعالى على خِفَّةِ الحاذ[1]، وحسن الحال. وأنشده:

إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمَرْءِ مَالٌ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ طُرُقٌ يَسْعَى بِهُنَّ الوَلائِـــــدُ
وَكَانَ لَهُ خُبْزٌ وَمِلْحٌ فَفِيْهِمَـــــا لَهُ بُلْغَةٌ حَتَّى تَجِيءَ العَوَائِـــــدُ
وَهَلْ هِيَ إِلَّا جَوْعَةٌ إِنْ سَدَدْتَهـا فَكُلُّ طَعَامٍ بَيْنَ جَنْبَيْكَ وَاحِـــدُ

قَالَ: وكَانَ يقرأ على أبي سعيد السِّيرافيِّ «الكَامِلَ» للمبرِّدِ، فجاءه أبو أحمد بن مردك، وكَانَ هذا من (ساوة)، واستوطنَ بغدادَ وولد بها، وكَانَ له قُرْبٌ وَمَنْزِلَةٌ من أبي سعيد، يوجب حقَّهُ ويرعاه له.

فقَالَ: أَيُّهَا الشَّيخُ، عندي ابنةٌ بلَغَتْ حَدَّ التَّزويجِ، وَجَمَاعَةٌ من الغرباءِ والبغداديين يخطبونها، فَمَا تَرَى، وَمِمَّنْ أزَوِّجُها؟

فقَالَ: مِمَّن يخاف الله تعالى، وأكثرهم تقيةً وَخَشْيَةً منه، فإنَّ من يخاف الله إنْ أحبَّها بالغَ في إكرامها، وإنْ لم يحبها تَحَرَّجَ من ظُلْمِهَا. فاسْتَحْسَنَّا ذلك وأثبتناه.

ثُمَّ قَالَ: لا تنسبوا هذا إليَّ، وإنَّما هو قول الحسن[2].

قَالَ: وشبيهُ هذه الحكاية أنَّ رجلًا وَقَفَ على الحسن فقَالَ: علِّمني ما يُقَرِّبُني إلى الله تعالى وإلى النَّاسِ.

قَالَ: أمَّا ما يُقَرِّبُكَ إلى الله تعالى فمسألتُه، وأمَّا ما يُقَرِّبُكَ إلى النَّاس فَتَرْكُ مَسْأَلَتِهم.

وقَالَ: وتأخَّر بعضُ أصحابِهِ عن مجلسِهِ في يومِ السَّبتِ، وكَانَ يرعى حَقَّ أبيه فيه، لأَنَّه كَانَ وجيهًا شَريفًا، فلَّما كَانَ يومُ الأحدِ قَالَ له: ما الذي أخَّرَكَ؟

فأشارَ إلى شُرْبِ الدَّواءِ، ولأجْلِهِ تأخَّرَ عن المجلسِ، فأنْشَدَنَا:

(١) الحذذ: خفَّة الذَّنب واللحية، وفلان خفيف الحاذ: قليل المال والعيال.

(٢) يعني الحسن البصري.

لَنِعْمَ اليَوْمُ يَـوْمُ السَّبْتِ حَقًّـا لِصَيْدٍ إِنْ أَرَدْتَ بِلا افْتِـــرَاءِ
وَفِي الأَحَـدِ البِنَـــاءُ فَإِنَّ فِيْهِ تَبَدَّى اللهُ فِي خَلْقِ السَّمَـــاءِ
وَفِي الاثْنَيْنِ إِنْ سَافَرْتَ حَقًّـا يَكُوْنُ الأَوْبُ فِيْهِ بِالنَّمَـــاءِ
وَإِنْ تَرُم الْحِجَامَةَ فَالثُّـــلاثَا فَفِي سَاعَاتِهِ دَرْكُ الشِّفَـــاءِ
وَإِنْ شَـرِبَ امْرُءٌ يَوْمًـــا دَوَاءً فَنِعْمَ اليَوْمُ يَوْمُ الأَرْبِعَـــاءِ
وَفِي يَوْمِ الْخَمِيْسِ قَضَاءُ حَاجٍ فَفِيْهِ اللهُ آذَنَ بِالقَضَـــاءِ
وَيَوْمُ الْجُمْعَةِ التَّزْويـــجُ فِيْهِ وَلَذَّاتُ الرِّجَـــالِ مَعَ النِّسَـــاءِ

قَالَ: ولَمَّا قَبِلَ ابنُ معروف شَهَادَتَهُ، عاتَبَهُ على ذلكَ بعضُ المختصِّينَ بِهِ وقَالَ: أَيُّها الشَّيخُ، إنَّكَ إمامُ الوقتِ، وعَيْنُ الزَّمانِ، والمنظورُ إليه والصَّدرُ، وإذا حَضَرْتَ مَحْفَلًا كُنْتَ البدرَ، قد اشتهرَ ذِكْرُكَ في الأقطارِ والبلادِ، وانتشرَ عِلْمُكَ في كُلِّ محفلٍ ونادٍ، والألْسِنَةُ مُقِرَّةٌ بفضلكَ، فَمَا الذي حَمَلَكَ على الانقيادِ لابن معروف، واختلافكَ إلى مجلسِهِ، وَصِرْتَ تابعًا بَعْدَ أنْ كنتَ متبوعًا، وَمُؤْتَمِرًا بعدَ أنْ كنتَ آمرًا، وَضَعْتَ مِن قَدْرِكَ، وَضَيَّعْتَ كثيرًا من حُرْمَتِكَ، وأنزلتَ نفسكَ منزلةَ غيركَ، وما فكَّرتَ في عاقبةِ أمْرِكَ، ولا شَاورتَ أحدًا من صَحْبِكَ؟

فَقَالَ: اعلموا أنَّ هذا القاضي سَبَبُ اكتسابِ ذِكْرٍ جَميلٍ، وصِيْتٍ حَسَنٍ، وَمُبَاهَاةٍ وَمُنَافَسَةٍ لأقرانِهِ وإخوانِهِ، وَمَعَ ذلك له من السُّلطانُ مَنْزِلَةٌ، وبلغني أنَّهُ يستضيءُ بِرَأيِهِ، وَيَعُدُّهُ من جملَةِ ثقاتِهِ وأوليائِهِ، وعَرَّضَ بي، وصرَّحَ في الأمرِ مرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وثانيةً عَقْبَ أولى، فلم أجِبْ إليه، ولم أُسْلِسْ قيادي لَهُ، فَخِفْتُ مَعَ كثرةِ الخلافِ اعتمادي بِمَا أَسْتَضِرُّ به وينتفعُ به غيري. وإذا اتَّفقَ أمران، فاتِّباعُ ما هو أسلم جانبًا وأقلُّ غائلةً أولى. وقد كَانَ الآن ما كَانَ، والكلامُ فيه ضَرْبٌ من الْهَذَيَانِ.

فلمَّا كَانَ بعدَ هذا بأيَّام، وَرَدَ عليه مِنْ (آمدَ)[1] صاحبٌ لأبي العبَّاس بن ماهان بكتابٍ يهنِّئُهُ فيه بما تلبَّسَ به من العَدَالَةِ، وكَانَ الكتابُ يشتملُ عَلَى كَلِمَاتٍ وجيزةٍ، وألفاظٍ حسنةٍ، ومعانٍ منتقاةٍ. وكَانَ أبو العباس هذا من أصحاب أبي سعيد، وَمِمَّنْ لازَمَهُ سنين عدَّة، وعلَّقَ عنه- على ما ذَكَرَهُ الشَّاشي- زُهَاءَ عشرة آلاف وَرَقَةٍ من شرحِه لكتابِ سيبويه وغيره، دَرْسًا ومذاكرةً.

وكَانَتْ له أيضًا بضاعةٌ قَوِيَّةٌ في علمِ الْهَيْئَةِ، وَبَصَرٌ تامٌّ بِمَذْهَبِ الكوفيين في النَّحو، حتَّى ما كَانَ يُطاق. وكَانَ مَنْ أصدرَ الكتابَ على يَدِهِ رجلًا كرديًّا، عليه جُبَّةٌ ثقيلةٌ فَوْقَها صناعةٌ عظيمةٌ، قد أضرَّتْ به شمسُ الهواجرِ، ومقاساةُ السَّفرِ، وقَطْعُ الْمَهَامَةِ والمفاوزِ. وكَانَ الشَّيخُ يُبيِّنُ لبعضِ أصحابِهِ الفَرْقَ في قوله تعالى:

﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣].

والاحتجاجَ عَمَّنْ نَصَبَهُ وَرَفَعَهُ، والكُرْدِيُّ ما يَفْهَمُ منهُ القليلَ ولا الكثيرَ، ثُمَّ التفتَ إلى أبي سعيد وقَالَ: يا شيخُ، في أيِّ شيءٍ أنتَ؟ وفي ماذا تتكلَّم؟

فَقَالَ: أتكلَّمُ في شَيءٍ لا يعرِفُهُ كُلُّ أَحَدٍ، ولا يَتَصَوَّرُهُ كثيرٌ من النَّاسِ.

قَالَ: ففسِّرْهُ لي لَعَلِّي أفْهَمُهُ.

قَالَ: لا يكونُ ذلكَ أبدًا.

قَالَ: أنتَ عالمٌ، وَمَنِ اقْتَبَسَ مِنْكَ عِلمًا لَزِمَكَ الجوابُ.

فقَالَ له: عليكَ بِمَجْلِسٍ يَجْرِي فيه حديثُ الفَرْضِ والنَّفْلِ والسُّنَنِ، وظواهرِ أمر الشَّريعةِ؛ لِتَسْتَفِيدَ منه، وتنتفعَ به.

فَأَخَذَ الكرديُّ في المطاولة، وإيرادِ الْهَذَيَانِ ومَا لا محصولَ له. وسَكَتَ عنه أبو سعيد، وَصَمَتَ هو أيضًا. وَجَعَلَ أبو سعيد، على عادته، يُبَيِّنُ ويُوَضِّحُ وَيَتَكَلَّمُ، وَيَنْثُرُ

(١) آمد أو آميدا هي مدينة عتيقة تقع حيث موقع ديار بكر اليوم، في أقصى ما بين النهرين.

الدُّرَّ ولا يهدأ ولا يَفْتُرُ لِسانُهُ، ولا يجفُّ رِيْقُهُ. والكرديُّ مُلازِمُهُ، وكَانَ كالمتبرِّم به، والمسْتَثْقِلِ لجلوسِهِ وملازَمَتِهِ إيَّاه، إلى أنْ قَامَ وَمَضَى. ثُمَّ قَالَ أبو سعيد:

ما ظننتُ أنَّ ثقيلًا تَمَكَّنَ من أحدٍ تَمَكُّنَ هذا مِنَّا اليوم، وإنَّ أَلَمَ ثِقَلِهِ خَلَصَ إلى الرُّوحِ والبَدَنِ كَمَا خَلَصَ إليَّ، لَقَد هَمَمْتُ تَارةً بِضَرْبِهِ فقلتُ: رُبَّما ضَرَبَنِي أيضًا.

ثُمَّ هَمَمْتُ بالقيام فقلتُ: ضَرْبٌ من الخُرقِ[1].

ثُمَّ كِدْتُ أصيحُ فقلتُ: نَوْعٌ من الجنونِ.

ثُمَّ بقيتُ أدعو سرًّا، وأرغبُ إلى الله تعالى في صَرْفِهِ، فتفضَّلَ اللهُ الكريمُ عليَّ بذلكَ، وَمَعَ هذه الحالَةِ، لَمْ تَزَلْ أبياتُ محمد بن المرزبان تتردَّدُ بينَ لَهَاتِي ولِسَانِي.

فَقُلْنَا له: وما الأبياتُ؟ فقَالَ:

يَا شَقِيْقَ الرَّصَاصِ وَالْجَبَـــــــلِ ... وَقَرِيْعَ الأيَّـــــــامِ فِي الثِّقَلِ

أَرِحْ حَيَاتِـــــــي فَقَدْ هَجَمْتَ عَلَى ... نَفْسِي وَأَشْرَفْتَ بِي عَلَى أَجَلِـــــي

وَاللهِ لَوْ كُنْتَ وَالـــــــدًا حَدِبًـــا ... وَكُنْتَ تُحْيِي الأَمْـــوَاتَ فِي الْمَثَلِ

وَتَمْزُجُ الثَّلجَ فِي العِسَاسِ[2] لَدَى الـ ... ـــــقَيْظِ وَعِنْدَ الشِّتَاءِ بالعَسَـــلِ

رَحَلْتُ عَنْ ذَاكَ عِنْدَ آخِـــــــرِهِ ... وَاخْتَرْتُ أَلَّا أراكَ فِي الرَّحَـــــلِ

فَخُذْ طَرِيْفِي وَتَالـــــــدِي فَإِذَا ... لَمْ يَبْقَ شَيءٌ فَخُذْ إِذًا سَمَلَـــي[3]

وَارْحَلْ إِلَى الظُّلْمَةِ الَّتـــي ذُكِرَتْ ... مِنْ خَلْفِ قَافٍ يَا شَرَّ مُرْتَحِـــــلِ

قَالَ: وكَانَ قَدْ ظَهَرَ بالعراقِ رِجْلٌ من الْجَرَادِ[4]، فَأَضَرَّتْ بالزُّرُوعِ والأثمار، وَغَلَت الأسعارُ، وأَثَّرَ في أحوالِ النَّاسِ. فَحَضَرْنَا مجلسَ أبي سعيد السِّيرافيِّ، وكُلٌّ منَّا شَكَا

(١) الخرق: الجهل والحمق.

(٢) العِسَاس: جمع عس، وهو القدح يروي الثلاثة والأربعة.

(٣) السَّمَلُ: الخلق من الثياب، والجمع أسمال.

(٤) الرِّجْل من الجراد: السِّرْبُ العظيم منه.

حَالَهُ، وذَكَرَ خَلَّتَهُ[1]، وكَانَ فينا رَجُلٌ مُزارِعٌ، ذَكَرَ أَنَّهُ زَرَعَ بنواحي النَّهروانِ أربعةَ آلافِ جَريب[2] ملكًا وضمانًا وإجارةً رجاءَ الفائدةَ، وقد أتى عليهما الْجَرَادُ، وهَلَكَ ذلك الرَّجلُ لأجلِهِ.

ثُمَّ قَالَ أبو سعيد: لا يهولنَّكَ أمْرُها، فإنَّها جُنْدٌ من جنودِ اللهِ مأمورٌ. بَلَغَنَا أنَّ جَرادةً سَقَطَتْ بينَ يدي عبد الله بن عباس رضي الله عنه، فأخَذَهَا وَنَشَرَ جناحاها، وقَالَ: أتعلمونَ ما هوَ مكتوبٌ عليها؟

قَالُوا: لا.

قَالَ: مكتوبٌ عليها: أنا مُغَلِّي الأسعارِ، مَعَ تَدَفُّقِ الأنهارِ.

وأوردَ في ذِكْرِ الجرادِ مَا حيَّرَ النَّاظرينَ، ثُمَّ قَال: ومِن أحسنِ ما وُصِفَ بِهِ الجرادُ قولُ بعضِ الخطباءِ حَيْثُ يقولُ: إنَّ الله سبحانَهُ وَتَعَالى خَلَقَ خَلْقًا وَسَمَّاها جرادًا، وألْبَسَهَا أجلادًا، وجنَّدَها أجنادًا، وأدْمَجَهَا إدْمَاجًا، وكَساها مِن الوشي ديباجًا، وَجَعَلَ لها ذريَّةً وأزواجًا، إذا أقبلتْ خِلْتَها سَحابًا أو عَجَاجًا، وإذا أدبرتْ حَسِبْتَها قوافلَ وَحُجَّاجًا، مُزَخْرَفَةَ المقاديم، مُزَبْرَجَةَ المآخير، مُزَوَّقَةَ الأطرافِ، مُنْقَطِعَةَ الأخفاف، منمنمةَ الحواشي، منمَّقَةَ الغواشي. ذاتُ أرديةٍ مزعفرةٍ، وأكسيَةٍ مُعَصْفَرَةٍ، وأخفيةٍ مخطَّطة. معتدلةٌ قامَتُها، مؤتلفةٌ خِلْقَتُها، مختلفةٌ حيلتُها، موصولةُ المفاصلِ، مدرجةُ الحواصلِ، تَسْعَى وَتَحْتَالُ، وَتَمِيْسُ وَتَخْتَالُ، وَتَطُوْفُ وَتَجْتَالُ، فتباركَ خالِقُهَا، وتعالى رَازِقُها، من غيرِ حاجةٍ منه إليها، رَحْمَةً منه عليها، أوسعها رزقًا، وأتقنها خلقًا، وفَتَقَ منها رتقًا، ووشَّجَ أعراقَهَا، وألجمَ أعناقَهَا، وطوَّقَها أطواقَهَا، وقَسَمَ مَعَايِشَهَا وأرزاقَهَا، تَنْظُرُ شَزَرًا من ورائها، وَتَرْقُبُ النَّازلَ من سمائِهَا، وتحرسُ الدَّائرَ من حولها. سلاحُهَا

(١) الخَلَّةُ : الحاجةُ والفَقْر.

(٢) الجَريب أحد المقاييس الإسلامية القديمة، ويقد يستخدم مقياس طول ولكن الغالب عليه أنه مقياس سطح، فإن كان مقياس طول فإنه يعادل ألف قصبة، والتي تعادل ٦٩٦ ,٣ متر.

عَتِيْدٌ، وبأسُهَا شديدٌ، ومضرَّتُها تعديدٌ، تَدِبُّ على سِتٍّ وتطيرُ، فسبحانَ مَن خَلَقَها خَلْقًا عجيبًا، وجعلَ من كُلِّ شَجَرٍ نَصِيْبًا، وَجَعَلَ لها إدبارًا وإقبالًا، وطلبًا واحتيالًا، حتَّى دَبَّتْ وَدَرَجتْ، وَخَرَجَتْ وَدَخَلتْ، وَنَزَلَتْ وَعَرَجَتْ[1]، مَعَ المنظرِ الأنيقِ، والعَصَبِ الدَّقيقِ، والبَدَنِ الرَّقِيقِ ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾.

[لقمان: ١١].

ثُمَّ قَالَ: وماذا تقولونَ في طَيْرٍ إذا طارَ بَسَطَ، وإذا دَنَا مِنَ الأرضِ لَطَعَ[2]، رِجلاهُ كالْمِنْشَارِ، وعيناهُ كالزُّجاجِ. عَيْنُهُ في جَنْبِهِ، ورِجْلُهُ أطولُ من قامَتِهِ، ألا وهي الْجَرَادَةُ.

ثمَّ قَالَ: وأحَسْنُ منه: جِيْدُها كَجِيْدِ البَقَرِ، ورأسُها كَرَأسِ الفَرَسِ، وَقَرْنُها كَقَرْنِ الوَعْلِ[3]، ورِجْلُهَا كَرِجْلِ الْجَمَلِ، وبطنُها كَبَطْنِ الحيَّةِ، تطيرُ بأربعةِ أجنحةٍ، وتأكلُ بلسانِها، فتباركَ اللهُ ما أحسَنَهَا، وأحسنُ ما فيها أنَّها: طعامٌ طاهرٌ حيًّا وميِّتًا، نُقَّلٌ تُجْدِبُ أقوامًا وَتُخْصِبُ آخرين.

قَالَ: إنَّها إذا حَلَّتْ البَوَادِي والفيافي، ومواضعَ الرِّمالِ، فهي خَصْبٌ لهم وميرةٌ، وإذا حلَّتْ بِمَأوى الزَّرعِ والأشجارِ فَهِيَ تُجْدِبُ، لأنَّها تأتي على الشَّوكِ والشَّجرِ، والرَّطبِ واليابس، فلا تُبْقِي ولا تَذَرُ.

قَالَ: وقَالَ أيضًا في تضاعيفِ كَلامِهِ: خادِمُ الْمَلِكِ لا يتقدَّمُ في رضاه خُطوةً إلَّا استفادَ بِهَا قُدْمَةً وحَظْوَةً.

قَالَ: وما رأيتُ أحدًا من المشايخِ كَانَ أذْكَرَ لحالِ الشَّبابِ، وأكثرَ تأسُّفًا على ذَهَابِهِ منه، فإنَّهُ إذا رأى أحدًا من أقرانِهِ قد عالَجَهُ الشَّيبُ تَسَلَّى بِهِ، ولم يزلْ يسألُهُ عن حالِهِ، وكيفَ كَانَتْ في أيَّامِ الشَّبابِ وَزَمَنِ الصِّبا. وإذا ذَكَرَ بينَ يَدَيْهِ ما يَتَعَلَّقُ بالشَّيبِ

(١) عرج: ارتقين صعد.

(٢) لَطَعَ الرَّجُلُ: ضَرَبَ مُؤَخَّرَهُ بِرِجْلِهِ. لَطَعَ الشيء: لَحِسه.

(٣) الوعل: تيس الجبل.

والشَّبابِ، بَكَى وَجْدًا وَحَنَّ، وَشَكَا وَأَنَّ، وتذكَّرَ عهدَ الشَّبابِ. وكَانَ كثيرًا ما يُنْشِدُ مُقَطَّعاتِ محمود الورَّاق في الشَّيبِ ويبكي عليها. وأنشدَ يومًا:

فَإِنْ بَكَى الْمَشِيْبُ طرًّا عَلَيْنَـا ... وَوَلَّى بِالْبَشَاشَةِ وَالشَّبَـــابِ
فَإِنِّي لا أُعَاقِبُهُ بِشَـــــيءٍ ... يَكُوْنُ عَلَيَّ أَهْوَنَ مِنْ خِضَـــابِ
رَأَيْتُ بَأَنْ ذَاكَ وَذَا عَـــذَابٌ ... فَيَنْتَقِمُ العَذَابُ مِنَ العَـــذَابِ

قَالَ: وَأَنْشَدَنَا لمحمود الورَّاق في الشَّيبِ وعيناهُ تدمعان:

وَلَوْ أَنَّ دَارَ الشَّيبِ قَرَّتْ بِصَاحِـبٍ ... عَلَى ضِيْقِهَـــــا لَمْ نَبْغِ دَارًا بِدَارِهِ
وَلكنَّ هذا الشَّيْبَ لِلْمَـــوْتِ رَائِدٌ ... يُخَبِّرُنَا عَنْـــهُ بِقُـــــرْبِ مَزَارِهِ

قَالَ أبو حيَّانَ: وكَانَ أبو سعيد يُفْتِي عَلَى مذهبِ أبي حنيفة وينصرُهُ، فَجَرَى حديثُ تحليلِ النَّبيذِ عندَهُ، فقَالَ له بعضُ الخراسانيين: أَيُّها الشَّيخُ، دَعْنَا مِن حديثِ أبي حنيفة وقولِ الشَّافعي، ما تَرَى أنتَ في شُرْبِ النَّبيذِ والقَدْرِ الذي لا يسكرُ ويسكرُ؟

فقَالَ: أمَّا المذهبُ فمعروفٌ لا عدولَ عنهُ. وأمَّا الذي يقتضيْهِ الرَّأيُ وَيُوْجِبُهُ العقلُ، ويلزمُ من حيثُ الاحتياطِ، والأخذِ بالأحسنِ والأَوْلَى، فَتَرْكُهُ والعُدُولُ عنه.

فقَالَ له: بيِّن لنا، عافاك الله.

فقَالَ: اعلَمْ أنَّه لو كَانَ الْمُسْكِرُ حلالًا في كتابِ الله تعالى، وسنَّةِ رسولِهِ (صلى الله عليه وسلم)، لكَانَ يَجبُ على العاقلِ رَفْضُهُ وتَرْكُهُ، بِحُجَّةِ العقلِ والاستحسانِ. فإنَّ شارِبَهُ محمولٌ على كُلِّ مَعْصِيَةٍ، مدفوعٌ إلى كلِّ بَلِيَّةٍ، مذمومٌ عندَ كُلِّ ذي عقلٍ ومروءةٍ، يُحِيْلُهُ عن مراتبِ العُقَلاءِ والفُضَلاءِ والأُدبَاءِ، ويجعلُهُ من جُمْلَةِ السُّفهاءِ. ومع ذلكَ فيضرُّ بالدِّماغِ والعقلِ، والكَبِدِ والذِّهنِ، ويُوْلِدُ القُروحَ في الجوف، ويَسْلِبُ شَارِبَهُ ثَوْبَ الصَّلاحِ والمروءةِ والمهابَةِ، حتَّى يصيرَ بِمَنْزِلَةِ المخبِّطِ المخريقِ[1]

(١) المخريق من الخرق وهو: الحمق.

والْمُتَبَّج[1]، يقولُ بغيرِ فَهْم، ويأمرُ بغيرِ علم، ويضحكُ من غير عجب، ويبكي من غيرِ سببٍ، ويخضعُ لِعَدُوِّه، ويصولُ على وَلِيِّهِ، ويعطي من لا يستحِقُّ العَطِيَّةَ، ويمنعُ من يستوجبُ الصِّلَةَ، ويبذِّرُ في الموضعِ الذي يحتاجُ فيه أنْ يُمْسِكَ، ويُمْسِكُ في الموضعِ الذي يحتاجُ فيه أن يبذِّرَ، يصيرُ حامدًا ذامًّا، وأفعاله ملامًا، عبدُهُ لا يوقِّرُهُ، وأهلُهُ لا تُقَرِّبُهُ، وولده يهربُ منه، وأخوهُ يفزعُ عنه، يَتَمَرَّغُ في قَيْئِهِ، ويتقلَّبُ في سَلْحِهِ، ويبولُ في ثيابِه، وربَّما قَتَلَ قريْبَهُ، وَشَتَمَ نسيبَهُ، وطلَّقَ امرأتَهُ، وَكَسَرَ آلة البيتِ، ولَفَظَ بالخَنى، وقَالَ كلَّ غليظةٍ وفحشٍ، يدعو عليه جارُه، ويزري به أصحابُهُ. عند الله ملومٌ، وعندَ النَّاس مذمومٌ، وربَّما يستولي عليه في حال سُكْرِهِ مَخَايِلُ الهوم، فيبكي دمًا، ويشقُّ جيبه حزنًا، وينسى القريبَ، ويتذكَّرُ البعيدَ، والصُّبيانُ يضحكونَ منه، والنِّسوانُ يفتعلنَ النَّوادر عليه. ومَعَ ذلكَ فبعيدٌ من الله، قريبٌ من الشَّيطان. قد خالفَ الرَّحمنَ في طاعةِ الشَّيطانِ، وَتَمَكَّنَ من ناصِيَتِهِ، وزيَّنَ في عينيهِ إتيانَ الكبائرِ، وركوبَ الفواحشِ، واستحلالَ الحرامِ، وإضاعةَ الصَّلاةِ، والحِنْثَ في الأيمانِ، سوى ما حلَّ به عند الإفاقَةِ من النَّدامَةِ، ويستوجبُ من عذابِ الله يومَ القِيَامَةِ.

قَالَ الرَّجُلُ: والله إنَّ قولكَ ووصفَكَ لُهُ أَعْلَقُ بالقلبِ من كلِّ واضحٍ، وبرهانٍ لائحٍ، وحُجَّةٍ وأثرٍ، وقولٍ وخَبَرٍ.

فقَالَ له: لولا أنَّ ذهابَ الوقتِ لا عِوَضَ له، لاستدللتُ لكلِّ خَصْلَةٍ ذكرتُها، ولفظةٍ أوردتُها بآيةٍ من كتاب الله، أو خَبَرٍ مأثورٍ عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم). حتَّى قلتُ: إنَّ الألفاظَ مُشْتَقَّةٌ من ذاكَ مستنبطةٌ منه، ولكنَّ الأمر في هذا أَظْهَرُ وأشهَرُ، من أنْ يُبَيَّنَ ويُوَضَّحَ. ولأبي حنيفة مسائلُ لا أرتضيها له، وقد خالفه فيها أعيانُ أصحابِهِ، والنَّاقلةُ لمذهبِهِ، ولكنْ لكلِّ أريبٍ هفوةٌ، ولكلِّ جوادٍ كبوةٌ، والكلامُ إذا كَثُرَ لا يخلو الخطأ، والقولُ إذا تتابع لا يَعْرَى من التَّناقُضِ، والله المعينُ على أمْرِ الدُّنيا والدِّين.

(١) المتَّبَج: المخلِّط المضطرب.

قَالَ أبو حيَّان: قَالَ أبو سعيد: دخلتُ مسجدًا بباب الشَّام يومًا أنظرُ أبا المنصور العمري فرأيتُ عربيًّا قد استلقى ومِخْلاتُه[1] تحتَ رأسِه، وهو يَتَرَنَّمُ بهذه الأبياتِ بِحَلْقٍ أطيبَ ما يكون، وصَوْتٍ أندى ما يُسْمَعُ:

سَمَاءُ الْحُبِّ تَهْطِلُ بالصُّــدُودِ وَنَارُ الْحُبِّ تَحْرِقُ مِنْ بَعِيْــــدِ

وَعَيْنُ الْحُبِّ تَأتِــي بِالْمَنَايَــا فَتَغْرِسُهُ عَلَى قَلْــــبٍ عَمِيْــــدِ

وَأَوَّلُ مَنْ عَشِقْتُ عَشِقْتُ ظَبْيًا لَهُ فِي الصَّدْرِ قَلْبٌ مِنْ حَدِيْدِ

فَقُلْتُ لَهُ: أعِدْ الأبياتَ. فقَالَ لي: دَخَلْتَ عَلَيَّ وشَغَلْتَنِي عَمَّا كُنْتُ عليه. خلوتُ بنفسي في هذا المسجدِ أتمنَّى أماني دُوْنَها خَرْطُ القَتَادِ[2]، فَأَفْسَدْتَها عَلَيَّ. فَحَفِظْتُ الأبياتَ مِنْ قَوْلِه، وانصرفتُ وتركتُهُ.

قَالَ أبو حيَّان: وأنشدنا أبو سعيد السِّيرافي:

تَفَكَّرتُ فِي شَيْبِ الفَتَى وَشَبَابِــهِ فَأَيْقَنْتُ أَنَّ الْحَقَّ لِلشَّيْبِ وَاجِــــبُ

يُصَاحِبُنِي شَرْخُ الشَّبَابِ فَيَنْقَضِي وَشَيْبِي إلى حِيْنِ الْمَمَاتِ مُصَاحِــبُ

ثمَّ قَالَ: ما رأيتُ أحدًا كَانَ أحفظَ لِجَوَامِعِ الزُّهدِ نَظْمًا ونثرًا، وما وَرَدَ في الشَّيبِ والشَّبابِ، من شيخنا أبي سعيد. وذاك أنَّه كَانَ دَيِّنًا، وَرِعًا تَقِيًّا، زاهدًا عابدًا خاشعًا، له دأبٌ بالنَّهارِ من القراءةِ والخشوعِ، وَوِرْدٌ بالليلِ من القيامِ والخضوعِ، صامَ أربعينَ سَنَةً الدَّهرَ كُلَّهُ.

قَالَ: وقَالَ لي أبو إسحاق المدائني: ما قرأتُ عليه خَبَرًا ولا شيئًا قَطُّ فيه ذكرُ الموتِ والقَبْرِ، والبَعْثِ والنُّشورِ، والحسابِ والجنَّةِ والنَّارِ، والوعدِ والوعيدِ والعقابِ،

(١) المِخْلاَةُ: شبه كيس يجعل فيه الخَلَى ونحوُه، والخلى: الرَّطْبُ من النَّباتِ، واحِدَتُهُ: خَلاةٌ، أو كلُّ بَقْلَةٍ قَلَعْتَها. والمِخْلاَةُ: كيسٌ يحوِي لوازم ومُهِمَّات الجنديّ. والمخلاة: معروفة في العامية بأنَّها: ما يوضع فيه طعام الدَّابة ويعلق برقبتها.

(٢) مِن دونه خَرْطُ القتَاد: يُضرب للشيءِ لا يُنال إلا بمشقة عظيمة.

والمجازاةِ والثَّوابِ، والإنذارِ، والإعذارِ، وَذَمِّ الدُّنيا، وتَقَلُّبِهَا بأهلِهَا، وَتَغَيُّرِهَا على أبنائِهَا، إلا وَبَكَى منها، وَجَزِعَ عندها، وربَّما نَغَّصَ عليه يَوْمَهُ وليلَتَهُ، وامتنعَ من عاداتِهِ في الأكلِ والشُّرْبِ. وكَانَ يُنشِدُنَا ويوردُ علينا من أمثالِهِ ما كنَّا نستعينُ به ونستفيدُ منه، وما نجعلُهُ حَظَّ يومنا. ورأيته يومًا يُنْشِدُ ويَبْكِي:

حَنَى الدَّهْرُ مِنْ بَعْدِ اسْتِقَامَتِهِ ظَهْرِي ... وَأَفْضَى إِلَى تَنْغِيْصِ عَيْشِـــهِ عُمْرِي

وَدَبَّ البِلَى فِي كُلِّ عُضْوٍ وَمَفْصَـــلٍ ... وَمَنْ ذَا الذي يَبَقَى سَلِيْمًا عَلَى الدَّهْرِ؟

قَالَ: ووصَّى يومًا بعضَ أصحابِهِ وكَانَ يقرأ عليه شَرْحَ «الفصيح» لابن درستويه: كُنْ كما قَالَ الخليلُ بنُ أحمد: اجعلْ ما في كُتُبِكَ رَأْسَ مَالِكَ، وَمَا في صدركِ للتَّفَقُّهِ.

قَالَ: وأنشدنا:

وَذِي حِيْلَةٍ للشَّيْبِ ظَلَّ يَحُوْطـــُهُ ... يُقَرِّضُـــهُ[1] حِيْنًـــا وَحِيْنًـــا يُنَتِّفُ

وَمَا لَطُفَتْ للشَّيْبِ حِيْلَةُ عَالِـــمٍ ... مِنَ النَّاسِ إِلَّا حِيْلَةُ الشَّيْبِ أَلْطَـــفُ

قَالَ أبو حيَّان: شَكَا أبو الفتح القوَّاس إليه طولَ عطلَتِهِ، وكسادَ سوقِهِ، ووقوفَ أمرِهِ، وذهابَ مالِهِ، ورقَّةَ حالِهِ، وكثرةَ ديونِهِ وعيالِهِ، وتجلُّفَ[2] صبيانِهِ، وسُوءَ عشرَةِ أهلِهِ معَهُ، وقلَّةَ رضاهُمْ بِهِ، ومطالبتهم له بما لا يقومُ به، وأنَّهُ يَقَعُ ويَقُوْمُ، ويدخلُ كُلَّ مدخلٍ، حتَّى يحصِّلَ لنفسِهِ وعيالِهِ بعضَ كِفَايَتِهِم.

فقَالَ له: ثِقْ بالله خالقكَ، وكِلْ أمْرَكَ إلى رَازِقِكَ، وأقْلِلْ من شَغْبِكَ[3]، وأجملْ في طَلَبِكَ، واعلمْ أنَّك بمرأى من الله ومسمعٍ، قد تَكَفَّلَ برزقِكَ، فيأتيكَ من حيثُ لا تحتسبه، وضَمِنَ لكَ ولعيالِكَ قُوْتَهَمْ، فَيُدِرُّ عليكَ من حيثُ لا تَرْتَقِبُهُ، وعلى حَسْبِ

(١) يقرِّضه: يقطعه.

(٢) المجلَّف: الذي أتى عليه الدَّهر فأذهب ماله، وقد جَلَفَهُ الدَّهْرُ: ذَهَبَ بِمَالِهِ.

(٣) الشَّغْبُ، والشَّغَبُ، والتَّشْغِيبُ: تَهْيِيجُ الشَّرِّ وإثارته.

الثِّقَةِ بالله يكونُ حُسْنُ المعونَةِ، وبمقدارِ عُدُوْلِكَ عن الله إلى خلقِهِ يكونُ كَلُّ[1] المؤونةِ. وأنشدَ وذكَرَ أنَّه لبعض المحدثين:

يَا طَالِبَ الرِّزْقِ إنَّ الرَّزْقَ فِي طَلَبِكْ ... وَالرِّزْقُ يَأْتِي وَإِنْ أَقْلَلْتَ مِنْ تَعَبِكْ

لا يَمْلِكَنَّكَ لا حِرْصٌ وَلا تَعَبٌ ... فَيُسْلِمَاكَ وَلا تَدْرِي إلى عَطَبِكْ

إنْ تَخْفَ أَسْبَابُ هذا الرِّزْقِ عَنْكَ فَكَمْ ... لِلرِّزْقِ مِنْ سَبَبٍ يُغْنِيْكَ عَن سَبَبِكْ

بَلْ إنْ تَكُنْ فِي أَعَزِّ العِزِّ ذَا أَرَبٍ ... فَلا يَكُنْ زَادُ مَنْ لَمْ تَبْلُ مِن أَرَبِكْ

لا تَعْرِضَنَّ لِزَادٍ لَسْتَ تَمْلِكُهُ ... وَاقْنَعْ بِزَادِكَ أَوْ فَاصْبِرْ عَلَى سَغَبِكْ

وَلَسْتَ تَحْمُدُ أَنْ تُعْزَى إِلَى نَشَبٍ ... إذا عُزِيْتَ إِلَى بُخْلٍ عَلَى نَشَبِكْ

هَبْ جَاهِلَ القَوْمِ غَرَّتْهُ جَهَالَتُهُ ... أَلَسْتَ ذَا أَدَبٍ؟ فَاعْمَلْ عَلَى أَدَبِكْ

لا تَكْلَبَنَّ[2] عَلَى عِرْضِ الْكِرَامِ تَعِشْ ... وَالْكَلْبُ أَحْسَنُ حَالًا مِنْكَ فِي كَلَبِكْ

وَلا تُعِبْ عِرْضَ مَنْ في عِرْضِهِ جَرَبٌ ... إلَّا وأن تُوقِيَنَّ العِرضَ مِنْ جَرَبِكْ

وَإِنَّمَا النَّاسُ فِي الدُّنيا ذَوُو رُتَبٍ ... فَانْهَضْ إِلَى الرُّتْبَةِ العَلْيَاءِ مِن رُتَبِكْ

قَالَ أبو حيَّان: وكَانَ يختلفُ إلى مجلسِ أبي سعيد عليُّ بن المستنير، وكَانَ هذا ابن بنت قُطْرُبٍ، وكَانَ أبو سعيد يَعْرِفُ له تقدُّمَهُ على كثيرٍ من أصحابِهِ، وكَانَ يرجِعُ إلى وطأةِ خُلُقٍ، وحسنِ عشرةٍ، وحلاوةِ كلامٍ، وفقرٍ مُدْقِعٍ، وضُرٍّ ظاهرٍ، وحالةٍ سيِّئَةٍ، وأمرٍ مختلٍّ، ومعيشةٍ ضيِّقةٍ، وكثرةِ عيالٍ ومؤونةٍ مَعَ نشاطِ القلبِ، وَثَبَاتِ النَّفسِ، وطلاقَةِ الوجْهِ، وكثرةِ المرحِ، والطَّربِ والارتياحِ.

وقرأ يومًا على أبي سعيد ديوانَ المرقَّش وأخذَ خطَّهُ بذلكَ، وَعَجَّلَ الانصرافَ من عِنْدِهِ، فقَالَ له أبو سعيد: أينَ عَزَمْتَ؟

(١) الكَلُّ بالفتح: هي الضَّعف، وكَلُّ المؤنة: عبئُها أو ثقلها.

(٢) أي لا تلحَّ: مستعار من كلب الكلب إذا ضري وتعود عض الناس.

قَالَ: أذهبُ لأصلحَ أمرَ العيالِ، وأتمحَّلُ وأحتالُ.

فَدَعَا له بالرِّزقِ والسَّعَةِ والمعونَةِ والكفايَةِ. وهو مَعَ ذلكَ ضاحكُ السِّنِّ، قريرُ العينِ. فلمَّا انصرفَ قلنا له: هذا رجلٌ مع ما فيه لا يُعْرَفُ الحزنُ في وَجْهِهِ، ولا يشتدُّ همُّه، وَيَقْدِرُ على دفعِهِ.

فالتفتَ بعضُهم فقَالَ: أيُّها الشَّيخُ، وراءه حالٌ يخفيها عنَّا، ويطويها منَّا؟

قَالَ: ما أظنُّ الأمرَ على ذلكَ. لكنَّ الرَّجلَ عاقلٌ، والعاقلُ يعلو على هَمِّهِ وحُزنِهِ، فيقهرهما بعقلِهِ وعلمِهِ، والجاهلُ يشتدُّ همُّهُ وحزنُهُ، وَيُرَى ذلكَ في وجهِهِ، ولا يَقْدِرُ على دَفْعِهِ لِجَهْلِهِ. فاستحسنَّا ذلك وأثبتناه[1].

* * *

ونظيرُ خَبَرِ أبي سعيد مع مَتَّى، خبرُهُ أيضًا مع أبي الحسن العامري الفيلسوف النَّيسابوريِّ، ذكره أبو حيَّان أيضًا قَالَ:

لَمَّا وَرَدَ أبو الفتح بن العميد إلى بغدادَ، وأكرمَ العلماءَ استحضرهم إلى مجلسِهِ، وَوَصَلَ أبا سعيد السيرافي، وأبا الحسن علي بن عيسى الرُّمَّاني بمالٍ، كما ذكرنا في باب أبي الفتح علي بن محمد بن العميد.

قَالَ أبو حيَّان: انعقدَ المجلسُ في جمادي الأولى سنةَ أربعٍ وستين وثلاثمئة، وغَصَّ بأهلِهِ، فرأيتُ العامريَّ وقد انتدبَ فَسَأَلَ أبا سعيد السِّيرافي فقَالَ: ما طبيعةُ الباءِ من بسم الله؟

فَعَجِبَ النَّاس من هذه المطالبَةِ، ونزل بأبي سعيد ما كادَ به يُشَكُّ فيه، فأَنْطَقَهُ اللهُ بالسِّحرِ الحلالِ، وذلكَ أنَّه قَالَ: ما أحسنَ ما أدَّبنا به بعضُ الموفَّقين المتقدِّمين. فقَالَ:

(١) هنا ينتهي النص المنقول عن المحاضرات والذي نقله أيضًا ياقوت الحموي يليه المحاورة مع أبي الحسن العامري الفيلسوف النَّيسابوريِّ.

وَإِذَا خَطَبْتَ عَلَى الرِّجَالِ فَلا تَكُــنْ خَطِلَ الكَـلام تَقُوْلُـــهُ مُخْتَـــالا
وَاعْلَمْ بِأَنَّ مَعَ السُّكُوْتِ لَبَابَةٌ وَمِنَ التَّكلُّم مَا يَكُوْنُ خَبَـــالا

والله يا شيخُ، لعينُكَ أكبرُ من فِرَارِكَ[1]، ولمرآكَ أوفى من دِخلتكَ[2]، ولمنثوركَ أبينُ من منظومكَ، فما هذا الذي طوَّعـتَ لَهُ نفسُكَ، وسدَّدَ عليه رأيكَ؟ إنِّي أظنُّ أنَّ السَّلامَةَ بالسُّكوتِ تعافكُ، والغنيمةُ بالقَوْلِ تَرْغَبُ عنكَ، والله المستعان.

فَقَالَ ابن العميد، وقد أُعْجِبَ بما قَالَ أبو سعيد:

فَتًى كَانَ يَعْلُو مَفْرِقَ الْحَقِّ قَـــوْلُهُ إِذَا الْخُطَبَاءُ الصِّيْدُ عُضِّلَ قِيْلُهَـــا[3]
جَهِيْرٌ وَمُمْتدُّ العَنَانِ مُنَاقِـــــدٌ بَصِيْرٌ بِعَوْرَاتِ الكَلامِ خَبِيْرُهَـــــا

وقوله:

القَائِلُ القَوْلَ الرَّفِيْـــعَ الذِي يَمْرَعُ مِنْهُ البَلَدُ الْمَاحِـــــلُ

والتفتَ إلى العامري فقَالَ:

وَإِنَّ لِسَـــــانًا لَمْ يُعِنْـــهُ لُبَابُـــــهُ كَحَاطِبِ لَيْلٍ يَجْمَعُ الرَّذْلُ حَاطِبُهْ
وَذِي خَطَلٍ بِالْقَوْلِ يَحْسِـــــبُ أَنَّـهُ مُصِيْبٌ فَمَا يُلْمِمْ بِهِ فَهْوَ قَائِلُـــهْ
وَفِي الصَّمْتِ سِتْرٌ لِلْغَبِيِّ وَإِنَّمـــــا صَحِيْفَةُ لُبِّ الْمَرْءِ أَنْ يَتَكَلَّمَـــا
وَفِي الصَّمْتِ سِتْرٌ وَهْوَ أَوْلَى بِذِي الحجى إِذَا لَمْ يَكُنْ للنُّطْقِ وَجْهٌ وَمَذْهَـبُ

ثُمَّ أقبلَ على ابن فارس معلمه فقَالَ: لسنا من كلامِ أصحابِكَ في الفريضة.

قَالَ أبو حيَّان: فَلَمَّا خَرَجْنَا قلتُ لأبي سعيد: أرأيت أَيُّهَا الشَّيخُ ما كَانَ من هذا الرَّجُلِ الخطيرِ عندنا، الكبيرِ في أنفسنا؟

(١) أي عندما تُجَرَّب تبدو أقل مما يشاع عنك ويظهر عليك.
(٢) الدِّخلة بكسر الدال: باطن الأمر.
(٣) الأَصْيَدُ: المائل العنق الذي لايستطيع الالتفات من داء .والأَصْيَدُ المتكبّر المزهوُّ بنفسه . عضل قيلها: صعب وتعذر فهمه.

قَالَ: ما دُهيت قطُّ بمثل ما دُهيت به اليوم، لَقَد جرى بيني وبين أبي بشر صاحب «شرح كتاب المنطق» سنة عشرين وثلاثمئة، في مجلس أبي جعفر بن الفرات مناظرة، كَانَتْ أشْوَسَ[1]، وأشَرسَ منها.

* * *

(١) أشوس: صيغة مبالغة من (شوس)، أي أكثر جرأة.

(٩)

مقتطفات من رسالة أبي حيان في تقريظ الجاحظ

أوَّلًا: من ترجمة الدِّينوري:

قَالَ أَبُو حَيَّانَ في «كِتَابِ تَقْرِيظِ الجَاحِظِ»: ومن خطِّه الَّذي لا أرتابُ فيه نقلتُ، قال: قلتُ لأبي محمَّد الأندلسيِّ[١]، يعني عبد الله بنَ حَمُّودٍ الزُّبيديَّ، وكان من غُررِ أصحاب السِّيرافيِّ- وله في هذا الكتاب ذكرٌ-: قد اختلفت أصحابُنا في مجلس أبي سعيدٍ السِّيرافيِّ، في بلاغة الجاحظ، وأبي حنيفة[٢] صاحبِ النَّبات، ووقع الرِّضا بحكمك، فما قولك؟ فقال: أَنَا أَحْقِرُ نَفْسِي[٣] عَنِ الحُكْمِ لَهُمَا وعليهما. فقال: لا بدَّ من قولٍ. قال: أبو حنيفة أكثر نَدَارَةً[٤]، وأبو عثمان أكثر حلاوةً، ومعاني أبي عثمان

(١) هو أبو محمد عبد الله بن حمود الزبيدي الأندلسي. قال الصفدي في الوافي: كان من فرسان النحو واللغة والشعر، وكان مغرمًا بكلام الجاحظ. ذكره أبو حيان كثيرًا في المقابسات لأنه كان من أصحاب أبي سليمان المنطقي.

(٢) هو أحمد بن داود بن ونند أبو حنيفة الدينوري: أخذ عن البصريين والكوفيين، وأكثر أخذِه عن ابن السكيت، وكان نحويًّا لغويًّا مهندسًا منجمًا حاسبًا، كما يقول عنه ياقوت الحموي في معجم الأدباء، راويةً ثقةً فيما يرويه ويحكيه، مات في جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين ومائتين. من كتبه «كتاب النبات» وكتاب «الأنواء» اللذان ذكرهما أبو حيان هنا.

(٣) أي إنِّي أقلُّ شأنًا منهما للحكم فيهما، أو لست أهلًا للموازنة بينهما.

(٤) أي ذكرًا للنَّوادر. وفي معجم البلدان (أكثر بداوة).

لائطةٌ بالنَّفس، سهلةٌ في السَّمع، ولفظُ أبي حنيفة أعذب وأغرب، وأدخل في أساليب العرب.

قال أبو حيَّان: وَالَّذي أَقولُ، وَأَعْتَقِدُ، وَآخُذُ بِهِ، وَأَسْتَهامُ[1] عَلَيهِ، أَنّي لَمْ أَجِدْ في جَميعِ مَنْ تَقَدَّمَ وَتَأَخَّرَ ثَلاثَةً لَو اجْتَمَعَ الثَّقَلانُ[2] عَلَى تَقْريظِهِم، وَمَدْحِهِم، وَنشْرِ فَضَائِلِهِم؛ في أَخْلَاقِهِم، وَعِلْمِهِم، وَمُصَنَّفَاتِهِم وَرَسَائِلِهِم، مَدَى الدُّنيا إِلى أَنْ يَأْذَنَ اللهُ بِزَوَالِهَا، لَمَا بَلَغوا آخِرَ مَا يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُم.

أَحَدُهُم هذا الشَّيخُ الَّذي أَنْشَأنَا لَهُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ، وَبِسَبَبِهِ جُشِّمْنَا هَذِهِ الكُلْفَةَ، أَعْني أَبَا عُثْمَانَ عَمْرَ بْنَ بَحْرٍ.

والثَّاني: أَبُو حنيفة أَحمدُ بنُ داود الدِّينَوَرِيُّ، فإنَّه من نَوَادِرِ الرِّجالِ، جَمَعَ بين حِكْمَةِ الفلاسفةِ، وبيانِ العَرَبِ، له في كلِّ فَنٍّ سَاقٌ وَقَدَمٌ، ورُوَاءٌ[3] وحُكْمٌ، وهذا كلامه في «الأَنوَاءِ» يدلُّ على حظٍّ وافرٍ من علم النُّجوم، وأسرار الفَلَكِ، فأَمَّا كتابه في النَّبات فكلامه فيه، في عُرُوضِ كلامٍ أبدى بَدَوِيٍّ، وعلى طِبَاعِ أفصحِ عَرَبيٍّ، وَلَقَدْ قيلَ لِي: إنَّ له في القرآن كِتَابًا، يَبْلُغُ ثلاثةَ عشر مجلَّدًا، ما رأيته، وإنَّهُ ما سُبق إلى ذلك النَّمط، هذا مع وَرَعِهِ وزُهْدِهِ، وجلالة قدره، وقد وَقَفَ الْمُوَفَّقُ[4] عليه، وسأله وتَحَفَّى به.

والثَّالث: أَبُو زَيْدٍ أَحْمَدُ بْنُ سَهْلٍ الْبَلْخِيُّ. فإنَّهُ لم يَتَقَدَّمْ له شَبيهٌ في الأَعْصُرِ الأُوَلِ، ولا يُظَنُّ أَنَّهُ يُوجَدُ له نظيرٌ في مستأنَف الدَّهر، وَمَنْ تصَفَّحَ كَلَامَهُ في «كتاب أقسام العلوم»، وفي «كتاب أخلاق الأمم»، وفي «كتاب نظم القرآن»، وفي «كتاب اختيار

(١) أَسْتَهامُ عَلَيهِ: أقترع عليه.

(٢) الثقلان: الإنس والجنُّ.

(٣) الرُّوَاءُ: حُسن المنظر في البهاء والجمال.

(٤) الموفق: هو أبو أحمد طلحة بن المتوكل على الله الخليفة العباسي ببغداد. توفي سنة ٢٧٨هـ.

السِّير»، وفي رسائله إلى إخوانه، وجَوَابِهِ عَمَّا يُسْأَلُ عنهُ، وَيُبْدَهُ[1] به، عَلِمَ أَنَّه بحر البحور، وأَنَّه عالم العلماء، وما رُئِيَ في النَّاس من جَمَعَ بين الحكمة والشَّريعة سواه، وإنَّ القول فيه لَكَثيرٌ، ولو تناصرت[2] إلينا أخبَارُهُمَا، لَكُنَّا نحبُّ أن نفردَ لكلٍّ واحدٍ منهما تقريظًا مقصورًا عليه، وكتابًا منسوبًا إليه، كما فعلت بأبي عثمان.

* * *

ثانيًا: من ترجمة الجاحظ:

قالَ أبو حيَّان في كتابِ التَّقريظ، ومن خَطِّهِ نقلتُ[3]:

وَحَدَّثَنا أبو دُلَف[4] الكاتب قال: صُدِّرَ الجاحظُ في ديوان الرَّسائل أيَّام المأمون ثلاثة أيَّام ثُمَّ إنَّه استعفى فأُعفي.

وكان سهل بن هارون[5] يقول: إنْ ثَبَتَ الجاحظ في هذا الدِّيوان أفل نجم الكُتَّاب.

قال أبو عبد الله المرزباني[6]: حدَّث إسحاق الموصلي[7] وأبو العيناء[8] قال:

(١) يبده به أي: يُفاجئ به، من بده بالسؤال إذا فوجئ به.

(٢) تناصرت: نصر بعضها بعضًا، وتناصرت أخبارهما أو الأخبار شدَّت أزر بعضها بعضًا ونصرته صدقًا وقوَّة، فتطمئن بذلك النَّفس إلى صحَّتها وصدقها.

(٣) الناقل هنا ياقوت الحموي وذكر هذا الكلام عند ترجمته للجاحظ (٦/ ٢١٠٣).

(٤) سبق الترجمة له.

(٥) سهل بن هارون: هو أبو عمر سهل بن هارون بن راهيون الدستميساني، كاتب بليغ، ومصنف معروف، كلفه المأمون بخزانة بيت الحكمة.

(٦) هو: أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني، أصله من خراسان كان من الأدباء الإخباريين المصنفين، وله كتب كثيرة في الأدب والتاريخ. توفي سنة ٣٧٨ هـ.

(٧) إسحاق الموصلي: هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن ماهان التميمي بالولاء، المعروف بابن النَّديم الموصلي، اشتهر بمنادمته الخلفاء، وهو من العلماء باللغة والأشعار وأخبار الشعراء، توفي نحو ٢٥٦هـ.

(٨) أبو العيناء: هو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن خلاد الهاشمي، ولد سنة ١٩١هـ. إخباريٌّ أديبٌ شاعرٌ صاحبُ نوادر. توفي سنة ٢٨٣هـ.

كنتُ عِنْدَ أحمد بن أبي دؤاد[1] بعد قتل ابن الزيات[2] فَجِيء بالجاحظ مقيَّدًا وكان من أصحاب ابن الزيات وفي ناحيته، فلما نَظَرَ إليه قال:

- والله ما علمتك إلا متناسيًا للنِّعمة، كفورًا للصَّنيعة، معدِّدًا للمساوئ، وما فُتَّني باستصلاحي لك. ولكنَّ الأيَّام لا تصلحُ منكَ لِفَسَادِ طَوِيَّتِكَ، ورداءة داخلتك، وسوء اختيارك، وتغالب طبعك.

فقال له الجاحظ: خفِّض عليك -أيَّدَكَ الله- فوالله لأَنْ يكون لك الأمر عليَّ خيرٌ من أن يكون لي عليك، ولأن أُسِيءُ وتحسنُ أحسنُ عَنْكَ من أن أحسنَ فَتُسِيء، وأن تعفو عَنِّي في حالِ قدرتكَ أجمل من الانتقام منِّي.

فقال له ابن أبي دؤاد: قبَّحَكَ اللهُ، ما علمتك إلا كثيرَ تزويقِ الكلام، وقد جعلت ثيابك أمام قلبك، ثمَّ اصطفيت فيه النِّفاق والكفر. ما تأويل هذه الآية؟

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

قَالَ: تِلاوَتُهَا تَأويلُهَا -أعزَّ الله القاضي.

فَقَالَ: جيئوا بِحَدَّادٍ.

فَقَالَ: -أعزَّ الله القاضي- لِيَفُكَّ عَنِّي أو ليزيدني؟

فَقَالَ: بَلْ لِيَفُكَّ عنك.

فَجِيءَ بالحدَّاد، فَغَمَزَهُ بعضُ أهلِ المجلسِ أن يعنِّفَ بِساقِ الجاحظ، ويطيلَ أمره قليلًا، فَلَطَمَهُ الجاحظُ وقالَ:

---

(١) أحمد بن أبي دؤاد: هو أبو عبد الله الإيادي القاضي أحمد بن أبي دؤاد، أصله من قنسرين، معتزلي، نشأ بالشام وعلى علمائها، برع في الفقه وعلم الكلام، قصد بغداد فحظي بالمكانة الرفيعة عند الخلفاء: المأمون والمعتصم والواثق، تولى المظالم والقضاء وقضاء القضاة، اشتهر بالمروءة وفصاحة اللسان والاعتداد بالانتماء للعروبة، توفي سنة ٢٤٠هـ.

(٢) هو الوزير الأديب أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن الزيات. كان وزيرًا للمعتصم وللواثق العباسيين. وكان عالمًا باللغة والنحو والأدب، وكان شاعرًا مُجيدًا لا يقاس به أحد من الكتاب، وكذلك كان كاتبًا مترسِّلاً بليغًا حسن اللفظ إذا تكلم وإذا كتب. قتله المتوكِّل سنة ٢٣٣ هـ.

- اعملْ عَمَلَ شَهْرٍ في يوم، وعَمَلَ يوم في ساعةٍ، وَعَمَلَ سَاعَةٍ في لَحْظَةٍ، فإنَّ الضَّررَ على ساقي، وليسَ بجذعٍ ولا ساجة[1].

فَضَحِكَ ابن أبي دؤاد وأهلُ المجلسِ منه. وقال ابن أبي دؤاد لِمحمَّد بن منصور، وكان حاضرًا:

- أَنَا أَثِقُ بِظُرْفِهِ ولا أَثِقُ بِدِيْنِهِ.

ثُمَّ قالَ: يا غلام، صِرْ به إلى الحمَّامِ وأَمِطْ عنه الأذى، واحملْ إليه تَخْتَ ثيابٍ[2] وطويلةً[3] وَخُفًّا.

فَلَبِسَ ذلكَ ثُمَّ أتاه، فَتَصَدَّرَ في مجلسه، ثُمَّ أقبلَ عليه وقال:

- هاتِ الآنَ حديثكَ يا أبا عثمان...

ومن شِعْرِ الجاحظ في ابن أبي دؤاد:

وَعَويصٍ مِنَ الأُمُـوْرِ بَهِيْـــمٍ ... غَامِضُ الشَّخْصِ مُظْلِمٌ مَسْتُورُ

قَدْ تَسَنَّمْتَ مَا تَوَعَّـــرَ مِنْـهُ ... بِلِسَـــانٍ يَزِينُهُ التَّحْبِيْـــرُ

مِثْلُ وَشْيِ البُرُوْدِ هَلَّلَهُ النَّســـ ... ـجُ وَعِنْدَ الحِجَاجِ دُرٌّ نَثِيْـــرُ

حَسَنُ الصَّمْتِ وَالْمَقَاطِعِ إِمَّـــا ... نَصَتَ القَوْمُ وَالْحَدِيْـــثُ يَدُوْرُ

ثُمَّ مِنْ بَعْدُ لَحْظَةٌ تُوْرِثُ اليُسْـ ... ـرَ وعِرْضٌ مُهَذَّبٌ مَوْفُـــورُ

وَكَتَبَ الجاحظ إلى أحمد بن أبي دؤاد:

لَا تَرَانِي وَإِنْ تَطَاوَلْتَ عَمْـدًا ... بَيْنَ صَفَّيْهِـــمُ وَأَنْتَ تَسِيْرُ

كُلُّهُمْ فَاضِـــلٌ عَلَيَّ بِمَالٍ ... وَلِسَانِـــي يَزِينُهُ التَّحْبِيْـــرُ

(١) الساج: الخشب مطلقًا، والساجة: الخشبة المنحوتة المهيأة.

(٢) تخت الثياب: خزانة الثياب.

(٣) الطويلة: صفة للقلنسوة.

فَإِذَا ضَمَّنَا الْحَدِيْـــثُ وَبَيْتٌ وَكَأَنِّي عَلَى الْجَمِيْـــعُ أَمِيْـرُ
رُبَّ خَصْمٍ أَرَقُّ مِنْ كُـلِّ رُوحٍ وَلِفَرْطِ الذَّكَا يَكَـــادُ يَطِيْـــرُ
فَإِذَا رَامَ غَايَتِي فَهْوَ كَـابٍ[1] وَعَلَى الْبُعْدِ كَوْكَبٌ مَبْهُـورُ[2]

وَحَدَّثَ أبو العيناء عن إبراهيم بن رباح قالَ: أتاني جَمَاعةٌ من الشُّعراء كُلُّ واحدٍ منهم يدَّعي أنَّه مَدَحَنِي بِهذِهِ الأبيات وأَجزيه عليها:

بَدَا حِيْنَ أَثْرَى بإِخْوَانِـــــهِ فَفَلَّلَ عَنْهُـمْ شَبَـاةَ العَـــدَمْ
وَذَكَّرَهُ الدَّهرُ صَرْفَ الزَّمَـــانِ فَبَادَرَ قَبْلَ انْتِقَـــالِ النِّعَـــمْ
فَتًى خَصَّهُ اللهُ بِالْمَكْرُمَـــاتِ فَمَازَجَ مِنْهُ الْحَيَـــا بِالْكَـــرَمْ
وَلَا يَنْكُتُ الأَرْض عِنْدَ السُّؤَالِ لِيَقْطَعَ زُوَّارَهُ عَـــنْ نَعَـــمْ

ويقالُ إنَّ الجاحظَ مَدَح بِهذِهِ الأبياتِ أحمد بن أبي دؤاد، وإبراهيم بن رباح، ومحمد بن الجهم[3].

وَحَدَّثَ إبراهيم بن رباح قالَ: مَدَحَنِي حمدان بن أبان اللاحِقيُّ وَذَكَرَ مِثْلَ ما مَضَى، وقال في آخره:

إنَّ مادِحَكَ -أعزَّك الله- يَجِدُ مقالًا، والجاحظ يَمْلأ عينيه مِنِّي ولا يستحي[4].

(١) كبا الشَّخصُ أو الحيوانُ: سقَط على وجهه، عَثَر وكبا لونُ الصبح : أظلم.
(٢) المبهور: الذي غلب النور بصره، وكذلك الكوكب المبهور: الذي طغا على نوره نور غيره من الكواكب.
(٣) محمد بن الجهم: هو أبو عبد الله السمري محمد بن الجهم الكاتب، وهو محدث ثقة من رواة السِّند، ولد سنة ١٨٨هـ ، وتوفي سنة ٢٧٧هـ.
(٤) يقول محقق (معجم البلدان): في القصة اختصار أخل بمعناها، ولتصويب ذلك اقول: توالى الشعراء كل منهم يدعي تلك الأبيات ويمدح بها إبراهيم بن رباح وبينهم اللاحقي، ثم كان آخر من دخل عليه الجاحظ ومدحه وأعطاه عليها مالًا، ثم إن إبراهيم كان ذات يوم عند أبي دؤادن فدخل الجاحظ وقال ابن أبي دؤاد لإبراهيم بن رباح: ياأبا إسحاق، قد امتُدحت بأشعار كثيرة ما سمعت بشيء وقع في قلبي وقبلته نفسي مثل أبيات مدحني بها أبو عثمان بَدَا حِيْنَ أَثْرَى بإِخْوَانِهِ قال إبراهيم: وجد- أيدك الله- مقالًا فقال. وظل الجاحظ ساكتًا، وعجب إبراهيم من الجاحظ كيف لا يستحي من مدح ابن أبي دؤاد بقصيدة كان قد مدح بها إبراهيم.

قال: وحدَّث يموت بن المزرَّع[1] قال: هَجَا خالي أبو عثمان الجاحظُ الجمَّازَ بأبياتٍ منها:

نَسَبُ الجمَّازُ مَقْصُـو رٌ إِلَيْهِ مُنْتَهَـــــاهُ
تَنْتَهِي الأَحْسَابُ بِالنَّـا سِ ولا تَعْدُو قَفَـــاهُ

فَكَتَبَ إليه الجمَّازُ:

يَا فَتًى نَفْسُهُ إِلَى الـــ ـكُفْرِ بالله تَائِقَـــهْ
لَكَ فِي الفَضْلِ والتَّزَهـ ـهد والنُّســكِ سَابِقَـهْ

ومن هِجَاءِ الجمَّازِ للجاحظ قوله:

قَالَ عَمْرٌو مُفَاخِـرًا نَحْنُ قَوْمٌ مِنَ العَـرَبِ
قُلْتُ فِي طَاعَةٍ لِرَبْـ ـبِكَ أَبْلَيْتَ ذَا النَّسَـبِ

وَحدَّثَ أبو العيناء محمد بن القاسم قال: كان لي صديقٌ فجاءني يومًا فقال لي: أريدُ الخروجَ إلى فلان العامل، وأحببتُ أن يكونَ معي إليه وسيلةٌ، وقد سألتُ: مَنْ صديقُه؟ فقيلَ لي: أبو عثمان الجاحظ، وهو صديقُك، وأحبُّ أن تأخذَ لي كتابه إليه بالعناية.

قالَ: فَصِرْتُ إلى الجاحظ فقلتُ له: جِئْتُكَ مسلِّمًا، وقاضيًا للحقِّ، ولي حاجةٌ لبعضِ أصدقائي وهي كذا وكذا.

قال: لا تشغلنا السَّاعَةَ عن المحادثة وتعرف أخبارنا، إذا كان قد غدٍ وَجَّهْتُ إليك بالكتاب.

فلَّمَا كانَ مِنْ غَدٍ وَجَّه إليَّ بالكتاب. فقلت لابني: وجِّه هذا الكتاب إلى فلان ففيه

(١) يموت بن المزرع: هو أبو بكر يموت بن المزرع العبدي البصري، شاعر أديب أخباري، اشتهر أيضًا بأنه صاحب نوادر، وهو ابن أخت الجاحظ، سمَّى نفسه محمدًا تحاشيًا للتطير باسمه، توفي سنة ٣٠٣هـ.

حاجته. فقال لي:

إنَّ أبا عثمان بعيدُ الغورِ، فينبغي أن نفضَّه وننظر ما فيه.

فَفَعَلَ، فإذا في الكتاب:

«هذَا الكتابُ مَعَ مَنْ لا أَعْرِفُهُ، وَقَدْ كَلَّمَنِي فِيْهِ مَنْ لا أُوْجِبُ حَقَّهُ، فَإِنْ قَضَيْتَ حَاجَتَهُ لَمْ أَحْمُدْكَ، وإنْ رَدَدْتَهُ لَمْ أَذْمُمْكَ».

فلَّما قرأتُ الكتابَ مضيتُ إلى الجاحظ من فوري، فقالَ: يا أبا عبد الله، قَدْ عَلِمْتُ أنَّك أنكرتَ ما في الكتاب.

فقلتُ: أو لَيْسَ مَوْضِعَ نكرةٍ؟

فقالَ: لا، هذه عَلامةٌ بيني وبين الرَّجل فيمن أعتني به.

فقلتُ: لا إله إلا الله، ما رأيت أحدًا بطبعك ولا ما جُبلت عليه مِنْ هذا الرَّجل.

علمت أنَّه لَمَّا قَرَأ الكتاب قالَ:

- أمُّ الجاحظ عَشْرَةُ آلافٍ في عَشْرَةِ آلافِ قَحْبَة، وأمُّ من يسأله حاجةً.

فقلتُ له: ما هذا؟ تشتمُ صديقَنا!

فقالَ: هذه علامتي في من أشكره.

فَضَحِكَ الجاحظ.

وَحدَّثَ الفتح بن خاقان[1]، وحدَّثَ الفتح المتوكل: فذلك كان سَبَبُ اتِّصالي به وإحضاري إلى مجلسه.

وحدَّثَ عبدُ الرَّحمن بن محمَّد الكاتب قال: كانَ الجاحظُ يَتَقَلَّدُ خِلافَةَ إبراهيم بن

(١) الفتح بن خاقان: هو الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوج، شاعر أديب فصيحٌ اشتهر بشجاعته، كان وزير المتوكل وصديقه، وتوفي معه في سنة واحدة هي ٢٤٧هـ.

العباس الصُّولي[1] على ديوان الرَّسائل، فَلَّما جاء إلى الدِّيوانِ جاءَه أبو العيناء، فَلَمَّا أرادَ الانصرافَ تَقَدَّمَ الجاحظُ إلى حاجبه إذا وَصَلَ الدِّهليزَ ألا يدعه يخرج، ولا يُمَكِّنَهُ من الرُّجوع إليه. فَخَرَجَ أبو العيناء ففعل به ذلك. فنادى بأعلى صوته: يا أبا عثمان، قد أريتنا قُدْرَتَكَ فأرنا عفوك.

ومن كلام الجاحظ: احذرْ من تأمن كأنَّك حَذِرٌ مِمَّن تَخاف.

وقال: أجمعَ النَّاسُ على أربع: أنَّه ليسَ في الدُّنيا أثقل من أعمى، ولا أبغضُ من أعور، ولا أخفُّ روحًا من أحْول، ولا أَقْوَدُ من أحدب.

قَالَ المرزباني: وروى أصحابنا أنَّ الجاحظ صار إلى منزلِ بعض إخوانِهِ فاستأذنَ عليه، فَخَرَجَ غُلامٌ عَجَمِيٌّ، فقال: من أنت؟

قال: الجاحظ.

فَدَخَلَ الغلامُ إلى صاحب الدَّار فقال: الجاحِدُ بالباب، وسمعها الجاحظ.

فقال صاحب الدَّار للغلام: اخرج فانظر من الرَّجل؟ فَخَرَجَ يستخبر عن اسمه، فقال: أنا الحدقيُّ[2]. فَدَخَلَ الغلامُ فقال: الحلقيُّ.

وسمعها الجاحظ فصاح به في الباب: رُدَّنا إلى الأوَّل، يريد أنْ قل له الجاحد مكان الجاحظ أسهل عليه من الحلقيِّ مكان الحدقيِّ، فَعَرَفَهُ الرَّجل فأوصله واعتذر إليه.

وقال الجاحظ: أربعةُ أشياء ممسوخةٌ: أكْلُ الأرزِّ البارد، و [.....][3] في الماء،

(١) إبراهيم بن العباس الصولي (١٧٦ هـ - ٢٤٣ هـ): إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول أبو إسحاق. كاتب العراق في عصره، أصله من خراسان، وكان جده محمد من رجال الدولة العباسية ودعاتها، ونشأ إبراهيم في بغداد فتأدب فيها، وقربه الخلفاء، فكان كاتبًا للمعتصم والواثق والمتوكل. وتنقل في الأعمال والدواوين إلى أن مات، متقلدًا ديوان الضياع والنفقان بسامراء. قال دعبل الشاعر: لو تكسب إبراهيم بن العباس بالشعر لتركنا في غير شيء. وكان يدعي خؤولة العباس بن الأحنف الشاعر. له (ديوان رسائل) و(ديوان شعر) و(كتاب الدولة) و(كتاب العطر) و(كتاب الطبخ).

(٢) يريد نتوء حدقتيه الذي جعله جاحظًا وبذلك سمي الجاحظ.

(٣) مكان المحذوف كلمة تدل على الجماع.

والقُبَلُ على النِّقابِ، والغناء من وراء ستارة.

وَقَالَ الجاحظ بِحَضرةِ السِّدريِّ: إذا كانت المرأة عاقلةً ظَريفةً كاملةً كانتْ قَحْبَةً.

فقال له السِّدري: وكيف؟

قال: لأنَّها تأخذُ الدَّراهمَ، وتَمَتَّعُ[٤] بالنَّاسِ والطِّيبِ، وتختارُ على عينها من تريدُ، والتَّوبةُ معروضة لها متى شاءت.

فقال له السِّدري: وكيف عقلُ العجوزِ[٥] حفظها الله؟

قالَ: هيَ أحمقُ النَّاسِ وأقلُّهُم عقلًا.

وحدَّثَ المبرِّدُ قال: قالَ الجاحظ: أتيتُ أبا الرَّبيعِ الغنوي أنا ورجلٌ من بني هاشم، فاستأذنَّا عليه، فَخَرَجَ إلينا وقال: خَرَجَ إليكم رَجُلٌ كريمٌ والله.

فقلت له: من خيرِ الخلقِ يا أبا الرَّبيع؟

فقال: النَّاس والله.

قلت: ومن خيرِ النَّاس؟

قال: العَرَبُ والله.

قلتُ: فمنْ خيرِ العَرَبِ؟

قلت: مضر والله.

قلتُ: فَمِنْ خيرِ مُضَر؟

قال: قيس والله.

قلت: وَمِنْ خيرِ قيس؟

قال: أعصُرُ والله.

(٤) تمتع: تتمتع.

(٥) يقصد أم الجاحظ.

قلت: فمن خير أعصُرَ؟

قال: غنيٌّ والله.

قلت: فمن خير غنيٍّ؟

قال: أنا والله.

قلت: فأنت خير الخلق؟

قال: أي والله.

قلتُ: أيسرُّك لو أنَّك تزوَّجت بنتَ يزيد بن المهلب؟

قال: والله لا أدنِّس كَرَمي بلؤمها.

قلت: على أنَّ لك الجنَّة.

ففكَّر ساعةً ثمَّ قال: على ألَّا تَلِدَ منِّي. وأنشد:

تَأبَى لأَعْصُرَ أعْرَاقٌ مُهَذَّبَـــةٌ مِنْ أنْ تُنَاسِبَ قَوْمًا غَيرَ أَكْفَـــاءِ

فَإِنْ يَكُنْ ذَاكَ حَتْمًا لا مَرَدَّ لَـهُ فَاذْكُرْ حُذَيفَ فإنِّي غَيْرُ أَبَّـــاءِ

قال حذيفة بن بكر، وإنَّما ذَكَرَهُ مِنْ بينِ الأشرافِ لأنَّه أقرَبَهُمْ إليه نَسَبًا، لأنَّ أعصرَ ابن سعد بن عيلان. وحذيفة ابن بدر بن عمرو بن جويه بن لوذان بن ثعلبة بن عدي بن فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان.

قال المرزباني: وحدَّثَ أبو الحسن الأنصاري، حَدَّثَنِي الجاحظُ قال: كانَ رَجُلٌ من أهلِ السَّوادِ تَشَيَّعَ، وكانَ ظريفًا، فقالَ ابنُ عمٍّ له:

بَلَغَنِي أَنَّك تُبْغِضُ عليًّا عليه السَّلام، ووالله لئنْ فعلتَ لَتَرِدَنَّ عليه الحوضَ يومَ القيامة، ولا يسقيك.

قالَ: والحوضُ في يَدِهِ يومَ القيامة؟

قال: نعم.

قال: وما لِهذَا الرَّجُلِ الفاضلِ يَقْتُلُ النَّاسَ في الدُّنيا بالسَّيفِ وفي الآخرةِ بالعطش؟!

فقيل له: أتقولُ هذا مَعَ تشيُّعك ودينكَ؟!

قال: والله لا تركتُ النَّادرة ولو قَتَلَتْنِي في الدُّنيا وأدخلتني النَّارَ في الآخرة.

وقال الجاحظ: ينبغي للكاتب أن يكون رقيقَ حواشي اللسان، عذبَ ينابيع البيانِ، إذا حاوَر سَدَّدَ سَهْمَ الصَّوابِ إلى غَرَضِ المعنى، لا يُكَلِّمُ العامَّة بكلامِ الخاصَّة، ولا الخاصَّة بكلام العامَّة.

وحدَّثَ المبرِّدُ قال: سمعتُ الجاحظَ يقول: كُلُّ عِشْقٍ يُسَمَّى حُبًّا، وليسَ كُلُّ حُبٍّ يُسَمَّى عِشْقًا، لأنَّ العشقَ اسمٌ لما فضل عن المحبَّة كما أنَّ السَّرَفَ اسمٌ لما جاوزَ الجودَ، والبخلَ اسمٌ لما قَصَرَ عن الاقتصادِ، والجبنُ اسمٌ لما فضل عن شِدَّةِ الاحتراسِ، والْهَوَجُ اسمٌ لما فضل عن الشَّجَاعَةِ.

وحدَّثَ ميمون بن هارون الكاتب عن الجاحظ قال: ذمَّ رجلٌ النَّبيذَ فقالَ: مِنْ مَثَالِبِهِ أنَّ صاحبه يَتَكَرَّهُ قبلَ شُرْبِهِ، ويكلحُ وَجْهُهُ عندَ شَمِّهِ، ويستنقصُ السَّاقي من قَدرِهِ، ويعتبر عليه مكياله، ويمزجه بالماء الذي هو ضدُّهُ ليخرجه عن معناه وحدِّه، ثُمَّ يكرعه على المبادرة ويعبُّهُ، ويتجرَّعه ولا يكادُ يُسِيْغُهُ، ليقلَّ مَكْثُهُ في فيه، وَيُسَرِّعُ على اللهواتِ اجتيازه، ثُمَّ لا يستوفي كُلِّيَّته وَيَرَى أن يجعلَ عاقبةَ الشَّرابِ فُضْلَةً في قَدَحِهِ، ويشاحُّ السَّاقي[1] في المناظرة على ما بقي منه عند ردِّه، ليصرفَ عن نفسه عادية شُرْبِهِ، ويذهبُ بساعته، ويُمْنَعُ من تَهَوُّعِهِ[2]، كما يُفْعَلُ بطبخِ الغاريقون[3] عند شربه وحبِّ الإسطيخمول[4].

(١) يشاح: يجادل ويماحك.

(٢) هَاعَ فلانٌ هَوْعًا، وهُوَاعًا: قاءَ من غير تكلُّف.

(٣) غاريقون هو جنس من الفطريات يتبع فصيلة الغاريقونية من رتبة الغاريقونيات ويضم أنواعًا صالحة للأكل وأخرى سامة.

(٤) لم أعثر على تعريف له.

وكان الجاحظ يقول: إنْ تهيَّأ لكَ في الشَّاعرِ أنَّ تبرَّه وترضيه وإلا فاقتله.

وقال أبو العيناء: أنشدني الجاحظ لنفسه:

يَطِيْبُ العَيْشُ أنْ تَلْقَى حَلِيْمًا ... غِذَاهُ العِلْمُ والرَّأيُ الْمُصِيْبُ

لِيَكْشِفَ عَنْكَ حِيْلةَ كُلِّ رَيْبٍ ... وَفَضْلُ العِلْمِ يَعْرِفُهُ الأرِيْبُ

سَقَامُ الْحِرْصِ لَيْسَ لَهُ شِفَاءٌ ... وَدَاءُ البُخْلِ لَيْسَ لَهُ طَبِيْبُ

وَأَنْشَدَ المبرِّدُ للجاحظ:

إنْ حَالَ لَوْنُ الرَّأسِ عَنْ لَوْنِه ... فَفِي خِضَابِ الرَّأسِ مُسْتَمْتَعُ

هَبْ مَنْ لَهُ شَيْبٌ لَهُ حِيْلَةٌ ... فَمَا الذِي يَحْتَالُهُ الأَصْلَعُ؟

وحدَّثَ أبو العيناء قال: قال الجاحظ: كان الأصمعيُّ منانيًّا[1]، فقالَ له العبَّاسُ بنُ رستم:

- لا والله، ولكن نذكرُ حينَ جلستَ إليه تَسْأَلُهُ، فَجَعَلَ يأخذُ نَعْلَهُ بيدِهِ وهي مخصوفةٌ بحديدٍ ويقول: نِعْمَ قِنَاعُ القَدَرِيِّ[2]، فَعَلِمْتَ أنَّه يَعنيكَ فَقُمتَ.

وحدَّثَ يحيى بن علي بن المنجِّم قال: قلت للجاحظ: مثلك في علمكَ ومقداركَ في الأدَبِ يقول في كتاب «البيان والتَّبيين»: «وَيُكْرَهُ للجاريةِ أن تَشَبَّه بالرِّجالِ في فَصَاحَتِهَا!» ألا تَرَى إلى قول مالك بن أسماء الفزاريِّ:

وَحَدِيْثٌ أَلَذُّهُ هُوَ مِمَّا ... يَنْعَتُ النَّاعِتُوْنَ يُوْزَنُ وَزْنَا

(١) المنانية أو المانوية: ديانة أو نزعة أسسها ماني (٢١٦هـ -٢٧٣م)، وزعم أن الوحي أتاه وهو في الثانية عشرة من عمره وكان في الأصل مجوسيًّا عارفًا بمذاهب القوم وكان يقول بنبوة المسيح ولا يقول بنبوة موسى فنحى منحىً بين المجوسية والمسيحية. وادَّعى أنَّه البارقليط أو المنقذ الذي بشر به المسيح عليه السلام في الإنجيل، ولذلك فإن مادة المانوية الأساسية هي المسيحية، ولكنها مطعمة بعناصر زرادشتية وبوذية.

(٢) القدرية: فرقة كلامية أسسها محمد بن خالد الجهمي وخلفه عيلان بن مروان الدمشقي، وقد سميت بذلك من باب التسمية بالضِّد، واستنادًا إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم): (القدرية مجوس هذه الأمَّة). ذلك أنَّ هذه الفرقة لم تقبل بالقدر فالإنسان حر وله القدرة على أعماله.

مَنْطِقٌ صَائِبٌ وَتَلْحَنُ أَحَيَـــا نًا وَخَيْرُ الْحَدِيْثِ مَا كَانَ لَحْنَـــا

فَتَرَاهُ مِنْ لَحْنِ الإعرابِ. وإنَّما وَصَفَهَا بالظَّرفِ والفِطْنَةِ، وإنَّما تَلحَن أي تُوْرِي في لَفْظِها عن أشياءَ وَتَتَنَكَّبُ ما قصدت له.

فقال: فطنتُ لذلك.

قلت: فَغَيِّرْهُ.

قال: فكيف لي بما سَارتْ به الرُّكبانُ؟ فهو في كتابه على خطئه.

قالَ أبو ملحم: أرادَ الفَزَاريُّ بقوله هذا أنَّ خَيرَ الحديثِ ما أومأتْ إليَّ به، وَوَرَّتْ عن الإفصاحِ به لئلا يعلمَه غيرنا، ومثله قولُ الكلابي:

لَقَدْ لَحَنْتُ لَكُمْ لِكَيْمَا تَفْهَمُوا وَوَحَيْتُ وَحْيًا لَيْسَ بِالْمُرْتَـــابِ

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

أي فيما يَتَوَخَّونه بينهم من النِّفَاقِ والطَّعْنِ.

قال المؤلِّف[١]: وقد انتصرَ أبو حيانَ لِهذا القولِ الذي اعترفَ الجاحظُ بِخَطئِهِ فيه، فقالَ: وعندي أنَّ المسألةَ مُحْتَمِلَةٌ للكلام، لأنَّ مقابل المنطقِ الصَّائب المنطق الملحون، واللحن من الغواني والفتياتِ غَيْرُ منكرٍ ولا مكروه، بل يستحبُّ ذلك، لأنَّه بالتَّأنيثِ أشبهُ، وللشَّهوةِ أدعى، وَمَعَ الغَزَلِ أجرى. والإعرابُ جِدٌّ. وليس الجِدُّ من التَّغزُّل والتَّعشُّق والتَّشاجي[٢] في شيء. وعلى مذهب علي بن يحيى أنَّ المنطق الصَّائب هو الكلامُ الصَّريحُ، وأنَّ اللحنَ هو التَّعريضُ، وأنَّها تعرفُ هذا وهذا، فَهَبْ أنَّ هذا المعنى مقبولٌ، لِمَ ينبغي أن يكونَ المعنى لهوجًا[٣] ومردودًا؟ وقد يجوز أن يكون مرادُ الشَّاعرِ ذاك، لأنَّ الشَّاعرَ يشعرُ بهذا كما يشعرُ بهذا.

(١) قوله: قال المؤلف: يعني التَّوحيدي من رسالته في تقريظ الجاحظ.

(٢) التشاجي: من تشاجت المرأة على زوجها تشاجيًا: إذا تمنعت وأظهرت الحزن.

(٣) لهوجًا: من لهوج الأمر: لم يحكمه ولم يبرمه. واللهوجة والتلهوج: التعجل والتسرع.

قال أبو العيناء: أنشدني الجاحظ لنفسه في إبراهيم بن رباح:

وَعَهْدِي بِهِ والله يُصْلِحُ أَمْـــرَهُ ... رَحِيْبُ مَجَالِ الرَّأيِ مُنْبَلِجُ الصَّـــدْرِ

فَلا جَعَلَ اللهُ الولايَةَ سُبَّـــــةً ... عَلَيْهِ فَإنِّي بِالْوِلايَـــــــةِ ذُو خُبْرِ

فَقَدْ جَهَدوهُ بالسُّؤالِ وَقَدْ أبَـــى ... بِهِ الْمَجْدُ إلَّا أنْ يَلِجَّ وَيَسْتَشْـــرِي

قالَ أبو على التَّنوخي: حدَّثني أبو الحسن أحمد بن محمد الأخباري قال: حدَّثني أبو الفرج الأصبهاني قال: أخبرني الحسن بن القاسم بن مهرويه قال: حدَّثني عبد الله ابن جعفر الوكيل قال: كنتُ يومًا عند إبراهيم بن المدبِّر فرأيتُ بَيْنَ يَدَيْهِ رُقعةً يُرَدِّدُ النَّظَرَ إليها فقلت له:

ما شأنُ هذه الرُّقعة؟ كأنَّه استعجم عليكَ شيءٌ منها؟

فقالَ: هذه رُقْعَةُ أبي عثمان الجاحظ، وكلامه يعجبني، وأنا أُرَدِّدُهُ على نفسي لِشِدَّة إعجابي.

فقلتُ: هَلْ يَجُوزُ أنْ أقرأها؟

قال: نعم.

وألقاها إليَّ، فإذا فيها:

مَا ضَاءَ لِي نَهَارٌ، ولا دَجَا لِي لَيْلٌ مُذْ فَارَقْتُكَ، إلَّا وَجَدْتُ الشَّوقَ إليكَ قَدْ حَزَّ فِي كَبِدِي، والأسَفُ عَلَيْكَ قَدْ أُسْقِطَ فِي يَدَي، والنِّزَاعُ نَحْوَكَ قَدْ خَانَ جَلَدي، فَأنَا بَيْنَ حَشًا خَفَّاقٍ وَدَمْعٍ مُهْرَاقٍ، وَنَفْسٍ قَدْ ذَبُلَتْ بِمَا تُجَاهِدُ، وَجَوَانِحَ قَدْ أُبْلِيَتْ بِمَا تُكَابِدُ، وَذَكَرْتُ وَأَنَا عَلى فِرَاشِ الارْتِمَاضِ مَمْنُوعٌ مِنْ لَذَّةِ الإغْمَاضِ قَوْلَ بَشَّارٍ:

إذَا هَتَفَ القُمْرِيُّ نَازَعَنِي الْهَـــوَى ... بِشَوْقٍ فَلَمْ أَمْلِكْ دُمُوْعِي مِنَ الوَجْـدِ

أَبَى اللهُ إلَّا أنْ يُفَرِّقَ بَيْنَنَـــــــا ... وَكُنَّا كَمَاءِ المُزْنِ شِيْبَ مَعَ الشَّهْـــدِ

لَقَدْ كَانَ مَا بَيْنِي زَمَانًا وَبَيْنَهَـــــا ... كَمَا كَانَ بَيْنَ الْمِسْكِ وَالعَنْبَـرِ والوَرْدِ

فانْتَظَمَ وَصْفُ ما كنَّا نَتَعَاشَرُ عليه، ونَجْرِي في مودَّتِنَا إليه في شِعْرِهِ هذا، وذكرتُ أيضًا ما رَمانِي به الدَّهرُ من فرقةِ أعزَّائي من إخواني الذين أنتَ أعزُّهم، ويمتحنني بمن نأى من أحبائي وخلصاني[1] الذين أنت أَحَبُّهُم وأخلصهم، ويُجَرِّعْنِيه من مَرَارَةِ نَأْيِهِم وبُعْدِ لقائهم، وسألتَ اللهَ أن يَقْرِنَ آياتِ سروري بالقربِ منك، ولِيْن عيشي بسرعةِ أوْبَتِكَ، وقلتُ أبياتًا تَقْصُرُ عَنْ صِفَةِ وَجْدِي، وَكُنْهِ ما يَتَضَمَّنُه قلبي، وهي:

بِخَدَّيَّ مِنْ قَطْرِ الدُّمُـــــوعِ نُدُوْبُ وَبِالقَلْبِ مِنِّي مُذْ نَأَيْتَ ذُنُـــــوْبُ
وَلِي نَفَسٌ حَتَّى الدُّجَى يُصْدِعُ الْحَشَا وَرَجْعُ حَنِيْنٍ لِلفُـــــؤَادِ مُذِيْـــبُ
وَلِي شَاهِدٌ مِنْ ضُرِّ نَفْسِي وَسُقْمِـــهِ يُخَبِّرُ عَنِّـــي أَنَّنِـــي لَكَئِيْـــبُ
كَأَنِّي لَمْ أُفْجَـــعْ بِفُرْقَـــةِ صَاحِبٍ وَلا غَابَ عَنْ عَيْنِي سِـــواكَ حَبِيْبُ

فقلتُ لابن المدبِّر: هذه رُقْعَةُ عاشقٍ لا رُقْعَةُ خادم، ورقعةُ غائبٍ لا رقعة حاضرٍ.

فَضَحِكَ وقال: نَحْنُ نَنْبَسِطُ مع أبي عثمان إلى ما هو أرقُّ من هذا وألطف. فأمَّا الغَيْبَةُ فإنَّنا نَجْتَمِعُ كُلَّ ثلاثة أيَّام، وَتَأَخَّرَ ذَلِكَ لِشُغْلٍ عَرَضَ لي، فخاطبني مخاطبة الغائب، وأقامَ انقطاعَ العادة مقام الغيبة.

قال الجاحظ: كان يأتيني رَجُلٌ فَصِيحٌ من العَجَم. قال: فقلتُ له: هذه الفَصَاحَةُ، وهذا البيانُ، لو ادَّعيت في قَبِيْلَةٍ من العَرَب لكنتَ لا تُنَازَعُ فيها. قال: فأجابني إلى ذلك، فجعلتُ أُحَفِّظُهُ نَسَبًا حتَّى حَفِظَهُ وهذَّه هذًّا[2]. فقلتُ له: الآن لا تَتِهْ عنَّا.

فقالَ: سُبْحَانَ الله. إنْ فَعَلْتُ ذلكَ فأَنَا إذنْ دَعِيٌّ.

ومن كلام الجاحظ يَصِفُ البلاغةَ: وَمَتَى شَاكَلَ -أبقاك الله- اللفظُ مَعْنَاهُ، وكان لذلك الحالِ وَفْقًا، ولذلك القَدْرِ لِفْقًا[3]، وخرج من سَمَاجَةِ الاستكراهِ، وَسَلِمَ مِنْ

(١) الخلصان: حبيب ، صاحب، للمفرد الجمع.
(٢) هَذَّ هَذًّا ، وهَذَذًا. هَذَّ الشيءَ: قَطَعَه سريعًا، هَذَّ القرآنَ: أَسرعَ في قراءَته، هَذَّ الحديث: سَرَدَه.
(٣) اللفق: أحد شقي الملاءة، والمراد التوافق بين اللفظ والمعنى توافق اللفق للفق.

فَسَادِ التَّكلُّف، كَانَ قَمِنًا بحُسْنِ الموقع، وحقيقًا بانتفاعِ المستمع، وَجَدِيرًا أنْ يَمْنَعَ جَانِبَهُ مِنْ تأويلِ الطَّاعنين، ويحمي عِرْضَهُ مِن اعتراضِ العائبين، ولا يزالُ القلوبُ بِهِ معمورةً، والصُّدورُ بِهِ مأهولةً، وَمَتَى كانَ اللفظُ أيضًا كريمًا في نفسه، مُتَخَيَّرًا مِنْ جِنْسِه، وكان سليمًا من الفُضُولِ، بَرِيئًا مِن التَّعقيدِ، حُبِّبَ إلى النُّفوس، واتَّصلَ بالأذهانِ، والْتَحَمَ بالعقولِ، وَهَشَّت إليه الأسماعُ، وارتاحتْ لَهْ القلوبُ، وَخَفَّ على أَلْسُنِ الرُّواةِ، وَشَاعَ في الآفاقِ ذكرُهُ، وَعَظُمَ في النَّفْسِ خَطَرُهُ، وَصَارَ ذلك مادَّةً للعالم الرَّئيسِ، وَرياضَةً للمتعلِّم الرَّيِّض[1]، وَمَنْ أعَارَهُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ نَصيبًا، وأفرغَ عليه من مَحَبَّتِهِ ذَنُوبًا[2]، حَبَّب إليه المعاني، وسَلُسَ له نظامُ اللفظِ، وكانَ قَدْ أغنى الْمُسْتَمِعَ عن كَدِّ التَّكلُّفِ، وأراحَ قارئَ الكتابِ من علاج التَّفهُّم.

* * *

مفاخر العرب ثلاثة:

وقرأتُ بخطِّ أبي حيَّان التَّوحيدي من كتابه الذي ألَّفه في تقريظ الجاحظ:

وحدَّثنا أبو سعيد السِّيرافيُّ- وهمُّكَ مِنْ رَجُلٍ، وناهيكَ من عالم، وشَرْعُكَ[3] من صَدوقٍ- قال: حَدَّثنا جماعةٌ من الصَّابئين الكتُّاب أنَّ ثابتَ بن قرَّة قالَ: ما أَحْسُدُ الأمَّةَ العَرَبِيَّةَ إلا على ثلاثة أنفس فإنَّه:

عُقِمَ النِّسَاءُ فَلا يَلِدْنَ شَبِيهَـــهُ إنَّ النِّسَـــــاءَ بِمِثْلِـــهِ عُقْـــمُ[4]

فقيلَ له: احصِ لَنَا هؤلاءِ الثَّلاثة.

قالَ: أوَّلُهُم عمرُ بن الخطاب في سياسته ويقظتِهِ وحذرِهِ، وتحفُّظِهِ ودينِهِ وتَقِيَّتِهِ،

(١) أمر رَيِّضٌ: لم يُحكَمْ تدبيرُهُ.

(٢) الذَّنُوبُ: الدَّلو العظيمة.

(٣) همك، وناهيك، وشرعك من رجل: كلها بمعنى: حسبك.

(٤) البيت لأبي دهبل الجمحي من قصيدة له يمدح فيها النبي صلى الله عليه وسلم. ويُروى: فما يلدن بدلًا من: فلا يلدن.

وجَزَالَتِه وبَذَالَتِه وَصَرَامَتِه وشَهَامَتِه، وقِيَامَتِه في صَغِيْرِ أمرِه وكبيرِه بِنَفسِه، مع قريحةٍ صافيةٍ، وعقلٍ وافرٍ، ولسانٍ عَضْبٍ[1]، وقلبٍ شديد، وطويَّةٍ مأمونةٍ، وعزيمةٍ مأمومةٍ، وَصَدْرٍ مُنْشَرِحٍ، وبالٍ مُنْفَسِحٍ، وبديهةٍ نَضَوحٍ[2]، ورويَّةٍ لَقُوحٍ[3]، وسِرٍّ طاهرٍ، وتوفيقٍ حاضرٍ، ورأيٍ مصيبٍ، وأمرٍ عجيبٍ، وشأنٍ غريبٍ، دَعَمَ الدِّين، وشيَّد بُنْيَانَهُ، وأحكمَ أساسَهُ، وَرَفَعَ أركانَهُ، وأوضح حُجَّتَهُ، وأنارَ برهانه. مَلَكَ في زيِّ مسكين، ما جنحَ في أمرٍ إلى ونًى[4]، ولا غضَّ طرفه عن خنًى. ظهارته كالبطانة، وبطانته كالظهارة، جَرَحَ وأسَا، ولانَ وَقَسَا، وَمَنَعَ وأعطى، واستخذى وسَطَا[5]، كلُّ ذلك في الله ولله. لَقَد كانَ مِنْ نَوَادِرِ الرِّجالِ.

قال: والثَّاني الحسنُ بن أبي الحسن البصريِّ، فَلَقَدْ كانَ من دراريِّ النُّجوم علمًا وتقوًى وزُهْدًا وَوَرعًا وعِفَّةً ورِقَّةً وتألُّـهًا وتنزُّهًا وفقهًا ومعرفةً وفصاحةً ونصاحةً[6]، مواعظه تَصِلُ إلى القلوبِ، وألفاظهُ تلتبسُ بالعقولِ، وما أعرفُ له ثانيًا، ولا قريبًا ولا مُدَانيًا، كانَ منظرهُ وَفْقَ مَخْبَرِه، وعلانيَّته في وزن سريرته، عاشَ سبعينَ سَنَةً لم يُقرف[7] بمقالةٍ شنعاء، ولم يُزنَّ[8] بِرِيْبَةٍ ولا فَحْشَاءَ. سليمُ الدِّينِ، نَقِيُّ الأديم، مَحْرُوسُ الحريم، يجمع مجلسه ضُروبَ النَّاسِ وأصنافَ اللباسِ لِمَا يوسعهم من بيانِه، ويفيضُ عليهم بافتنانِه؛ هذا يأخذ عنه الحديث، وهذا يُلَقَّنُ منه التَّأويل، وهذا يسمع الحلالَ والحرامَ، وهذا يَتَّبِعُ في كلامه العربيَّةَ، وهذا يُجَرِّدُ له المقالة، وهذا يحكي الفتيا، وهذا يَتَعَلَّمُ الْحُكْمَ والقضاءَ، وهذا يسمع الموعظة، وهو جميعُ هذا:

(١) عَضُبَ اللِّسانُ: صار حادًّا فهوعَضْبٌ.

(٢) النَّضوح: كثير النضح، والبديهة النضوح: الممتلئة المتقدة التي لا تعوذها الحيلة.

(٣) الناقة اللقوح: الحلوبة، والروية اللقوح الممتلئة الدرارة.

(٤) الونا: الضعف والفُترة (الفتور)، والتواني والونا: ضعف البدن، وقد ونى يني ونيًا وونًى فهو وانٍ: ضعف.

(٥) استخذى: خضع، وسطا: من السطوة.

(٦) النصاحة: من النصح والنصيحة. نَصَحَ لَهُ الوُدَّ: أَخْلَصَهُ، مَحَضَهُ إِيَّاهُ نَصَحَهُ الوُدَّ.

(٧) لم يُقرف (بالبناء للمجهول): لم يعب، ولم يتَّهم.

(٨) لم يُزنَّ (بالبناء للمجهول): لم يتهم بريبة أو فاحشة.

كالبحرِ العجاجِ تَدَفُّقًا، وكالسِّراجِ الوهَّاجِ تألُّقًا. ولا تنسَ مواقفه ومشاهده بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكرِ عندَ الأمراءِ وأشباهِ الأمراءِ بالكلامِ الفَصْلِ، واللفظِ الجزلِ، والصَّدرِ الرَّحبِ، والوجهِ الصَّلْبِ، واللسانِ العَضْبِ، كالحجَّاج وفلان وفلان من شارة الدِّين، وبهجة العلم، ورحمة التُّقى. لا تثنيه لائمةٌ في الله، ولا تذهله رائحةٌ[1] عن الله، يجلسُ تَحْتَ كُرْسِيِّهِ قُتَادَةُ صاحبُ التَّفسيرِ، وعمرو[2] وواصل[3] صاحبا الكلام، وابنُ أبي إسحق صاحب النَّحو، وفرقد السَّبخيُّ صاحب الدَّقائق، وأشباه هؤلاء ونظراؤهم. فمن ذا مثله، ومن يجري مجراه؟!

والثَّالثُ أبو عثمان الجاحظ، خَطِيبُ المسلمين، وشيخُ المتَكَلِّمينَ، ومِدْرَهُ[4] المتقدِّمينَ والمتأخِّرين، إن تَكلَّم حكى سحبان[5] في البلاغة، وإنْ نَاظَرَ ضَارَعَ النَّظام[6] في الْجِدَالِ، وإنْ جَدَّ خَرَجَ في مِسْكِ عامر بن عبد قيس[7]، وإنْ هَزَلَ زادَ على مزبد[8] حبيبِ القلوبِ ومزاجِ الأرواحِ. وشيخُ الأدَبِ ولِسَانُ العَرَبِ، كُتُبُهُ رياضٌ زاهرةٌ، ورسائِلهُ أفنانٌ مُثْمِرةٌ، ما نازعه منازعٌ إلا رَشَاه آنفًا، ولا تعرَّضَ له منقوصٌ

(١) الرَّائِحَةُ: الإبل أَوت بعد غروب الشمس إلى مُراحها، وهي نَقيض السارحة. أي لا تشغله الدنيا وأموالها عن ذكر الله.

(٢) هو عمرو بن عبيد، من أبرز شيوخ المعتزلة، اشتهر كثيرًا بزهده وتبحره في المسائل الدينية والأخلاقية. رفض الاسترزاق بالعلم، ولد سنة ٨٠هـ وتوفي سنة ١٤٤هـ.

(٣) هو واصل بن عطاء، اختلف مع أستاذه الحسن البصري في شأن مرتكب الكبيرة واعتزل بسببها حضور حلقته فقال الحسن: اعتزلنا واصل، فسمي أتباعه بالمعتزلة. توفي سنة ٣١١هـ.

(٤) المِدْرهُ: زعيم القوْم وخطيبهم المتكلِّم عنهم.

(٥) هو سحبان بن زفر بن إياس الوائلي، خطيب يضربُ به المثل في البيان والخطابة. أسلم في زمن النبي (صلى الله عليه وسلم) ولم يجتمع به، وأقام في دمشق وتوفي بها سنة ٥٤هـ.

(٦) هو إبراهيم بن سيار النظام، متكلم من أعلام المعتزلة وشيوخها، اشتهر بمنطقية تحليلاته وتأويلاته، انتقد آراء الفقهاء والجبرية والمرجئة، ورد على المانوية بكتاب، توفي سنة ٢٣١هـ.

(٧) هو عامر بن عبد قيس العبدي الزاهد، عرف بأنه عابد زمانه. روى الحديث عن عمر، توفي سنة ٩٧٠هـ.

(٨) هو أبو إسحاق مزبد المدني، اشتهر بنوادره المضحكة وبسرعة خاطره ولطيف مُلحه، له أخبارٌ كثيرةٌ في البخل فإنّه كان مبخلًا إلى الغاية، كثير من نوادره مذكورةٌ في: البيان والتّبيين، والحيوان، والبصائر والذخائر، وثمار القلوب.

إلا قدَّمَ له التَّواضعَ استبقاءً. الخلفاءُ تَعْرِفُهُ، والأمراءُ تصافيه وتنادمهُ، والعلماءُ تأخذ عنه، والخاصَّة تُسَلِّمُ له، والعامَّة تُحِبُّهُ. جَمَعَ بين اللسان والقَلَم، وبينَ الفطن والعلم، وبين الرَّأي والأدب، وبين النَّثر والنَّظْم، وبين الذَّكاءِ والفهم، طالَ عمره، وَفَشَتْ حِكْمَتُهُ، وظهرت خِلَّتُهُ، ووطئ الرِّجال عقبه[1]، وتهادوا أدبه، وافتخروا بالانتسابِ إليه، وَنَجَحُوا بالاقتداءِ به. لَقَد أوتِيَ الحكمة وفصلَ الخطاب.

هذا قولُ ثابت، وهو قول صابئٍ لا يَرَى للإسلام حُرْمَةً، ولا للمسلمينَ حقًّا، ولا يُوْجِبُ لأحدٍ منهم ذِمَامًا، قد انتقدَ هذا الانتقادَ، ونَظَرَ هذا النَّظرَ، وحَكَمَ هذا الْحُكْمَ، وأبصرَ الحقَّ بعينٍ لا غشاوةَ عليها من الهول، وَنَفَسٍ لا لَطَخَ[2] بها من التَّقليد، وعقلٍ ما تحيَّلَ بالعصبيَّة، ولسنا نجهلُ مع ذلك فَضْلَ غير هؤلاء من السَّلف الطَّاهر، والْخَلَف الصَّالح، ولكنَّا عَجِبْنَا فضلَ عَجَبٍ من رَجُلٍ ليس منَّا ولا من أهل ملَّتنا ولغتنا- ولعلَّه ما خبر عمر بن الخطَّاب كلَّ الخبرة، ولا استوعب كلَّ ما للحسن من المنقبة، ولا وقف على جميع ما لأبي عثمان من البيان والحكمة- يقول هذا القول، ويتعجَّبُ هذا العجبَ، وَيَحْسُدَ أمَّتنا بهم هذا الحسد، ويختم كلامه بأبي عثمان، ويصفه بما يأبى الطَّاعن عليه أن يكون له شيءٌ منه، ويغضبُ إذا ادَّعى ذلكَ له [وإنه] لَمُوْفِزٌ[3] عليه، هَل هذا إلا الجهل الذي يُرْحَمُ المبتلى به؟

* * *

قالَ أبو حيَّان: وحدَّثنا ابن مقسم- وقد طارَ ذِكْرُ الجاحظ لأبي هِفَّان[4]- قيلَ لأبي هِفَّانَ: لِمْ لا تهجو الجاحظ وقد نَدَّدَ بِكَ وأَخَذَ بِمَخْنَقِكَ؟

(١) وطئ الرجال عقبه: اقتدوا به واقتفوا أثره.

(٢) لَطَخ: وسخ، لوث، عيب.

(٣) لَمُوْفِزٌ أي: متهيئ للانقضاض عليه.

(٤) هو عبد الله بن أحمد بن حرب المهزومي العبدي البصري، نحوي لغوي، راوية للشعر عالم به ومصنف له. توفي سنة ٢٥٧هـ.

فقال: أَمِثْلِي يُخْدَعُ عن عقله، والله لو وَضَعَ رِسالَةً في أرنبةِ أنفي لما أمست إلا وبالصِّينِ شهرةً، ولو قلت فيه ألفَ بيت لما طَنَّ مِنْهَا بَيتٌ في ألفِ سَنَة.

قال أبو حيَّان: سَمِعْتُ أبا معمر الكاتب في ديوان بادوريا قال: كَتَبَ الفتحُ بنُ خاقان إلى الجاحظ كتابًا يقول في فصل منه: إنَّ أميرَ المؤمنين يجدُّ بك، ويهشُّ عند ذكرك، ولولا عظمتك في نفسه لِعِلْمِكَ ومَعْرِفَتِكَ، لَحالَ بينكَ وبينَ بُعْدِكَ عن مجلسِهِ، ولَغَصَبَكَ رأيكَ وتدبيركَ فيما أنتَ مشغولٌ به ومتوفِّرٌ عليه، وقد كان ألقى إليَّ من هذا عنوانه، فزدتكَ في نَفْسِهِ زيادةً كفَّ بها عن تَجْشِيْمِكَ، فاعرفْ لي هذه الحال، واعتقدْ هذه المنَّة [واعكف] على كتابِ الرَّدِّ على النَّصارى، وافرغْ منه وعجِّل به إليَّ، وكُنْ من حَدَا بِهِ عَلَى نَفْسِهِ، تُنَالُ مُشَاهَرَتُكَ وقد استطلقته لما مضى، واستسلفتُ لكَ لِسَنَةٍ كاملةٍ مستقبلةٍ، وهذا مِمَّا لم تَحْتَكِمْ به نفسك، وقد قرأت رسالتك في بصيرةِ غَنَّام، ولولا أنِّي أزيد في مَخِيلَتِكَ لعرَّفتك ما يعتريني عند قراءتها والسَّلام.

قال الجاحظُ: قلتُ للحزامي: قد رَضِيْتَ بقولِ النَّاسِ فيكَ: إنَّكَ بخيلٌ؟

قالَ: لا أعدمني اللهُ هذا الاسمَ. [قلت: وكيف؟] قال: لأنَّه لا يقالُ: فلانٌ بخيلٌ إلا وهو ذو مالٍ: فإذا سَلِمَ المالُ فادْعُنِي بأيِّ اسمٍ شئتَ.

قلتُ: ولا يقالُ سَخِيٌّ إلَّا وهو ذو مالٍ، فَقَدْ جَمَعَ هذا الاسمَ المالَ والحمدَ، وَجَمَعَ ذاكَ الاسمُ المالَ والذَّمَّ.

قال: بينهما فرقٌ.

قلت: هاته.

قال: في قولهم بخيلٌ تثبيتٌ لإقامةِ المالِ في مُلْكِه، واسمُ البخيلِ اسمٌ فيه حَزْمٌ وَذَمٌّ، واسمُ السَّخاءِ فيه تَضْييعٌ وَحَمْدٌ، والمالُ نافعٌ مُكرمٌ لأهله مُعزٌّ، والحمد ريحٌ[1]

(١) أي كالريح لا ثبات له ولا دوام.

وسُخْرِيةٌ، واستماعه ضعفٌ وفُسُولةٌ[1]، وما أقلَّ غناءَ الحمد عنه إذا جاع بطنه، وعريَ جَسَدُهُ، وشَمِتَ عدوُّه.

قال أبو حيَّان: وَمِنْ عَجِيبِ الحديثِ في كُتُبِهِ ما حدَّثنا به عليُّ بن عيسى النَّحوي الشَّيخُ الصالح، قال: سمعتُ ابن الأخشاد[2] شيخنا أبا بكر يقول: ذَكَرَ أبو عثمان في أوَّل «كِتَابِ الحيوان» أسماءَ كُتُبِهِ ليكونَ ذلكَ كالفهرستِ، وَمَرَّ بي في جملتها «الفرقُ بينَ النَّبي والمتنبِّئ»، وكتاب «دلائل النبوة»، وقد ذكرهما هكذا على التَّفرقة، وأعادَ ذكر الفرق في الجزء الرَّابع لشيءٍ دعاه إليه، فأحببتُ أن أرى الكتابين ولم أقدر إلَّا على واحدٍ منهما وهو كتاب «دلائل النُّبوة»، وربَّما لقب بالفرق خطأً، فَهَمَّني ذلك وساءني في سوء ظَفَرِي به، فلَّما شَخَصْتُ من مِصْرَ ودخلت مكَّة- حرسها الله تعالى- حاجًّا، أقمتُ مناديًا بعرفات ينادي- والنَّاس حضورٌ من الآفاق على اختلاف بلدانهم، وتنازحِ أوطانهم، وتباين قبائلهم، وأجناسهم من المشرق إلى المغرب، ومن مهبِّ الشَّمال إلى مهبِّ الجنوب، وهو المنظر الذي لا يشابهه منظرٌ:

- رَحِمَ اللهُ مَنْ دَلَّنا عَلَى ؟كِتَابِ الفَرْقِ بَيْنَ النَّبيِّ وَالْمُتَنَبِّئ» لأبي عثمانَ الْجَاحِظِ عَلَى أيِّ وَجْهٍ كَانَ.

قالَ: فَطَافَ المنادي في ترابيع عَرَفَاتَ وعادَ بالخيبة وقال: عجب النَّاسُ مِنِّي ولم يعرفوا هذا الكتاب ولا اعترفوا به.

قال ابن أخشاد: وإنَّما أردتُ بهذا أن أبلغ نفسي عذرَها.

---

(١) الفُسُولَةُ: الخسَّة والنَّذالة، والفَسْلُ: الذي لا مروءة له.

(٢) ابن الأخشاد ويقال له أيضًا ابن الإخشيد: هو أبو بكر بن علي بن بيغجور، العلامة الأستاذ شيخ المعتزلة. ولد نحو سنة ٢٧٠هـ. كان يدري الحديث ويرويه عن أبي مسلم الكجي وطبقته. ويحتج به في تواليفه وكان ذا تعبد وزهادة له قرية تقوم بأمره وكان يؤثر الطلبة. وله محاسن على بدعته وله تواليف في الفقه وفي النحو والكلام. وكان لا يفتر من العلم والعبادة. له كتاب (نقل القرآن) وكتاب (الإجماع) وكتاب (اختصار تفسير محمد بن جرير) وكتاب (المعونة في الأصول) وأشياء مفيدة. توفي في شعبان سنة ست وعشرين وثلاثمائة.

قال المؤلِّفُ[1]: وَحَسْبُكَ بها فضيلةً لأبي عثمان أن يكون مثل ابن الأخشاد- وهو هو في معرفة علوم الحكمة، وهو رأسٌ عظيمٌ من رؤوس المعتزلة- يُسْتَهَامُ بكتب الجاحظ حتَّى ينادي عليها بعرفات والبيت الحرام. وهذا الكتاب موجود في أيدي النَّاسِ اليوم لا تكادُ تَخْلُو خزانة منه. ولقد رأيت أنا منه نَحْوَ مِئَةِ نُسْخَةٍ أو أكثر.

❊ ❊ ❊

(١) لا يتضح هنا أي المؤلفين هو المقصود: أهو التَّوحيدي، مؤلف رسالة في تقريظ الجاحظ، أم هو ياقوت مؤلف معجم الأدباء والناقل عن التوحيدي.

(١٠)

رسالة إلى أبي الفتح بن العميد

اللهمَّ هَيِّئْ لي من أمرِي رَشَدًا، ووفِّقني لمرضاتِك أبدًا، ولا تجعل الحرمان عليَّ رصدًا[١].

أقولُ وخيرُ القولِ ما انْعَقَدَ بالصَّوابِ، وخيرُ الصَّوابِ ما تَضَمَّنَ الصِّدْقَ، وخيرُ الصِّدْقِ ما جَلَبَ النَّفْعَ، وأجلبُ النَّفعِ ما تَعَلَّقَ بالمزيد، وخيرُ المزيدِ ما بَدَا عن شُكر، وخيرُ الشُّكرِ ما بَدَا عن إخلاصٍ، وخيرُ الإخلاصِ ما نَشَأَ عن إتقان، وخيرُ الإتقان ما صَدَرَ عن توفيق.

لَمَّا رأيتُ شَبَابِيَ هَرِمًا بالفقرِ، وفقري غِنًى بالقَناعَةِ، وقناعتي عَجْزًا عند التَّحصيل، عَدَلتُ إلى الزَّمان أطلبُ إليه مكاني فيه، وموضعي منه، فرأيتُ طَرْفَهُ عنِّي نابيًا، وعِنانه عن رِضايَ منثنيًا، وجانِبَهُ في مرادي خشِنًا، وإنفاقي في أسبابه سيئًا، والشَّامتُ بي على الحَدَثَان مُتَماديًا، طَمِعْتُ في السُّكون تَجَلُّدًا، وانتحلتُ القناعةَ رياضةً، وتَألَّفتُ شاردَ حِرصي متوقِّفًا، وطويتُ مَنْشُورَ أمري متنزِّهًا، وجمعتُ شتيتَ رجائيَ ساليًا، وادَّرعتُ[٢] الصَّبرَ مستمرًّا، ولبستُ العفافَ محمودًا، واتَّخذتُ الانقباضَ صِناعةً، وقمتُ بالعلاءِ مجتهدًا.

(١) الرَّصَدُ: جمع راصد، وهو الرقيب.

(٢) تدرَّع بالصَّبر: احتمى به، وجعله يقيه من الضّعف في مواجهة الصِّعاب.

هذا بعد ان تَصَفَّحْتُ النَّاسَ فَوَجَدتُهم أَحَدَ رجُلين: رجلٌ إنْ نَطَقَ نَطَقَ عن غَيْظٍ ودِمْنَةٍ[١]، وإن سَكَتَ سَكَتَ عن ضِغْنٍ وإحْنَةٍ[٢]، ورَجُلٌ إن بَذَلَ كَدَّرَ بامتنانه بَذْلَه، وإن مَنَعَ حصَّنَ باحتياله بُخْلَه، فلم يَطُلْ دهري في أثنائه متبرِّمًا بطول الغربة، وشَظَفِ العيشِ، وكَلَبِ الزَّمانِ، وعَجَفِ المالِ، وجَفاء الأهل، وسوء الحال، وعادية[٣] العدوِّ، وكُسُوفٍ بالبال، مُتَحَرِّقًا من الحَنَقِ على لئيم لا أجدُ مُنْصَرَفًا عنه، متقطِّعًا من الشَّوقِ إلى كريمٍ لا أَجِدُ سبيلًا إليه، حَتَّى لاحَتْ لي غُرَّة الأستاذ فقلتُ:

حَلَّ بي الويلُ، وَسَالَ بي السَّيلُ، أينَ أنا عن مَلِكِ الدُّنيا، والفَلَكِ الدَّائرِ بالنُّعْمَى؟ أين أنا عن مشرقِ الخيرِ ومَغْرِبِ الجميل؟ أين أنا عن بَدْرِ البدور وَسَعْدِ السُّعود؟ أين أنا عمَّن يَرى البُخْلَ كُفرًا صريحًا، ويرى الإفضال دِيْنًا صحيحًا؟ أين أنا عن سماءٍ لا تفترُّ عن الْهَطَلانِ، وعن بَحْرٍ لا يقذفُ إلا باللؤلؤ والمرجان؟ أين أنا عن فضاءٍ لا يُشَقُّ غُبارُهُ، وعن حَرَمٍ لا يضامُ جوارُهُ؟ أين أنا عن منهلٍ لا صَدَرَ[٤] لفُرَّاطه[٥]، ولا مَنْعَ لوُرَّاده؟ أين أنا عن ذَوبٍ لا شَوبَ فيه، وعن صَدَدٍ[٦] لا حَدَدَ[٧] دونه. بَلَى! أين أنا عَمَّن هو بِنُبُوَّة الكَرَمِ، وإمامةِ الإفضال، وشريعةِ الجودِ، وخلافةِ البَذْلِ، وسياسة المجدِ. نَسِيمُهُ مَشِيمةُ البوارقِ، ونفسُه نفيسةُ الخلائق؟

أين أنا عن الباعِ الطَّويلِ، والأنفِ الأشمِّ، والْمَشْرَبِ العَذْبِ، والطَّريقِ الأَمَمِ[٨]؟

(١) الدِّمْنَةُ: الحقدُ القديم الدائم.

(٢) الإحنة: الحقد في الصدر.

(٣) العَادِيَةُ: الخيلُ المغيرَة.

(٤) الصَّدَرُ: الانصراف عن المكان أو الماء.

(٥) الفرَّاط: جمع فارط، والفارط هو الذي يسبق القوم إلى الماء.

(٦) الصَّدد: الناحية، والصَّدد: القُرب، والصَّدَدُ: القَصْدُ، والصَّدَدُ: ما استقبلك به، وهذا صدد هذا وبصدده وعلى صدده أي قبالته.

(٧) لا حَدَدَ عنه: لا مَنْعٌ ولا دفع.

(٨) الأَمَمُ اليسير القريب التناوُل، والأَمَمُ البَيِّن من الأُمور، والأَمَمُ الوسط.

لِمَ لا أقصدُ بلاده، لم لا أقتدحُ زِنَادَهُ، لِمَ لا أنتجعُ جنابه وأرعى مَرَادَه[1]. لِمَ لا أسكن رَبْعَه وأستدعي نفعَه؟ لِمَ لا أخطبُ جودَه وأعتصرُ عودَه؟ لِمَ لا أستمطرُ سَحابَهُ وأستسقي رَبَابَهُ[2]؟ لِمَ لا أستمنحُ نَيْلَهُ وأستسحبُ ذَيلَهُ؟

لِمَ لا أُحُجُّ كعبتَه وأستلمُ ركنَه؟ لِمَ لا أصلِّي إلى مقامه مؤتمًّا به؟ لِمَ لا أسبِّحُ بثنائه مُتَقَدِّسًا؟

لِم لا أحكِّمُ في حالي:

فتًى صِيغَ من ماء البشاشةِ وجهُـــهُ فَأَلْفَاظُهُ جُودٌ وأَنْفَاسُـــهُ مجـــدُ

لم لا أقصد:

فَتًى بَانَ للنَّـــاسِ في كفِّـــــهِ مِنَ الجـــودِ عينـان نضَّاخَتَـــان

لِمَ لا أمْتَرِي مَعْرُوفَ:

فَتًى لا يُبَالي أن يَكُونَ بجسْمِـــــهِ إذا نَالَ خِلَّاتِ الكِرَامِ شَحـــوبُ

لِمَ لا أمْدَحُ:

فَتًى يَشْتَري حُسنَ الثَّناء برُوحِـــهِ وَيَعْلَمُ أعقَـــابَ الحَدِيثِ تَـــدُومُ

نعم، لِمَ لا أنتهي في تَقْريظِ فَتًى لو كان مِنَ الملائكة لَكَانَ من المقرَّبينَ، ولو كانَ من الأنبياءِ لَكَانَ من المرسَلين، ولو كانَ من الخلفاءِ لَكَانَ نَعْتُهُ اللائذَ بالله، أو الْمُنْصِفَ في الله، أو المعتضدَ بالله، أو الْمُنْتَصِبَ لله، أو الغاضِبَ بِحَقِّ الله، أو المحيي لدين الله.

(١) المراد: المرعى، بل هو موضع الرود أو الرياد من رادت الإبل ترود رودًا وريادًا وروادانًا واسترادت أي: رعت واختلفت في المرعى مقبلة مدبرة.

(٢) ربابه: سحابه. المفرد ربابة.

أَيَّهَا الْمُنْتَجِعُ قَرْنَ كَلَئِهِ[١]، والْمُخْتَبِطُ[٢] وَرَقَ نِعْمَتِهِ، ارعَ عَرِيضَ البِطَانِ، مُتَفَيِّئًا بِظِلِّهِ، وكُلْ خَضْمًا[٣] ناعِمَ البالِ، مُتَعَوِّذًا بِعِزِّهِ، وعِشْ رَخِيَّ اللبَبِ[٤] معتصمًا بِحَبْلِهِ، ولُذْ بِذُرَاه آمن السِّربِ، وامْخُضْ[٥] وِدَّهَ بآنِيَةِ القلبِ، وقِ نَفْسَكَ من سطوته بِحُسْنِ الحفاظِ، وَتَخَيَّرْ له ألطفَ المدحِ تَفُزْ منه بأيمنِ القِدْحِ[٦]، ولا تحرم نفسك بقولك:

إنِّي غَرِيبُ المثوَى، نازحُ الدَّارِ، بعيدُ النَّسَبِ، منسيُّ المكانِ.

فإنَّك قَريبُ الدَّارِ بالأملِ.

داني النُّجْعِ بالقَصدِ.

رحيبُ السَّاحَةِ بالمنى.

ملحوظُ الحال بالحسد.

مشهورُ الحديث بالدَّرَكِ.

واعلم علمًا يلتحمُ باليقين، ويدرأ من الشَّك: أَنَّه معروفُ الفخرِ بالمفاخر، مأثورُ الأَثَرِ بالمآثرِ. قد أصبحَ وَاحِدَ الأنام، تاريخَ الأيَّام، أَسَدَ الغياضِ يوم الوغى، نَوْرَ[٧] الرِّياضِ يوم الرِّضَا. إن حُرِّكَ عِندَ مكرمةٍ حُرِّكَ غُصْنًا تَحْتَ بارِحٍ. وإن دُعيَ إلى اللقاء دُعيَ لَيْثًا فوقَ سَابِحٍ.

(١) قرن الكلأ: خيره.

(٢) اخْتَبَطَ البعيرُ الشَّوكَ : أَكَلَهُ.

(٣) خَضِمَ الطَّعَامَ: أَكَلَهُ.

(٤) اللبب: البال. ويقال: فلانٌ في لبب رخي إذا كان في حال واسعة. ويقال: إنه لرخي اللبب، وأيضًا: فلان في بال رخي ولبب رخي أي: في سعة وخصب وأمن.

(٥) مخض اللبن يَمْخَضُه ويَمْخِضُه ويَمْخُضُه؛ ثلاث لغات، أي: أخذ زبده، فهو ممخوض ومخيض.

(٦) القدح بالكسر: السهم قبل أن يُنصَّل، وقيل: القِدْحُ: العود إذا بلغ فُشذِّب عنه الغصن وقطع على مقدار النبل الذي يراد من الطول والقصر.

(٧) النَّوْرُ: الزّهْرُ ، أو الأبيض منه واحدته: نَوْرَةٌ.

وَقُلْ إذا أَتَيْتَهُ بلسانِ التَّحكم: أصلحْ أديمي[1] فقد حَلِمَ، وجَدِّدَ شَبابِيَ فَقَدْ هَرِمَ، وأَنْطِقْ لِسَاني بِمَدْحِكَ فَقَد حَصِرَ[2]، وافتحْ بَصِري بِنِعْمَتِكَ فإنَّهُ سَدِرَ[3]، واتلُ سورة الإخلاص في اصطناعي فقد شَرَدَتْ صَفائِحُ النُّجعِ عِندَ انتجاعي وقُلْ: رِشْ عظمي فقد بَرَاهُ الزَّمانُ، واكسُ جِلدي فقد أعراه الحدثانُ. وإيَّاكَ أن تقول: يا مالك الدُّنيا جُدْ لي ببعض الدُّنيا فإنَّه يحرمك. ولكن قُلْ: يا مالك الدُّنيا هِبْ لي الدُّنيا.

اللهمَّ فأحيي به في بلادكَ، وانعشْ بِرَحْمَتِهِ عبادك، وبلِّغْهُ مَرْضَاتَكَ، وأسكنهُ فِرْدَوسَكَ، وأَدِمْ لَهُ العزَّ النَّامي، والكعبَ العالي، والمجدَ التَّليدَ، والجَدَّ السَّعيدَ، والحقَّ الموروثَ، والخيرَ المبثوثَ، والوَليَّ المنصورَ، والشَّانئَ المبتورَ، والدَّعَوْةَ الشَّامِلَةَ، والسَّجِيَّةَ الفاضلةَ، والسِّربَ المحروسَ، والرَّبْعَ المأنوسَ، والجناب الخصيب، والعدوَّ الحرِّيب[4]، والمنهلَ القريبَ. واجعل أولياءه باذلينَ لِطَاعَتِهِ، ناصرينَ لأعزَّتِهِ، ذابِّينَ عن حَرَمِهِ، مرفرفين على حوبائه[5].

أَيُّهَا الشَّمسُ المضيئةُ بالكرم، والقَمَرُ المنيرُ بالجمال، والنَّجمُ الثَّاقبُ بالعلم، والكوكبُ الوَقَّادُ بالجود، والبحرُ الفَيَّاضُ بالمواهب، قد سَقَطَ العشاءُ بعبدك على سرحك، فَاقْرِه من نعمتكَ بِمَا يضاهي قَدْرَك، ورَوِّجْ هَيْئَتَهَ تِرْبَهَا من الغِنَى فطالما خَطَبَ كُفأها من المنى.

* * *

(١) الأَديم: الجلد الذي يغلّف جسم الإنسان أو الحيوان.
(٢) حَصِرَ : عَجَزَ فِي نُطْقِهِ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الكَلام.
(٣) سَدِرَ: تحير.
(٤) الحريب: الذي اشتد غضبه حتى خرج عن طوره.
(٥) الحَوْباءُ : النَّفس . والجمع : حَوْباوات.

(١١)

رسالة
إلى أبي الوفاء المهندس البوزجاني
يشكو فيها حاله

أيُّها الشَّيخُ، سَلَّمَكَ اللهُ بالصُّنع الْجَميلِ، وحَقَّقَ لكَ وَفِيكَ وَبِكَ غايةَ المأمولِ.

خَلِّصني أيُّها الرَّجلُ من التَّكفُّفِ، أنقذني من لُبْس الفقرِ، أَطلقني من قَيْدِ الضُّرِّ، اشْتَرِني بالإحسانِ، اعتبدني بالشُّكْرِ، استعملْ لِساني بِفُنُونِ المدحِ، اكفني مَؤُونَةَ الغداء والعشاءِ.

إلى مَتَى الكُسيرةُ اليابِسَةُ، والبُقَيلَةُ الذَّاوِيَةُ، والقميصُ المرقَّعُ، وباقلِّي[١] دَرْبِ الحاجب، وسَذَابُ[٢] دَرْبِ الرَّوَّاسين؟

إلى مَتَى التَّأدُّم بالخبزِ والزَّيتونِ؟ قد، والله، بُحَّ الحَلْقُ، وتَغَيَّرَ الخُلْقُ. الله الله في أمري. اجْبُرني فإنِّي مكسورٌ، اسقني فإنِّي صَدٍ، أغثني فإنِّي مَلْهُوفٌ، شَهِّرني فإنَّي غُفْلٌ، حَلِّني فإنَّني عاطلٌ.

قَد أذلَّني السَّفَرُ منْ بَلَدٍ إلى بَلَدٍ، وخَذَلَنِي الوقوفُ على بابٍ بابٍ، ونَكِرَني العارفُ بي، وتباعدَ عَنِّي القريبُ منِّي.

---

(١) الباقلي: الفول.

(٢) السَّذَابُ: جنس نباتات طبيّة، من الفصيلة السّذابيَّة ، له رائحة قوية خاصة.

أغرَّكَ مسكويه[1] حينَ قال لك: قد لقيتُ أبا حيان، وقد أخرجته مع صاحب البريد إلى قَرْمِيسين.

والله، ثُمَّ وحياتِكَ الَّتي هي حياتي، ما انقلبتُ من ذلك بنفقة شهر، واللهُ نَظَرَ لي بالعَوْدِ، فإنَّ الأراجيفَ[2] اتَّصَلَتْ، والأرضَ اقْشَعَرَّت، وتَشَبَّهَ كُلُّ ثَعْلَبٍ بِأَسَدٍ، وفَتَلَ كُلُّ إنسان لعدُوِّه حَبْلًا من مَسَد.

أَيُّهَا الكريمُ، ارْحَمْ، واللهِ ما يكفيني ما يصلُ إليَّ في كلِّ شَهْرٍ من هذا الرِّزقِ المقتَّر الذي يرجع بعدَ التَّقتيرِ والتَّيسيرِ إلى أربعين درهمًا مع هذه المؤونة الغليظة، والسَّفر الشَّاقِّ، والأبواب المحجَّبَةِ، والوجوه الْمُقَطِّبَةِ، والأيدي المسمَّرةِ، والنُّفوس الضَّيقَةِ، والأخلاق الدَّنيئة.

أَيُّها السَّيدُ، أَقْصِرْ تأميلي، ارعَ ذِمامَ المِلْحِ بيني وبينك، وتذكَّر العهدَ في صُحْبتي، طَالِبْ نَفْسَكَ بِمَا يقطعُ حُجَّتي، دعني من التَّعليلِ الَّذي لا مردَّ له، والتَّسويفِ الذي لا آخرَ معه.

ذَكِّرِ الوزيرَ أمري، وَكَرِّرْ على أُذُنه ذِكْري. وأَمْلِ عليه سورةً من شُكري، وابعثه على الإحسان إليَّ.

افتح عليه بابًا يُغْري الرَّاغبَ في اصطناعِ المعروفِ لا يستغني عن المرَغِّبِ، والفاعل للخير لا يستوحش من الباعث عليه.

أنفق جاهَكَ فإنَّه بِحَمْدِ الله عريضٌ، وإذا جُدْتَ بالمال فَجُدْ أيضًا بالجاه، فإنَّهما أخوان.

---

(١) هو أحمد بن محمد بن يعقوب، أبو علي الخازن، الملقب بـ «مسكويه» ولد ما بين عام ٣٢٠-٣٢٥ هـ بالري في إيران. لقب بالخازن، لأنه كان قيمًا على خزانة كتب ابن العميد، ثم كتب عضد الدولة البويهي. ولقب بالرازي، نسبة إلى بلدة الري، حيث ألحقوا الزاي في النسبة تخفيفًا .عَمّر مسكويه قرنًا من الزمن إلا بضع سنين، عايش فيه أبرز العلماء والكتاب والأدباء، والفلاسفة والشعراء منهم ابن سينا والبيروني والتوحيدي، وكان رفيق الأمراء والملوك، فقد بدأ طفولته مع معز الدولة أحمد بن بويه، وقضى شبابه مع عضد الدولة، وعرف في رجولته ابن صمصام الدولة، وفي شيخوخته كان إلى جانب بهاء الدولة. توفي سنة ٤٢١هـ.

(٢) الأراجيف مفردها الإرجافُ: الخَبَرُ الكاذِبُ المثير للفتن والاضطراب.

سَرِّحْنِي رَسُولًا إلى صَاحِبِ البَطَائِحِ، أو إلى أبي السُّؤل الكُرْديِّ أو إلى غيره مِمَّن هو في الجبال، هذا إنْ لم تؤهِّلني برسالة إلى سعد المعالِميِّ بأطراف الشام، وإلى البَصْرَة. فإنِّي أبلغُ في تَحَمُّلِ ما أحمل، وأداءِ ما أؤدِّي، وتزيين ما أزيِّن، حدًّا أمْلِكُ به الحمدَ، وأعرفُ فيه النَّصيحةَ، وأستوفي فيه على الغاية.

دَعْ هذا، وَدَعْ لي ألفَ دِرْهَم، فإنِّي أتَّخِذُ رأسَ مالٍ، وأشاركُ بقَّال المحلَّة في دَرْبِ الحاجبِ، ولا أقلَّ من ذا، تقدَّمَ إليَّ كسج البقال حتَّى يستعين بي لأبيعَ الدَّفاترَ.

قُلتَ: الوزيرُ مشغولٌ. فَمَا أصنعُ بِهِ إذا فَرَغَ، فالشَّاعرُ يقول:

* تُناطُ بك الآمالُ ما اتَّصل الشُّغْل[1] *

قَدْ والله نسيتُ صَدْرَ هذا البيتِ، وما بالُ غيري يُنَوِّلُهُ وَيُمَوِّلُهُ مع شُغْلِه وأُحْرَمُ أنا؟! أنَا كَمَا قال الشَّاعرُ:

وَبَرْقٌ أضَاءَ الأرْضَ شَرْقًا ومَغْرِبًـا وَمَوْضِعُ رِجْلِـي مِنْهُ أسْـودُ مُظْلِمُ

والله، إنَّ الوَزِيرَ مَعَ أشغاله الْمُتَّصِلَة، وأثقالِهِ البَاهِظَة، وَفِكْرِهِ المفضوض[2]، ورأيِهِ المشترَكِ، لَكَريمٌ ماجِدٌ، ومُفضِلٌ مُحسنٌ، يَرْعَى القليلَ مِنَ الْحُرْمَةِ، ويُعْطِي الجزيلَ من النِّعْمَةِ، ويحافظُ على اليَسِيرِ مِنَ الذِّمامِ، وَيَتَقَبَّلُ مَذاهِبَ الكِرَام، وَيَتَلَذَّذُ بالثَّنَاءِ إذا سَمِعَ، وَيَتَعَرَّضُ للشُّكْرِ مِن كُلِّ مُنْتَجِعٍ، ويَزْرَعُ الخيرَ، ويحصدُ الأجرَ، ويواظبُ على كَسْبِ المجدِ، ويثابرُ على اجتلابِ الحمدِ، ويَنْخَدِعُ للسَّائِلِ، وَيَتَهَلَّلُ في وجه الآملِ، ولا يَتَبَوَّأ من الفَضَائِلِ إلَّا في ذُرَاها؛ رَحيمٌ بكلِّ غادٍ ورائحٍ، ولكلِّ صالحٍ وطالحٍ.

(١) رواه التَّوحيدي بتمامه في الجزء الخامس من البصائر والذخائر ص ١٣٣:

وَلا تَعْتَذِرْ بالشُّغلِ عَنَّا فَإنَّما تُنَاطُ بكَ الآمالُ ما اتَّصل الشُّغلُ

(٢) المفضوض: أي المتفرق غير المجتمع.

وأنا الجارُ القَديمُ، والعبدُ الشَّاكرُ، والصَّاحبُ المخبورُ[1]. ولكنَّكَ مُقْبِلٌ كَالْمُعْرِضِ، وَمُقَدِّمٌ كالْمُؤَخِّرِ، وَمُوْقِدٌ كالْمُخْمِدِ، تُدْنيني إلى حظِّي بِشِمَالِكَ، وَتَجْذِبُني عن نَيْلِهِ بَيَمِينِكَ، وَتُغَدِّيني بِوَعْدٍ كالعَسَلِ، وتُعَشِّيني بِيَأسٍ كالحنظل. ومن كان عتبُه على مظنَّة عيبك، فليس ينبغي أن يكون تقصيره على تيقُّنه بنصرك.

نعم، عَتَبْتُ فأوجعتُ، وعَرَفْتَ البراءةَ فَهَلَّا نَفَعْتَ؟

والله ما أدري ما أقولُ؛ إن شَكَرْتُكَ عَلَى ظَاهِرَكَ الصَّحيحِ لَذَعْتُكَ لباطنك السَّقيمِ، وإن حَمَدْتُكَ على أوَّلِك الجميل أفسدتُ لآخرِكَ الَّذي ليس بجميل.

قد أطلتُ، ولكن ما شُفِيْتُ. وَنَهْلْتُ وَعَلَلْتُ، ولكن ما رَويتُ.

وآخرُ ما أقولُ: افْعَلْ ما تَرَى، واصْنَعْ ما تَسْتَحْسِنْ، وابْلُغْ ما تَهْوى، فليس والله منك بُدٌّ، ولا عَنْكَ غِنًى.

والصَّبرُ عليك أهونُ من الصَّبرِ عنك، لأنَّ الصَّبرَ عنك مقرونٌ باليأس، والصَّبرُ عليك ربَّما يُؤَدِّي إلى رَفْعِ هذا الوسواس.

والسَّلام لأهل السَّلام.

* * *

(١) الرجل المخبور: المجرَّبُ المختبر.

(١٢)

رسالة
إلى الوزير أبي عبد الله العارض
يوجه إليه بعض نصائحه

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهُم حَلِّنِي بالتَّوفيقِ، وأيدني بالنُّصْرَةِ، واقْرِنْ منطقي بالسَّدادِ، واجعل لي من الوزيرِ وَزِيرِ الممالكِ عُقْبَى فَارِجَةً من الغُمَمِ، وخاتمةً مُوصولَةً بالنَّجاحِ، فإنَّكَ على ذلك قَدِيرٌ، وبالإجابة جدير.

كنتُ وصلتُ إلى مجلسِ الوزيرِ، وفُزتُ بالشَّرَفِ منه، وخَدَمْتُ دولَتَهُ، وعَلَّاهُ من صدري بِخَبِيْئَتِهِ، ومن فؤادي بِمَحِيْضَتِهِ[1]، وتَصَرَّفْتُ من الحديث بإذنه في شجونه وفُنُونِهِ، كُلُّ ذلك آملًا في جدوى آخُذُها، وحُظْوةٍ أحظى بها، وزُلْفى أميسُ معها، ومَثَالَةٍ أُحْسَدُ عليها. فَتَقَبَّلَ ذلك كُلَّه، وَوَعَدَ عليه خيرًا ولم يزل أهلَه، وانقلبتُ إلى أهلي مسرورًا بوجهٍ مُسْفِرٍ، وَمُحَيًّا طَلْقٍ، وطَرْفٍ عازمٍ، وأملٍ قد سَدَّ ما بين أُفُقِ العراق إلى صنعاء اليمن، حَتَّى إذا قلتُ للنَّفْسِ:

(١) قال الأَزهري في لسان العرب : يقال حاضَ السيلُ وفاضَ إِذا سال يَحِيضُ ويَفيض. وعلى ذلك يكون معنى محيضته: فبضان كرمه وجوده.

- هذا معانُ[1] الوزير ومَعْمَرُهُ، وجَنَابُهُ ومَحْضَرُهُ، فانشرحي مستفتحةً، وتَيَمَّنِي مقترحةً، واطمئني راضيةً مَرْضِيَّةً، لا كَدِرَةَ الشُّربِ، ولا مذعورةَ السِّرْبِ، حصلتُ من ذلك الوعدِ والضَّمانِ، على بعض فَعَلاتِ الزَّمانِ؛ ولا عَجَبَ في ذلك من الزَّمان فهو بِمِثْلِهِ مُليء، وله فَعُول.

وبقيتُ محمولًا بيني وبين إذكاره- قَرَنَ اللهُ ساعاتِهِ بِسَعَادَاتِه، وَوَصَلَ عِزَّ يومِه بسعادة غَدِهِ؛ وغَدَهُ بامتدادِ يَدِهِ- حيرانَ لا أريشُ ولا أبري[2]، ثُمَّ رفعتُ ناظري، وَسَدَّدْتُ خاطري، وَفَصَّلْتُ الحسابَ لي وعليَّ؛ فَوَضَحَ العذرُ المبينُ، المانعُ من استزادة المستزيدين، وذلك أَنِّي رأيتُ أعباءَ الوزارةِ تَؤُودُ سِرَّهُ، وتُتْعِبُ بَالَهُ، والمملكةَ تُفْزِعُ وَلهَى عليه، وتُلْقِي بجرانها[3] له بين يديه، والدَّولة تَسْتَمِدُّهُ التَّدبيرَ الثَّاقب، والرَّأيَ الصَّائب، سوى أمورٍ في خلافِ ذلك لا يُحَرِّرُها رَسْمُ راسم، ولا يُقَرِّرُها قَسْمُ قاسم، ولا يَحْويها وهْمُ واهم، ولا يفوزُ بها سهمُ مُساهِم، وهو يَخْطِرُ في حواشي هذه الأحوال، متأبِّطًا بَوَاهظَ الأثقال، مفتتحًا عَويصَ الأقفال، سامي الطَّرف، فسيح الصَّدر، بسَّامًا على العِلَّات، غير مُكترث بهاكَ وهات، يتلقَّى ما أعيا من ذلك باللَّي، وما أشكلَ بالإيضاح، وما عسر بالتَّدبير، وما فَسَدَ بالإصلاح، وما أُرِقَّ بالعِتْق، وما خُرِقَ بالرَّتْق، وما خفي بالتَّكشيف، وما بدا بالتَّصريف، وما أَودَ بالتَّثقيف، وما لَبَسَ[4] بالتَّعريف، حَتَّى أجمع على هواه قاصيها ودانيها، وجرى على مُرادِه خافيها وباديها، واستجابَ لأمْرِه أَبِيُّها ومُنْقَادُها، وأتلَفَ بلفظِه نادرُها ومعتادُها. فلمَّا تَيَقَّنْتُ ذلك كُلَّه وقتلتُه خُبْرًا، أَمْسَكْتُ عن إذكاره- نَفَّسَ اللهُ مُدَّتَهُ- سالفَ عهدِه، ومتقدِّمَ وعْدِه، عالمًا بأنَّ أسَرَّهما مرعيٌّ عنده في صَدْرِ الكلام، ومكتوبٌ لديه في صحيفة المجد، وثابتٌ

(١) المَعَانُ : المباءَةُ والمنزلُ.

(٢) رشتُ السهم أُرِيْشُهُ أي: أعمل له ريشًا. وفلان لا يريشُ ولا يبري (من البري) أي لا يضر ولا ينفع.

(٣) الجِران: باطن العُنُق من البعير وغيره. والجمع: أَجْرِنَةٌ ، وجُرُنٌ .ويقال: أَلقَى فلانٌ على هذا الأَمر جِرَانَه: وطَّنَ نفسَه عليه .وضربَ الإسلامُ بجرانه : ثبت واستقرَّ .

(٤) لَبَسَ: صار ملتبسًا.

قِبَلَهُ في ديوان الحُسْنَى.

ولكنْ كان ذلك الامتنان على رَغْم منِّي، لأَنِّي قَتَلْتُ في أثنائه بين جنبيَّ قلبًا مغرورَ الرَّجاءِ، ومَنْزُورَ[1] العزاءِ، على عوارِضَ لم تسنحْ في خَلَدِي، ولم أَعْقِدْ على شيءٍ منها يَدِي.

فالحمدُ لله الذي جَعَلَ معاذي إلى الوزير الكريم، البَرِّ الرَّحيم، والْمِنَّةُ لله الذي جعلني من عُفاةِ جُودِهِ، وناشِئَةِ عُرْفِهِ، وَوارِدِ عَدِّهِ، وقادحي زَنْدِه، ومُقْتَبِسِي نُوْرِهِ، ومُصْطَلِي نارِهِ، وحامِلي نِعْمَتِهِ، وطالِبي خِدْمَتِهِ. وجعل خاصَّتِي وخالصَتِي من بينهم روايةَ مناقِبِهِ باللسان الأَبْيَنِ، ونَشْرَ فضائلِه بالثَّناءِ الأحسن، وذِكْرَ آلائه باللفظِ الأفصحِ، والاحتجاجَ لِسَدَادِ آرائه بالمعْنَى الأوضَحِ؛ فلا زال الوزيرُ- وزيرُ الممالك- ممدوحًا في أطوار الأرضِ على أَلْسِنَةِ الأدباءِ والحكماءِ، وفي نوادي الرُّؤساء والعُظماء، ما آبَ آئب، وغاب غائب، بِمِنِّهِ ولُطْفه.

قد ناديت الوزيرَ حَيًّا سامعًا، وخيرًا جامعًا، وهززتُ منه صارمًا قاطعًا، وشهابًا ساطعًا، واستسقيتُ من كَرَمِهِ سحابًا هاطلًا، ونُقاخًا[2] سائلًا، وأسأله أن يُجَنِّبَنِي مرارةَ الخَيْبَةِ، وحَسْرَةَ الإخفاق، وعذابَ التَّسْويفِ، فقد تَلَطَّفتُ بالسِّحرِ الحلالِ[3]، والعَذْبِ الزُّلال، جَهْد المُقلِّ المحتال، وهو أَوْلَى بمَجْدِه، في تدبير عَبْدِه، إن شاء الله تعالى[4].

* * *

(١) النزر والنزير والمنزور: القليل من كل شيء.

(٢) النُّقاخُ: المقصود هنا: الماء البارد العذب الصافي الخالص الذي يكاد يَنْفَخُ الفؤاد ببروده.

(٣) السحر الحلال هو الكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة.

(٤) ختم التوحيدي هذه الرسالة، في الإمتاع والمؤانسة، بقوله: «وحضر وصولها إليه بهرام وتكلم بما يشبه نذالته وخسته ونتن نيته، فما كنت آمنه؛ وما أشد إشفاقي على هذا الوزير الخطير شؤم ناصية بهرام، وغل صدره، وقلة نصيحته، ولؤم طبعه، وخبث أصله، وسقوط فرعه، ودمامة منظره، ولآمة مخبره؛ حرس الله العباد من شره، وطهر البلاد من عُره وضره.

(١٣)

رسالة أخرى
إلى الوزير أبي عبد الله العارض

بسم الله الرحمن الرحيم

أَيُّهَا الوزيرُ، جَعَلَ اللهُ أقدارَ دَهْرِكَ جاريةً على تَحَكُّم آمالكَ، وَوَصَل توفيقَهُ بمبالغ مرادكَ في أقوالِكَ وأفعالِكَ، ومَكَّنَكَ من نواصي أعدائك، وثَبَّتَ أواخيَ[١] دولَتِكَ على ما في نفوسِ أوليائك.

يجب على كُلِّ من آتاه الله رأيًا ثاقبًا، ونُصْحًا حاضرًا، وتَنَبُّهًا نافعًا، أن يخدُمَكَ مُتَحَرِّيًا لِرُسُوخِ دعائم المملكة بسياسَتِك وريادَتِك، قاضيًا بذلك حقَّ اللهِ عليه في تقويَتِكَ وحِيَاطَتِكَ. وإنِّي أرى على بابكَ جماعةً ليست بالكثيرة- ولَعَلَّها دون العَشَرَةِ- يُؤْثِرُونَ لقاءَكَ والوصولَ إليك لِمَا تُجِنُّ صدورُهم من النَّصائح النَّافعة، والبلاغات المُجْدِيَةِ، والدَّلالات المُفيدة، ويرون أنَّهم إذا أُهِّلُوا لذلكَ فقد قَضَوا حَقَّكَ، وأدَّوا ما وَجَبَ عليهم من حُرْمَتِك، وبلغوا بذلك مُرادَهم من تَفَضُّلِكَ واصطناعك، وتقديمِك وتكريمِك؛ والحجابُ قد حالَ بينَهم وبينَك، ولكلٍّ منهم وسيلةٌ شافعةٌ، وخدمةٌ للخيرات جامعةٌ:

(١) أواخي: جمع آخِيَة : وهي عروة تثبت في أَرض أَو حائط وتُربَط فيها الدابة.

منهم- وهو أهلُ الوفاءِ- ذوو كفايةٍ وأمانةٍ، ونباهةٍ ولباقة.

ومنهم من يَصْلُحُ للعَمَلِ الجليلِ، ولِرَتْقِ الفَتْقِ العظيم.

ومنهم من يُمْتِعُ إذا نادَمَ، ويَشْكُرُ إذا اصطُنع، ويبذُلُ المجهودَ إذا رُفعَ.

ومنهم من يَنْظِمُ الدُّرَّ إذا مَدَحَ، ويُضْحِكُ الثَّغْرَ إذا مَزَحَ.

ومنهم مَن قَعَدَ به الدَّهرُ لِسِنِّهِ العالية، وجلابيبه البالية، فهو مَوْضِعُ الأجْرِ المذخور، وناطقٌ بالشُّكر المنظوم والمنثور.

ومنهم طائفةٌ أخرى قد عَكَفوا في بُيوتهم على ما يَعْنِيهم من أحوال أنفُسهم، في تَزْجِية عيشهم، وعِمارة آخرَتِهم. وهم مع ذلك مِنْ وراءِ خَصَاصةٍ مُرَّةٍ، ومُؤَنٍ غليظةٍ، وحاجاتٍ متواليةٍ. ولهم العلمُ والحكمةُ والبيانُ والتَّجربةُ، ولو وثِقُوا بأنَّهم إذا عَرَضُوا أنفسَهم عليكَ، وجَهَّزُوا ما معهم من الأدبِ والفَضْل إليك حَظُوا منك، واعتزُّوا بك، لَحَضَروا بابَك، وجَشِمُوا المشقَّةَ إليك. لكنَّ اليأسَ قد غَلَبَ عليهم، وضَعُفَتْ مُنَّتُهم، وعُكِس أملُهم، ورأوا أنَّ سَفَّ التُّراب أخَفُّ من الوقوفِ على الأبواب، إذا دَنَوا منها دُفِعُوا عنها.

فلو لَحَظْتَ هؤلاء كُلَّهم بفضلِك، وأدْنَيْتَهم بسَعَةِ ذَرْعِكَ وكَرَمِ خِيمك[1]، وأصغيتَ إلى مقالتهم بسَمْعِكَ، وقابلتَهم بمِلْءِ عينِك، كان في ذلك بقاءٌ للنِّعمةِ عليك، وصِيْتٌ فاشٍ بذِكْرِك، وثوابٌ مؤجَّلٌ في صَحيفَتِك، وثناءٌ مُعَجَّلٌ عند قريبِك وبعيدِك. والأيَّامُ معروفةٌ بالتَّقَلُّبِ، والليالي ماخِضةٌ بما يَتَعَجَّبُ منه ذو اللُّبِّ، والمجدود من جُدَّ في جَدِّه، أعني من كان جدُّه في الدنيا موصولًا بحظه من الآخرة، ولئن يُوكلَ العاقلُ بالاعتبار بغيره خيرٌ من أن يُوكلَ غَيرُهُ بالاعتبارِ به.

أَيُّهَا الوزير، اصطناعُ الرِّجالِ صِناعةٌ قائمةٌ برأسِها، قَلَّ من يَفِي بِرَبِّهَا، أو يَتَأتَّى لها،

(١) الخِيم: السَّجِيَّةُ والطبيعةُ.

أو يَعْرِفُ حلاوتَها. وهي غيرُ الكتابةِ الَّتي تتعلَّقُ بالبلاغةِ والحِسابِ.

وسمعتُ ابنَ سُورين يقول: آخرُ من شاهَدْنا مِمَّن عَرَفَ الاصطِناع، واستحلى الصَّنائعَ، وارتاح للذِّكْرِ الطَّيِّبِ، واهتزَّ للمديحِ، وطَرِبَ على نَغْمَةِ السَّائِلِ، واغتَنَمَ خِلَّةَ المحتاجِ، وانتهبَ الكَرَمَ انتِهابًا، والتَهَبَ في عِشْقِ الثَّناء التهابًا، أبو محمد المُهَلَّبي، فإنَّهُ قَدَّمَ قومًا ونوَّهَ بهم، ونَبَّهَ على فضلِهم، وأحْوَجَ النَّاظرين في أمْرِ المُلْكِ إليهم، وإلى كفايتهم، منهم:

أبو الفضل العباس بن الحُسين[1].

ومنهم ابن معروف القاضي[2].

ومنهم أبو عبد الله اليَفُرَنيّ.

ومنهم أبو إسحاق الصابئ[3].

وأبو الخطاب الصابئ.

ومنهم أحمد الطويل.

ومنهم أبو العلاء صاعد[4].

ومنهم أبو أحمد بن الهيثم.

وابن حفصٍ صاحبُ الدِّيوان، وفلانٌ وفلانٌ، هؤلاء إلى غيرِ هؤلاء، كأبي تَمَّام

(١) هو أبو الفضل العباس بن الحسين الشيرازي، كان ظالمًا بطَّاشًا، جعله معز الدولة كاتبه ثم استوزره، مات سنة ٣٦٣هـ.

(٢) هو أبو محمد عبيد الله بن أحمد بن معروف، ولي قاضي القضاة ببغداد، وكان أديبًا وشاعرًا، وهو من العلماء الثقاة، مات سنة ٣٧١هـ.

(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهران الحراني الصابئ، كان من كبار كتاب عصره، مات سنة ٣٨٤هـ.

(٤) هو أبو العلاء صاعد بن مخلد الكاتب النصراني، أسلم، وقد جعله الموفق كاتبه، ثمَّ استوزره المعتمد، كان كثير الصدقة. مات سنة ٢٧٦هـ.

الزَّينبي، وأبي بكر الزُّهري[١]، وابن قريعة[٢]، وأبي حامد المرْوَرَّوذي[٣]، وأبي عبد الله البصري، وأبي سعيد السِّيرافي، وأبي محمد الفارسي، وابن دُرُسْتُويه[٤]، وابن البقَّال[٥]، والسَّرِيّ[٦]، ومن لا يُحْصَى كثرةً من التجار والعُدُول.

وقال لي ابنُ سُورين:

كان أبو محمد يَطْرَبُ على اصطناع الرِّجال كما يطرَبُ سامعُ الغناءِ على الشَّبابير[٧]، ويرتاحُ كما يرتاحُ مُديرُ الكأس على العشائر. وقال عنه: إنَّهُ قال: والله لأكونَنْ في دولة الدَّيلم أوَّل من يُذْكَر، إنْ فاتني أنْ كنتُ في دولةِ بني العبَّاس آخرَ مَنْ يُذْكَر.

فلولا أنَّكَ- أدامَ الله دَوْلَتَكَ- أَذِنْتَ لي أن أكتُبَ إليكَ كُلَّ ما هَجَسَ في النَّفس، وطَلَعَ به الرَّأيُ مِمَّا فيه مَرَدٌّ على ما أنت فيه من هذا الثِّقَلِ الباهظ، وتنبيهٌ على ما تباشِرهُ بكاهِلِك الضَّخْم، لم يكُنْ خَطَري يبلُغُ مُوَاجَهَتَك بلفظٍ يثقُلُ، وإشارةٍ تغلُظُ، وكنايةٍ تخْدِشُ، لكِنَّكَ، والله يأخذُ بيدِكَ، ويَقْرِنُ الصُّنعَ الجميلَ بظاهِرِكَ وباطِنِك، قد رخَّصْتَ لي في ذلك، وَخَصَصْتَنِي به من بين غاشِيَةِ بابك، وخَدَمِ دَوْلَتِك، فلذلك أقولُ ما أقولُ معتمِدًا على حُسْنِ تقبُّلِكَ، وجميلِ تَكَفُّلِكَ، ومُنْتَظِرَ تَفَضُّلِكَ؛ وليس في أبوابِ السِّياسةِ شيءٌ أجدَى وأنْفَعُ، وأنفى للفسادِ وأقمعُ، من الاعتبار المُوقِظِ

(١) هو أبو بكر محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أحد أعلام التابعين بالمدينة، كان فقيهًا ومن كبار الحفاظ والمحدثين، مات على الأرجح سنة ١٢٤هـ.

(٢) هو أبو بكر محمد بن عبد الرحمن المعروف بأبي قريعة، ولي القضاء ببغداد، اشتهر بإتقان السجع ارتجالًا، وهو صاحب نوادر، مات سنة ٣٦٧هـ.

(٣) أبو حامد المروروذي: سبق الترجمة له.

(٤) هو محمد بن عبد الله بن جعفر بن درستويه بن المرزبان الفارسي الفسوي النحوي المعروف. مات سنة ٣٤٧هـ.

(٥) ابن البقال هو الاسم الذي اشتهر به علي بن يوسف أبو الحسن، وهو شاعر وأديب بغدادي، كان مزَّاحًا كثير النوادر، نادم الوزير المهلبي.

(٦) هو أبو الحسن السري بن أحمد بن السري الكندي، شاعر مشهور.

(٧) الشبابير: جمع شبور، وهو من آلات الموسيقى.

للنَّفس، الباعِثِ على أخْذِ الحَزْم، وتَجْريد العَزْم. فإن الوِكَالَ[1] والهُوَيْنَا قَلَّما يُفْضِيَانِ بصاحبهما إلى دَرْكِ مأمولٍ، ونَيْلِ مُرَادٍ، وإصابةِ متمنًّي.

وقد قال رجلٌ كبيرُ الحكمةِ، معروفُ الحنكةِ: الْمُعْتَبَرُ كثيرٌ، والْمُعْتَبِرُ قليلٌ. وصَدَقَ هذا الرَّجُلُ الصَّالح، وهو الحسن البصري:

لو اعْتَبَرَ من تأَخَّرَ بِمَنْ تَقَدَّمَ، لم يكن من يتحسَّر في النَّاس ويندم، ولكنَّ الله بنى هذه الدَّارَ على أن يكونَ أهلُهَا بين يقظةٍ ونوم، وبين فرحٍ وَتَرَحٍ، وبين حَيْطةٍ وَوَرْطَةٍ، وبين حزْمٍ وغَفْلةٍ، وبين نزاعٍ وسَلْوَةٍ، لكنَّ الآخِذَ بالحَزْم، وإن جَرَى عليه مكروهٌ، أعْذَرُ عندَ نَفْسِه، وعندَ كُلِّ من كان في مَسْكِه، من المُلْقِي بيدِه، والمتدلِّي بغروره، والسَّاعي في ثُبُورِهِ. وما وَهَبَ اللهُ العقلَ لأحدٍ إلا وقد عَرَّضَه للنَّجاةِ، ولا حلَّاهُ بالعلم إلا وقد دَعاه إلى العَمَل بشرائطِه، ولا هداه الطَّريقين (أعني الغيَّ والرُّشدَ) إلا ليَزْحَفَ إلى أحدِهما بحُسْنِ الاختيار.

هذا بالأمس أبو الفَضْل العباسُ بنُ الحُسين الوزيرُ- وهو في وزارَتِهِ وَبَسْطَةِ أمرِهِ ونَهْيِه- قيل له ذات يوم: هذا التُّركيُّ ساسنكر تفيَّأْ بِظِلِّه، واعتصِمْ بحبْلِه، واستَسْقِ بِسَجْلِهِ، وارتوِ من سُؤره، ولا يبلُغْه عنكَ ما يوحِشُه منك، ويُجْفِيه عليك. وقد قيل:

اسجُدْ لِقِرْدِ السُّوءِ فِي زَمَانِهِ

وإذا لَمْ تَقْدِرْ على قَطْعِ يَدٍ جائرةٍ، فَقَبِّلْهَا مُتْهِمَةً مُنْجِدَةً غائرةً. فلم يَفْعَلْ، حَتَّى وَجَدَ أعداؤه طريقًا إليه، فَسَلَكُوه وأوْقعوه.

ثُمَّ قيل له في الوزارة الثَّانية: قد ذُقْتَ مرارةَ النَّكبةِ، وتحرَّقتَ بنار الشَّماتةِ، وتأرَّقْتَ على فرَطاتِ العَجْز والفَسَالَةِ[2]، وقد كان من ذلك كُلِّه ما كان، ودار لك بما تَمَنَّيتَ الزَّمانُ. فانظرْ أين تضَعُ الآنَ قَدَمَكَ، وبأيِّ شيءٍ تُديرُ لسانَكَ وقلمَكَ، فإنَّ مُخَلِّصَكَ

(١) الوكال: الضَّعفُ.

(٢) الفَسَالةُ الضَّعْفُ وسُوءُ الرَّأي.

من ورطتك بالمِرْصاد، وقد وعدتَ من نفسك إنْ أعادَ اللهُ يَدَكَ إلى البَسْطَةِ، وَرَدَّ حالَكَ إلى السُّرور والغِبْطة، أنَّك تُجمل المعامَلة، وتَنسى المقابلة[1]، وتَلقَى وليَّكَ وعدوَّكَ بالإحسان إلى هذا، والكفِّ عن هذا، حَتَّى يَتَساوَيا بنظرك، ويتعبَّدا لك بِتَفَضُّلِكَ.

فكانَ من جَوَابِهِ ما دَلَّ على عُتوِّهِ وثَباتِهِ[2]، لأنَّهُ قال:

أما سمعتم الله تعالى حيث يقول: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

[الأنعام: ٢٨].

وقال لي القُومَسِيُّ[3]- ولَمْ يَعْلَمْ ما في فَحْوَى هذا الكلام-: ما ذاك؟ قلتُ: فحواه ولو عادوا إلى ما نُهوا عنه لَعُدنا إلى مقابَلتِهم بما استحقُّوا عليه.

وصدَقَ ما قال الله عزَّ وجلَّ، ما لَبِثَ ذلك الإنسانُ بعد هذا الكلام إلا قليلًا حَتَّى أَوْرَدَهُ ولم يُصْدِرْهُ، وأَعْثَرَهُ ولم يُنْعِشْهُ، وسُلِّمَ إلى عَدُوِّهِ حَتَّى اسْتَلَّ رُوْحَهُ من بين جنبيه، شافيًا به ومُشْتَفِيًا منه، وكان عاقِبةُ أمره خُسْرًا، ولو اتَّقى اللهَ لكانَ آخرُ أمرِه يُسرًا. والله المستعان.

وهذا بعده محمدُ بنُ بقيَّةَ طَغَى وبَغَى، واقتحمَ ظلماتِ الظُّلْم والعَسْفِ، وطار بجناح اللهو والعَزْفِ، والشُّرْبِ والقَصْفِ[4]، ومَلَّ نعمةَ الله عليه، وضَلَّ بين إمْهالِ الله وإمْلائه، فَحَاقَ به ما ذَهَبَتْ عليه نفسُه ومالُه، وخُرِّبَ بيتُه، وافتَضَحَ أهلُه، وكيف كان يَسْلَم؟ أم كيف كان ينجو وقد قَتَلَ ابنَ السَّراج بلا ذنبٍ، والجَرْجَرائيَّ بلا حُجَّةٍ، وضَرَبَ ابنَ معروفٍ بالسِّياطِ وأبا القاسم- أخًا لأبي محمد القاضي- وَشَهَّرَهُ على جَمَلٍ في الجانب الشَّرقيِّ؟!

(١) تنسى المقابلة: أي لا تقابل الذنب بما يستحقه من عقوبة بل تعفو.

(٢) وثباته: أي ثباته على ما كان عليه من سوء المعاملة.

(٣) هو أبو بكر القومسي المتفلسف، ذكره أبو حيان في الإمتاع والمؤانسة وقال إنه كتب لنصر الدولة عامين.

(٤) قصَف الرّجلُ: أقام في الطّعام والشّراب واللّهو.

والتَّشفِّي حلو العلانِيَة، ولكنَّهُ مُرُّ العاقبة، وكأَنَّ الحفيظَةَ إنَّما خُلِقَتْ لتُعْتَقَد، والحقد إنَّما وُجِدَ ليُبْلَغَ به ما يَسُرُّ الشَّيطانَ.

وكأَنَّ العفوَ حرامٌ، والكَظْمَ محظورٌ، والمكافأةَ مأمورٌ بها.

وهذا بالأمس عليُّ بنُ محمد ذو الكفايَتين[1]، اغترَّ بشبابه، ولَهَا عن الحَزْم والأخْذِ به فيما كان أولَى به، وظَنَّ أنَّ كِفَايَتَهُ تحفَظه، ونَسَبَهُ من أبيه يكْنُفُه، وبراءتَه تحتَجُّ له، وذنوبَه الصَّغيرةَ تُغْتفر؛ لبلائه المذكور، وغَنائه المشهور؛ وَمَشَى فَعَثَرَ، ورابَ فَخَثَرَ[2]، والأوَّلُ يقولُ:

مَنْ سَبَقَ الدَّهْرَ كَبَا كَبْـــوَةً ... لَمْ يَسْتَقِلْهَا آخِرَ الدَّهْـــرِ

فَاخْطُ مَعَ الدَّهْرِ إذْ مَا خَطَـا ... وَاجْرِ مَعَ الدَّهْرِ كَمَا يَجْرِي

وقالَ ليَ الخليلُ- وكان لطيفَ المحلِّ عنده، لِمَا كانَ يرى من اختصاص أبيه له، ولما يَظْهَرُ من فضله عنده-:

قلتُ له يومًا: يا هذا، في أيِّ شيءٍ أنت؟! وبأيِّ شيءٍ تَعَلَّلُ؟! وقد شُحِذَتْ المواسي، وَحُدِّدَت الأنيابُ، وفُتِلَتِ الْمَرَائِرُ[3]، ونُصِبَتِ الفِخَاخُ، والعيون مُحْدِّقَةٌ نحو القطيعة، والأعناق صورٌ إلى الفظيعة[4]، وأنت لاهٍ ساهٍ عمَّا يُرادُ بك بعدُ؛ يَسْبيكَ هذا المزرفن[5] وهذا المُرْخِي وهذا المُعَرَّض[6]، وهذا الحليق، وهذا النَّتِيف، وهذا المعقرَبُ الصُّدغ، وهذا المصفوف الطُّرَّة، وبالكاس[7] والطاس، والغناء والقَصْف،

(١) علي بن محمد ذو الكفايتين: هو أبو الفتح بن العميد وزير ركن الدولة، لقب بذي الكفايتين لجمعه بين السيف والقلم.

(٢) خَثَرَ اللبنُ : ثَخُنَ وغَلُظَ. ويصح أن تقول (خَثُرَ).

(٣) المَرِيرُ: ما لَطُفَ وطال واشتدَّ فتلُه من الحِبال، والجمع: المرائر.

(٤) صور: أي ماثلة. إلى الفظيعة: أي إلى النكبة الفظيعة.

(٥) المزرفن: الذي يجعل صدغيه كالزرفين، وهي الحلقة.

(٦) المعرض بتشديد الراء: الذي نبت شعر عارضيه. كما يقال عذَّر الغلام بتشديد الذال: إذا نبت شعر عذاره.

(٧) وبالكاس متعلق بقوله من قبل «لاهٍ».

والنَّاي والعود، والصَّبُوح والغَبُوق، والشُّربِ المروَّقِ العتيق. والله ما أدري ما أصنع، إن سكتُّ عنك كَمَدْتُ، وإن نصحتُكُ خِفْتُ منكَ؛ ونعوذُ بالله من اشتباهِ الرَّأي، واشتباكِ الأمر، وقِلَّةِ الاحتراسِ، والإعراضِ عَمَّا يجري من أفواه النَّاس.

يا هذا، سُوءُ الاستمساك خيرٌ من حُسْنِ الصَّرْعة، وتلَقِّي الأمرِ بالحزم والشَّهامةِ أولى من استدباره بالحَسْرَةِ والنَّدامةِ، ومن لا تجربة له يقتبسُ مِمَّن له تجربةٌ، فإذا نَقِبَ الخُفُّ دَمِيَ الأَظَلُّ.

فقال: قد فَرَغَ الله مما هو كائن، وإذَا جَاءَ أَجَلُهُم لا يَسْتأخِرون ساعةً ولا يَسْتقْدِمُون .

قال: قلتُ له: ما أطْلَعَكَ الله على كائناتِ الأمور، ولا أعلمَكَ بعواقبِ الأحوالِ، وإنَّما عَرَّفَكَ حَظَّكَ بعد أن وَفَّرَ عَقْلَكَ، وَأَحْضَرَكَ اسِتَطَاعَتَكَ، وأوضحَ لِقَلْبِكَ ما عَلَيكَ وَلَكَ، حَتَّى يَسْتَشِفَّ ويَسْتَكْشِفَ، ومَلَّكَكَ النَّواصِي حَتَّى تَمُنَّ وتُرْسِل، وما طالبَكَ إلا بعْدَ أنْ أزاحَ عِلَّتَكَ، ولا عاقبَكَ إلا بعْدَ أنْ أنْذَرَكَ وأَنْظَرَكَ، وبمثل هذا تُطَالِبُ أنت مِمَّنْ هو دونكَ من خَدَمِكَ وحَشَمِك، وأوليائِك وأعدائِك، وهذا الذي أَعْذَلُك عليه هو الذي به تَعذُلُ غيرَك وتراه ضالًّا في مسلَكِه، متعرِّضًا لمَهْلَكِه.

فقال: أيظلمُني وليُّ نعمتي صُراحًا بلا ذنبٍ، ويجتاحُني بلا جريمةٍ؛ ويَثْلِمُ دولتَه بلا حُجَّةٍ؟

قلتُ: الله يَقِيك ويَكْفيك، نراكَ بلا ذنْب، ونجدُكَ بريئًا من كلِّ عيبٍ، وغيرُك لا يَراكَ بهذه العَين، ولا يَحْكُمُ لك بهذا الحُكْم. فإن كنتَ ترى فُرصةً فانتهزْها، وإن كنت تَحلُمُ بغُصَّةٍ فاحتَرِزْ منها. فأبوابُ النَّجاةِ مُفَتَّحَةٌ، وطُرق الأمانِ مُتوجِّهةٌ، والأخذُ بالاحتياط واجبٌ، قد قَرُبَ الشَّاخصُ من هذا المكان، والقيامةُ قد قامت بالإرجاف، والطِّيَرَةُ قشعريرةُ النَّفس، كما أنَّ القشعريرةَ طِيَرَةُ البَدَن، والاسترسالُ كَلَالُ الحسِّ، والفألُ لسانُ الزَّمانِ، وعُنوانُ الحِدْثَان، ولا يَقَعُ في الأفواه إلا ما يُوجِبُ الحَذَر، ويبعثُ

على الرأي والنَّظر، واستقراء الأثَر والخَبَر.

قال: أما أنَا بعد التوكُّلِ على الله فقد استَظْهَرْتُ بمحمد بن إبراهيم صاحب نيسابور، وبفخر الدولة وهو بهَمَذَانَ على ثلاثة أيَّام، وبعزِّ الدولة وهو بمدينة السَّلام؛ ومتى حَرَبَ حارِب، ورَابَ رائب، أويتُ إلى واحدٍ من هؤلاء.

قال: قلتُ: هاهنا ما هو أسهلُ مِنْ هذا وإن كان أهْوَلَ، وأنجى وإن كان أشجَى، وأقرَبُ وإن كان أعْزَبَ.

قال: ما هو؟ فَرِّجْ عَنِّي واهدني.

قلتُ: لمَّا يدخُلُ هذا الواردُ الدَّارَ، ويدنو من طَرَفِ البِسَاطِ، تُنْدِرُ رَأسَهُ عن كاهله، وتُلقي شِلْوَهُ في مَزْبَلَةٍ، فإنَّ الْهَيْبَةَ تَقَعُ، والنَّائرةَ تخبُو، والعَجَبَ يَغمُرُ، والظِّنَّةَ تَزُولُ، والصَّدرَ يشتفي، والاعتذارَ ينتفي؛ ويُكتَبُ إلى مُوفِده بأنَّ الرَّأي أوْجَبَ هذا الفِعْلَ؛ لأنَّهُ غَلَبَ على الظَّنِّ أنَّهُ وافى لكيدٍ يُوصِلُهُ إليَّ، وبلاءٍ يُفرِغُه عَلَيَّ، فأزلتُ هذا الظَّنَّ باليَقِين، ودَفَعتُ الشُّبْهَةَ بالجلاء، واستخلصتُ النُّورَ بالظَّلام؛ ولأنْ تُبْعِدَ ساقطًا من خَدَمِكَ، يسوء ظَنِّي به من جهتك، ويقدحُ في طاعتي لك، ويُضرمُ فيَّ نارَ التُّهْمَةِ بيني وبينكَ؛ خَيْرٌ لي في نَصِيْحَتي لِدَوْلَتِكَ، وخَيْرٌ لكَ في بقائي على أمْرِكَ ونَهْيِكَ، مِنْ أنْ يَلْتَاثَ[1] ضَميري في سياسَةِ دَوْلَتِكَ، وَتَحُوْلُ نِيَّتِي عَمَّا عَهِدْتُ من القيامِ بِحَقِّ جُنْدِكَ وَرَعِيَّتِكَ، وحِفْظِ قاصِيَتِكَ ودانِيَتِكَ.

فقالَ: هذا أعْظَمُ، والله المُستعان.

وَلَيْتَنِي أصبتُ بِهذا الرَّأي امْرأً عَلا عَقْلُهُ، فيقبله ببيانٍ، أو يَرُدُّهُ ببُرهانٍ، فكان يقوى أو يَضْعُفُ، ويُقْدِمُ عليه أو يُحْجِمُ عنه، فإنَّ المُبْرَمَ أقوى من السَّحيلِ، والسَّمينَ أحمدُ من النَّحيلِ؛ ثُمَّ كانَ ما كانَ وكانَ مشايخُ العراقِ والجبلِ يرَوْنَ ما حَدَثَ بذلك الفتى أمرًا فَرِيًّا، وظُلمًا عبقريًّا.

(١) الْتَاثَ الشيءُ بالشيء: اختلط به.

وَحَدَّثَنِي القُومَسِيُّ أَنَّهُ لَمْ يَتَقَدَّمْ بذلك أمرٌ، ولا سَبَقَ به إِذْنٌ، ولكن لَمَّا حَدَثَ ما حَدَثَ، وَقَعَ عنه إمساكٌ، وسُتِرَت الكراهيَةُ والإنكارُ.

* * *

وللأمورِ أَيُّهَا الوزيرُ ظُهورٌ وبُطونٌ، وهَوَادِ[1] وأعْجَازٌ، وأوائلُ وأواخر؛ وليس على الإنسان أن يُدرك النَّجاحَ في العواقبِ، وإنَّما عليه أن يَتَحَرَّزَ في المبادئ؛ ولهذا قال القائل:

لأمْرٍ عَلَيْهِمْ أَنْ تَتِمَّ صُدُورُه وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ أنْ تَتِمَّ عَوَاقبُه

وقال سليمانُ بنُ عَبْدِ الملكِ أو غيرُه من أهل بيته: ما لُمْتُ نَفسي على فَوْتِ أمرٍ بَدَأْتُه بِحَزْمٍ، ولا حَمَدْتُها على دَرْكِ أمرٍ بدأْتُه بِعَجْزٍ.

هاهنا ناسٌ إذا تلاقوا ينفُثُ بعضُهم إلى بعض بما هو صَرَيحٌ وكنايةٌ، ويحتاجُ الأمرُ إلى ابن يوسف، ويستملي الخبيثُ من الجالس فوق مَشْرَعَةٍ مكان الرَّوايا.

وليس يصحُّ كلُّ ما يقال فيُرْوَى على وَجْهِه، وليس يخْفَى أيضًا كلُّ ما يجري فيُمْسَكَ عنه؛ والأمورُ مَرجَةٌ، والصُّدورُ حَرِجَة، والاحتراسُ واجبٌ، والنُّصحُ مقبولٌ، والرَّأيُ مشتركٌ، والثِّقةُ بالله من اللوازم على من عَرَفَهُ وآمن به، وليس من الله عَزَّ وجلَّ بُدٌّ على كلِّ حالٍ.

واللهَ أسألُ الدِّفاعَ عنك، والوقايةَ لك، في مُصْبَحِك ومُمْسَاك، وفي مَبِيْتِكَ ومَقِيْلِكَ، وشَهادَتِكَ وغَيْبَتِكَ، ولذوي مليحا[2] في هذا الباب نَفْخٌ وإيقادٌ، وتناقُلٌ وائتمارٌ، ومسألةٌ وجوابٌ.

وعند الشَّيخ أبي الوفاء من هذا الحديث ومن غيره مِمَّا يَتَّصِلُ به من ناحية ابن اليزيدي ما يجبُ أن يُصاخُ له بالأذُن الواعية، ويُقابَل بالنَّفْسِ الرَّاعية، ويُداوَى بالدَّواء النَّاجعِ، وتُحْسَمَ مادَّتُه من الأصل، فإنَّ الفسادَ إذا زَالَ حَصَلَ مكانَهُ الصَّلاحُ. وليس

(١) الهادية من كل شيء أوله وما تقدم منه. والجمع: هواد.

(٢) لا يُعرف من هم ذوو مليحة الذين ذكرهم.

بَعْدَ الْمَرَضِ إلا الإفراقُ، ولا بعد النَّزْعِ إلا الإغراق.

إلى هاهنا انتهى نَفَسي بالنُّصْحِ وإنْ كانت شَفَقَتي تتجاوَزُه، وحِرْصِي يستعلي عليه، لكنِّي خادمٌ، وكما يجب عليَّ أنْ أخدُمَ بِنيَّاتِ الصَّدرِ، فينبغي أن أَلْزَمَ الحدَّ بحُسْنِ الأدبِ.

والله إنَّي لَوَادٌّ مُخلصٌ، وعبدٌ طائعٌ، ورجائي اليومَ أقوَى من رجائي أمْس، وأملي غدًا أبْسَطُ من أملي اليوم. أشكُو إليك الأرَقَ بالليلِ فِكْرًا فيما يُقال، وتَحَفُّظًا ممَّا يُنالُ، وتَوَهُّمًا لما لا يكون إن كان، وشَرُّ العدا، الذين يَتَمَنَّوْنَ لأولي نعمتهم الرَّدَى، ويُبَيِّتُونَ النَّكائثَ[1]، ويَكْسِرون الأجفانَ، ويَتَخازَرُونَ[2] بالأعينِ، ويتجاهرون بالأذى إذا تلاقَوا، ويتهامسون بالألسُنِ إذا تَدَانَوا، واللهُ يَصْرَعُ جُدُودَهم، ويُضْرِعُ خُدُودَهم بين يَدَيك.

وهذه الرِّقَّةُ منِّي والحفاوَةُ، وهذه الرِّعشةُ والقَلَقُ، وهذا التَّقَبُّعُ والتَّفَزُّعُ كُلُّهُ، لأَنِّي ما رأيتُ مثلَكَ، ولا شاهَدْتُ شِبْهَكَ، كَرَمَ خِيم[3]، ولِينَ عَريكةٍ، وجُودَ بَنانٍ، وحُضورَ بِشْرٍ، وتَهَلُّلَ وجهٍ، وحُسْنَ وعدٍ، وقربَ إنجازٍ، وبَذْلَ مالٍ، وحُبَّ حِكمةٍ.

قد شاهدتُ ناسًا في السَّفَرِ والحضَرِ، صِغارًا وكبارًا وأوساطًا، فما شاهدتُ من يَدِينُ بالمجدِ، وَيَتَحَلَّى بالجود، ويَرْتَدِي بالعفو، ويتأزَّرُ بالحِلْم، ويُعطي بالْجُزَافِ، ويَفْرَحُ بالأضيافِ، وَيَصِلُ الإسعافَ بالإسعاف، والإتحافَ بالإتحاف، غيرَكَ.

والله إنَّكَ لَتَهَبُ الدِّرْهَمَ والدِّينارَ وكَأَنَّكَ غَضبْانُ عليهما، وتُطْعِمُ الصَّادِرَ والوارِدَ كأنَّ اللهَ قَد استخلفكَ على رزقِهما. ثُمَّ تَتجاوزُ الذَّهَبَ والفِضَّةَ إلى الثِّياب العزيزة، والْخِلَعِ النَّفيسةِ، والخيلِ العِتَاقِ، والمراكبِ الثِّقَالِ، والغِلْمانِ والجواري، حَتَّى الكتُب والدَّفاتِرَ وما يَضِنُّ به كُلُّ جَوَادٍ. وما هذا من سجايا البشر إلا أن يكون فاعلُ هذا نَبِيًّا

(١) من النكث، وهو النقض؛ نقض العهد أو الوعد أو البيع أو البيعة أو الصلح.

(٢) خزر العين: كسرُ العين بَصَرَها خِلْقَةً ، أو ضِيقُها وصِغَرُها، أو النَّظَرُ كأنه في أحد الشِّقَّيْنِ، أو أن يَفْتَحَ عَيْنَيْهِ ويُغَمِّضَهُما، أو حَوَلُ إحدَى العَيْنَيْن.

(٣) الخِيمُ : السَّجِيَّةُ والطبيعةُ، والخِيمُ : الأصلُ.

صادقًا، ووليًّا لله مُجتبًى، فإنَّ الله قد أمَّنَ هذا الصِّنْفَ من الفَقْرِ، وَرَفَعَ من قلوبهم عِزَّ المالِ، وهَوَّنَ عليهم الإفراجَ عن كُلِّ مُنْفِسٍ؛ ياقوتًا كان أو دُرًّا، ذَهَبًا كان أو فِضَّةً.

كَفَاكَ اللهُ عَيْنَ الحاسدين، وَوَقَاكَ كَيْدَ المُفسدين، الَّذين أنعمتَ عليهم بالأمس على رُؤوسِ الأشهادِ، وكانوا كَحَصًى فَجَعَلْتَهُم كالأطوادِ؛ وهُم يَكْفُرونَ أياديكَ، ويوالُون أعاديكَ، ويتمنُّونَ لك ما أرجو أنَّ الله يَعْصِبُهُ برؤوسهم، ويُنزلُهُ على أرواحهم، ويُذيقُهم وَبَالَ أمرهم، ويجعلُهم عِبْرَةً لِكُلِّ من يراهم ويسمعُ بهم، كان الله لكَ ومعكَ، وحافِظَكَ وناصِرَكَ.

أطلتُ الحديثَ تَلَذُّذًا بمواجَهَتِك، وَوَصَلْتُهُ خِدْمَةً لدولتكَ، وكَرَّرْتُهُ تَوَقُّعًا لُحسْنِ مَوْقِعِه عِنْدَك، وأعدْتُه وأبديتُه طلبًا للمكانةِ في نَفْسِكَ.

وأرجو، إنْ شاء الله، ألا أُحْرَمَ هَبَّةً من رِيْحِكَ، ونسيمًا من سَحَرِكَ، وخِيرةً بنَظَرِك. لم أُوَفَّقْ في هذه الكَلِمَةِ الأخيرةِ، والله ما يَمُرُّ بي يأسٌ من إنعامِكَ فأقوِّيه بالرَّجاءِ، ولا يعتريني وَهْمٌ في الخَيْبَةِ لديك فأتلافاه بالأملِ. إنَّما قُصَارى أمنيَّتي إذا حُكِّمْتُ أن أُعْطَى فيك سُؤْلي بالبقاء المَديد، والأمْرِ الرَّشيدِ، والعَدُوِّ الصَّريعِ، والوَليِّ الرَّفيعِ، والدَّولةِ المستتبَّةِ، والأحوال المسْتَحَبَّةِ، والآمالِ المبلوغةِ، والأمانيِّ المُدرَكةِ، مع الأمرِ والنَّهي النَّافِذَين، بين أهل الخافقين؛ والله يُبْلغني ذلك بطَوْلِه ومَنِّه.

وآخرُ ما أقولُ، أَيُّهَا الوَزيرُ: مُرْ بالصَّدَقَاتِ، فإنَّها مَجْلَبَةُ السَّلاماتِ والكراماتِ، مَدْفَعَةٌ للمكارهِ والآفاتِ. واهجُر الشَّرابَ، وأدِمِ النَّظَرَ في المُصْحَفِ، وافزعْ إلى الله في الاستخارة، وإلى الثِّقاتِ بالاستشارة. ولا تبخلْ على نفسك برأي غيرك، وإن كان خاملًا في نَفْسِكَ، قليلًا في عَيْنِكَ، فإنَّ الرَّأي كالدُّرَّةِ الَّتي رُبَّما وُجِدَتْ في الطَّريق وفي المَزْبَلَةِ، وقلَّ من فَزِعَ إلى الله بالتَّوكُّلِ عليه، وإلى الصَّديقِ بالإسعاد منه، إلا أراه الله النَّجاحَ في مَسَأَلَتِه، والقَضاءَ لحاجتِه؛ والسَّلام[1].

(١) يقول أبو حيان التوحيدي بعد ختام رسالته: فقال لي الوزير بعد ما قرأ الرسالة: يا أبا مزيد، بيضتُها، وعجبتُ من تشقيق القول فيها، ومن لطف إيرادك لها، ومن بِلَّة ريقك بها. (الإمتاع والمؤانسة، ٣/ ١٩٠).

(١٤)

رسالة
إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد
يبرر فيها إحراق كتبه

«حَرَسَكَ اللهُ أيُّها الشَّيخُ من سُوءِ ظَنِّي بِمَوَدَّتِكَ، وطُولِ جَفَائِكَ، وأعاذني من مكافأتك على ذلك، وأجارنا جميعًا ممَّا يُسَوِّدُ وَجْهَ عَهدٍ إن رَعَيناهُ كنَّا مستأنسين، وإن أهملناه كنَّا مستوحشين من أجله، وَأَدَامَ نِعْمَتَهُ عندك، وَجَعَلَنِي على الحالات كُلِّها فِدَاكَ.

وافاني كِتَابُكَ غيرَ مُحْتَسَبٍ ولا مُتَوَقَّعٍ، على ظَمَأ برَّحَ بي إليه. وشكرتُ اللهَ تعالى على النِّعمةِ به عليَّ. وسألتُهُ المزيدَ من أمثاله، الَّذي وصفتَ فيه بعد ذِكْرِ الشَّوقِ إليَّ، والصَّبابةِ نَحْوي، ما نالَ قَلبَكَ، والتَهَبَ في صَدْرِكَ من الْخَبَرِ الذي نَمى إليكَ فيما كان منِّي من إحراق كُتُبِي النَّفيسة بالنَّار وغَسْلِهَا بالماء، فَعَجِبْتُ من انْزواءِ وَجْهِ العُذْرِ عَنْكَ في ذلك، كَأَنَّكَ لَمْ تقْرأ قَولهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٨٨].

وَكَأَنَّكَ لَمْ تَأبَهُ لِقَولِه تَعَالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن: ٢٦].

وَكَأَنَّكَ لَمْ تَعْلمْ أَنَّهُ لا ثَباتَ لِشَيءٍ من الدُّنْيا وإنْ كانَ شَرِيفَ الْجَوْهَرِ، كَرِيمَ العُنْصُرِ، ما دَامَ مُقَلَّبًا بِيَدِ الليلِ والنَّهارِ، مَعْروضًا على أحداثِ الدَّهرِ وتَعَاوُرِ الأيَّام. ثُمَّ

إنِّي أقولُ: إن كان، أيَّدك الله، قد نَقَبَ خُفَّكَ ما سمعتَ، فَقَدْ أدْمَى أَظَلِّي[1] ما فَعَلتُ، فَلْيَهُن عليكَ ذلك، فما انبريتُ له، ولا اجترأتُ عليه حَتَّى اسْتَخَرْتُ الله عَزَّ وجلَّ فيه أيَّامًا ولياليَ حَتَّى أوحى إليَّ في المنام بِمَا بَعَثَ رَاقِدَ العَزْم، وأجدَّ فاتر النِّيةِ، وأحيا مَيِّتَ الرَّأي، وَحَثَّ على تَنْفيذِ ما وَقَعَ في الرُّوعِ، وتَربَّعَ في الخاطر. وأنا أجودُ عليك الآن بالحجَّةِ في ذلك إن طالبتَ بالعذرِ، أو إن استوضحت؛ لِتَثِقَ بي فيما كان منِّي، وتعرف صنع الله تعالى في ثَنْيه لي».

«إنَّ العلمَ، حاطكَ الله، يُرادُ للعمل، كَمَا أنَّ العملَ يُرادُ للنَّجاةِ، فإذا كان العملُ قاصرًا عن العلم، كان كَلا[2] على العالم، وأنا أعوذُ بالله من عِلمٍ عادَ كَلًّا، وأورثَ ذُلًّا، وصارَ في رقبة صاحبه غُلا[3]، وهذا ضربٌ من الاحتجاج مخلوطٌ بالاعتذار.

ثُمَّ اعْلمْ – عَلَّمكَ الله الْخيرَ – أنَّ هذه الكُتُبَ حَوَتْ منْ أصْنافِ العِلْم سِرَّهُ وعلانيتَهُ؛ فأمَّا ما كان سِرًّا فَلَمْ أجدْ لَهُ مَنْ يَتَحَلَّى بحقيقته راغبًا، وأمَّا ما كانَ عَلانيَّةً فلمْ أُصِبْ مَنْ يَحْرِصُ عليه طالبًا. على أنِّي جَمعْتُ أكْثرها للنَّاس، ولِطَلَبِ المِثَالَةِ منْهُم، ولِعَقْدِ الرِّياسةِ بينهُم، ولِمَدِّ الْجاهِ عنْدهُم، فَحَرمْتُ ذلك كُلَّهُ، ولا شكَّ في حُسْنِ ما اخْتاره الله لي، ونَاطهُ بناصيتي، وربطهُ بأمْري، وكَرهْتُ مَعَ هذا وغيره أنْ تَكُونَ حُجَّةً عليَّ لا لي.

وَمِمَّا شَحَذَ العزْمَ على ذلكَ، ورفعَ الْحِجابَ عَنْهُ أنِّي فَقَدْتُ وَلَدًا نَجيبًا، وصَديقًا حَبيبًا، وصاحِبًا قَريبًا، وتابعًا أديبًا، ورئيسًا مُثيبًا، فَشَقَّ عَليَّ أنْ أدَعَهَا لِقَوم يَتَلاعبُونَ بها، ويُدَنِّسُونَ عِرْضي إذا نظرُوا فيها، ويشْمتُونَ بِسَهْوي وغَلَطي إذا تَصَفَّحُوها، ويتراءون

(١) أَظَلُّ الإنسان: بُطونُ أَصابعه وهو مما يلي صدر القَدَم من أَصل الإبهام إلى أَصل الخِنْصَر، وهو من الإبل باطن المَنْسِم ؛ هكذا عَبَّروا عنه ببطون؛ قال ابن سيده: والصواب عندي أَن الأَظَلَّ بطن الأُصبع.

(٢) الكَلُّ بالفتح: قفا السيف، والسكين الذي ليس بحادٍّ. والكَلُّ بالفتح أيضًا: المصيبة تحدث، نقول: كَلَّ عنه: أي نبا وضعف.

(٣) الغل مفردة أغلال، وهي القيود.

نَقْصي وعَيْبي منْ أجْلها.

فَإن قلتَ: ولِمَ تَسِمْهُم بِسوءِ الظَّنِّ، وتُقَرِّعْ جَمَاعَتَهم بهذا العَيبِ؟

فَجَوابي لكَ أنَّ عِياني مِنهُم في الحياة هو الذي يُحَقِّقُ ظَنِّي بهم بَعْدَ الممات، وكَيفَ أتركها لأناس جَاوَرْتُهُم عشرينَ سَنَةً فَمَا صَحَّ لي من أحَدِهِم وِدَادٌ؟! ولا ظَهَرَ لي من إنسانٍ منهم حِفاظٌ، ولَقَدِ اضطررت بينهم بَعْدَ الشُّهرةِ والمعْرِفَةِ في أوقات كثيرةٍ إلى أكلِ الخُضَرِ في الصَّحراءِ وإلى التَّكفُّفِ الفاضِحِ عند الخاصَّة والعامَّة، وإلى بَيْعِ الدِّينِ والمروءة، وإلى تعاطي الرِّياءِ بالسُّمْعَةِ والنِّفاقِ، وإلى ما لا يَحْسُنُ بالحرِّ أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألَمَ. وأحوال الزَّمانِ باديةٌ لعينيكَ، بارزةٌ بين مسائك وصباحِك، وليسَ ما قُلْتُهُ بخافٍ عليك، مع معرفتك وفطنتك وشِدَّةِ تَتَبُّعكَ وتفرُّغكَ، وما كان يجبُ أن ترتابَ في صوابِ ما فعلتُه وأتيتُه بِمَا قَدَّمْتُهُ ووصفتُهُ، وبِمَا أمسكتُ عنه وطويته؛ إمَّا هَرَبًا من التَّطويلِ، وإمَّا خَوْفًا من القَالِ والقيل.

وَبَعْدُ، فقد أصبحتُ هَامَةَ اليوم أو غدٍ، فإنِّي في عَشْرِ التِّسعينَ، وهل لي بَعْدَ الكِبْرَةِ والعجزِ أَمَلٌ في حياةٍ لذيذةٍ؟! أو رَجاءٌ لحالٍ جديدةٍ؟ ألستُ من زمرةِ من قال القائل فيهم:

نَرُوحُ وَنَغْدو كُلَّ يَـــومٍ وَلَيْلَـــةٍ وَعَمَّا قَلِيــلٍ لا نَرُوحُ ولا نَغْدُو

وَكَمَا قَالَ الآخرُ:

تَفَوَّقْتُ دَرَّاتِ[1] الصِّبَا في ظِلالِهِ إلى أن أتاني بالفطـــامِ مشيبُ

وهذا البيتُ للوردِ الجعديِّ، وتَمَامُهُ يضيقُ عنه هذا المكان».

«والله يا سيِّدي لو لَم أتَّعِظْ إلا بِمَنْ فَقَدْتُهُ من الإخوان والأخدان، في هذا الصُّقعِ[2]، من الغُرَباءِ والأدَبَاءِ والأحِبَّاءِ لَكَفَى، فكيفَ بِمَنْ كانت العينُ تَقَرُّ بهم، والنَّفسُ تستنيرُ

(١) تَفَوَّقت شَرابَهُ : شَربتهُ شيئًا بعد شيءٍ، ودَرَّة: جمعها دَرَّات وهي اللبن أو الكثير منه.
(٢) الصُّقْع والصَّقْع: الناحية، والجمع الأصقاع.

بِقُرْبِهِم؟! فَقَدتُهم بالعراق والحجاز والْجَبَلِ والرِّيِّ، وما والى هذه المواضع، وَتَوَاتَرَ إليَّ نَعْيُهُم، واشتدَّت الواعيةُ بهم، فَهَل أنا إلا من عنصرهم؟ وهل لي مَحِيْدٌ عن مصيرهم؟ أسأل الله تعالى ربَّ الأوَّلينَ أن يجعلَ اعترافي بما أعرفه موصولًا بنزوعي عما أقترفه، إنَّه قريبٌ مجيبٌ».

وبعدُ، فَلِي في إحْرَاقِ هذه الكُتُب أسوةٌ بأئِمَّةٍ يُقْتَدَى بِهِم، ويُؤخَذُ بِهَديهم، ويُعشَى إلى نارهم، منهم: أبو عمرو بن العَلاء[1]، وكانَ من كبارِ العُلَمَاءِ مَعَ زُهدٍ ظاهرٍ وَوَرَعٍ معروفٍ، دَفَنَ كُتُبَهَ في بطنِ الأرضِ فَلَمْ يُوجَدْ لَها أثرٌ. وهذا داود الطائي[2] وكان من خِيَارِ عِبادِ اللهِ زُهْدًا، وفِقْهًا، وعِبَادةً. ويقالُ له تاجُ الأمَّة، طَرَحَ كتبه في البَحْرِ وقال يناجيها:

- نِعْمَ الدَّليلُ كُنتِ، والوقوفُ مَعَ الدَّليلِ بَعْدَ الوصولِ عَناءٌ وذُهُولٌ، وبَلاءٌ وخُمُولٌ.

وهذا يوسف بن أسباط[3]، حَمَلَ كتبه إلى غارٍ في جَبَلٍ وطَرَحَها فيه وَسَدَّ بابَهُ، فَلَمَّا عُوْتِبَ على ذلكَ قال:

- دَلَّنا العلمُ في الأوَّل ثُمَّ كادَ يُضِلُّنا في الثَّاني، فَهَجَرْناهُ لِوَجْهِ مَنْ وَصَلْنَاهُ، وَكَرِهْنَاهُ من أجْلِ ما أرَدْنَاهُ.

(١) هو زبَّان بن العلاء بن عمَّار بن العُريان، وقيل: العُريان بن العلاء بن عمار، التميميُّ، ثم المازنيُّ، أبو عمرو البصري، أمه من بني حَنِيْفَة، ومولده سنة (٦٨هـ) أو (٧٠هـ) بمكة، وقد نشأ بالبصرة، ومات بالكوفة أيام المنصور. اشتُهر بالفصاحة، والصدق، والثقة، وسعة العلم، والزهد، والعبادة، وكان من أشراف العرب، وورد أنَّه كان يختم القرآن في كلِّ ثلاث. وهو أحد القُرَّاء السبعة، وشيخُ القراءة والعربية، كان من أعلم النَّاس بالقراءات والعربية، والشعر، وأيام العرب، وكانت دفاتره ملءَ بيت إلى السقف، ثم تنسَّكَ فأحرقها، وقد انتهت إليه الإمامة في القراءة بالبصرة، وانتصب للإقراء أيامَ الحسن البصري، وهو من التابعين.

(٢) داود الطائي: هو أبو سليمان داود بن نصير الطائي الكوفي؛ محدِّثٌ زاهد، مات بالكوفة سنة ١٦٠هـ، أو ١٦٥هـ.

(٣) صوفي زاهد، قال فيه يحيى بن معين: أبو حاتم لا يحتج به، وقال البخاري: كان قد دفن كتبه، فكان لا يجيء بحديثه كما ينبغي.

وهذا أبو سُليمان الدَّاراني[1] جَمَعَ كتبه في تَنُّورٍ وسَجَرَها[2] بالنَّار ثمَّ قال:

- والله ما أحرقتُك حَتَّى كِدْتُ أَحْتَرِقُ بِكِ.

وهذا سُفيان الثَّوريُّ مَزَّقَ أَلْفَ جزءٍ وطيَّرَها في الرِّيحِ وقال:

- ليتَ يَدِي قُطِعَتْ مِن هاهنا، بل من هاهنا ولم أكتب حرفًا.

وهذا شَيْخُنا أبو سعيد السِّيرافي؛ سَيِّدُ العلماءِ قال لِوَلَدِهِ مُحَمَّد:

- قد تركتُ لكَ هذه الكتب تكتسبُ بِهَا خيرَ الأَجَلِ، فإذا رأيتها تَخُونكَ فاجعلها طُعمةً للنَّار».

«ومَاذَا أقولُ بعد هذا، وبماذا تقابلني بعد ذلك، سوى أني أقول وسامعي يُصدِّقُ: إنَّ زمانًا أحوجَ مثلي إلى ما بلغكَ، لَزَمانٌ تَدْمَعُ له العينُ حزنًا وأسًى، وَيَتَقَطَّعُ عليه القلبُ غيظًا وَجَوًى، وضَنًى وشَجًى، وما نصنعُ بِمَا كانَ وَحَدَثَ وَبَانَ؛ إن احتجتُ إلى العلم في خاصَّة نفسي، فالقليلُ والله تعالى شافٍ كافٍ، وإن احتجتُ إليه للنَّاسِ ففي الصَّدرِ منه ما يملأ القرطاسَ بَعْدَ القرطاسِ، إلى أن تَفْنَى الأنفاسُ بَعْدَ الأنفاس، وذلك من فضل الله عليَّ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨]. فَلِمَ تُعنَّى عيني - أيدك الله- بعد هذا بالحبرِ والوَرَقِ والْجلدِ والقِرَاءَةِ والْمُقَابَلَةِ والتَّصحيحِ، وبالسَّوادِ والبياض؟ وَهَل أدْرَكَ السَّلَفُ الصَّالحُ في الدِّينِ الدَّرجاتِ العُلَى إلا بالعملِ الصَّالحِ، وإخلاص المعتقد، والزُّهْدِ الغَالِبِ في كُلِّ ما رَاقَ من الدُّنيا وخَدَعَ بالزبرج وَهَوى بصاحبه إلى الهبوط؟ وَهَلْ وَصَلَ الحكماءُ القُدَماءُ إلى السَّعادة العظمى إلا بالاقتصادِ في السَّعي، وإلا بالرِّضا بالميسورِ، وإلا بِبَذْل ما فضل عن الحاجة للسَّائل والمحروم؟ فأين يُذْهَبُ بنا وعلى أيِّ بابٍ نَحطُّ رحالنا؟ وهل جامعُ الكتبِ إلا كجامع الفضَّة

(١) هو أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي الداراني، زاهد مشهور من كبار رجال الطريقة، توفي سنة ٢١٥هـ.

(٢) سجر التَّنُّورَ: ملأه وقودًا وأحماه.

والذَّهَبِ؟ وهل المنهومُ بِهَا إلا كالحريص الجَشِعِ عليهما؟ وهل المغرمُ بحبِّها إلا كمكاثرهما؟ هيهات!! الرَّحيلُ والله قريبٌ، والثُّواءُ قليلٌ، والْمَضْجَعُ مُقِضٌّ، والمقام مُمِضٌّ، والطَّريقُ مَخَوفٌ[1]، والْمُعِينُ ضعيفٌ، والاغترارُ غالبٌ، والله من وراء هذا كُلِّه طالبٌ.

نسألُ الله تعالى رحمةً يُظِلُّنَا جناحُها، ويسهِّل علينا في العاجلة غُدُوَّهَا ورواحَها. فالويلُ كُلُّ الويل لمن بَعُدَ عن رحمتِهِ بَعْدَ أن حَصَلَ تحت قدره، فهذا هذا».

ثُمَّ إنِّي - أيَّدَكَ الله- ما أردتُ أن أجيبكَ عن كتابك لِطُولِ جَفَائِكَ، وَشِدَّةِ التوائكَ عَمَّن لم يزل على رأيك مجتهدًا في مَحَبَّتِكَ على قُرْبِكَ ونأيكَ، مع ما أجده من انكسار النَّشَاطِ، وانطواءِ البِساطِ، لِتَعاوُرِ العللِ عليَّ، وتَخَاذُلِ الأعضاءِ منِّي؛ فقد كَلَّ البَصَرُ، وانعقدَ اللسانُ، وجمد الخاطر، وذهب البيان، وملك الوسواسُ، وغلب اليأسُ من جميعِ النَّاس، وَلكِنِّي حَرَسْتُ منك ما أضَعْتَهُ منِّي، ووفَّيتُ لك بما لم تفِ به لي، ويعزُّ عليَّ أن يكون لي الفَضْلُ عليكَ، أو أحرزَ المزيَّةَ دونكَ. وما حداني على مكاتبتك إلا ما أتمثَّله من تشوُّقِكَ إليَّ، وتحرُّقِكِ عليَّ، وأنَّ الحديثَ الذي بلغكَ قد بدَّدَ فكركَ وأعظم تعجُّبَكَ، وَحَشَدَ عليك جَزَعَكَ، والأوَّل يقول:

وَقَدْ يَجْزَعُ المرءُ الجَلِيـــدُ وَيَبْتَلِي ... عَزِيمَةَ رأَيِ الْمَرْءِ نَائِبَـــةُ الدَّهْـــرِ

تَعَاوَرُهُ الأيَّـــامُ فيما ينوبُـــــــهِ ... فَيَقْوَى عَلَى أمْرٍ ويَضْعُـــفُ عَنْ أمْرِ

على أنَّك لو علمتَ في أيِّ حالٍ غَلَب عَليَّ ما فَعَلْتُهُ، وعندَ أيِّ مَرَضٍ، وعلى أيِّ عُسْرَةٍ وفاقةٍ لَعَرَفْتَ من عُذري أضعافَ ما أبديتُهُ، واحتججتَ لي بأكثر مِمَّا نَشَرْتُهُ وطويتُه، وإذا أنعمتَ النَّظَرَ تَيَقَّنْتَ أنَّ لله جَلَّ وعزَّ في خلقه أحكامًا لا يَعَازُّ[2] عليها

(١) طَرِيقٌ مَخُوفٌ: مُثِيرٌ لِلْخَوْفِ وَالفَزَعِ.
(٢) يعَازُّهُ: يُغالِبه، ويجادله.

ولا يغالبُ فيها، لأنَّه لا يُبْلَغُ كُنْهُهَا، ولا يُنَالُ غَيْبُهَا، ولا يُعْرَفُ قَابُهَا[1]، ولا يُقْرَعُ بابُها. وهو تعالى أملكُ لنواصينا، وأطلعُ على أدانينا وأقاصينا. له الخلق والأمر، وبيده الكسرُ والجبرُ، وعلينا الصَّمتُ والصَّبرُ، إلى أن يوارينا اللحدُ والقبرُ، والسَّلام».

«إن سَرَّكَ- جعلني الله فِدَاكَ- أن تواصلني بخبركَ، وتُعَرِّفَنِي مَقَرَّ خطابي هذا من نفسك فافعل، فإنِّي لا أدعُ جوابكَ إلى أن يقضيَ الله تعالى تلاقيًا يَسُرُّ النَّفسَ، ويذكِّرُ حديثنا بالأمس، أو بفراقٍ نصيرُ به إلى الرَّمْسِ، ونَفْقِدُ معه رؤية هذه الشَّمس، والسَّلام عليك خاصًّا بِحَقِّ الصَّفَاء الذي بيني وبينك، وعلى جميع إخوانك عامًّا بِحَقِّ الوَفَاءِ الذي يجبُ عليَّ، وعليك السَّلام.

وكتب هذا الكتاب في شهر رمضان سنة أربعمائة.

* * *

(١) القابُ: المقدارُ .و القَابُ من القوس: ما بين المقبض وطرف القَوْس .وهما قابان .يقال: بينهما قابُ قَوْسٍ : كناية عن القُرب .وفى التنزيل العزيز : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم: ٩]: أَى طول قوسين ، أَو أَرَاد قابَيْ قوس، فقَلَبَه .

وفي لسان العرب: القاب: ما بين المقبض والسِّيَة (سية القوس: طرف قابها)، ولكل قوسٍ قابان، وهما ما بين المقبض والسية، ومن ذلك قولهم: قاب قوس، ويقال أيضًا: قيب قوس، وقاد قوسٍ، وقيد قوسٍ، أي: قدر قوس.

تعقيب

صوَّر زكي مبارك ما أقدم عليه أبو حيان التوحيدي من حرق كتبه أبلغ تصوير فكتب يقول:

«وما زال التوحيديُّ يقدِّم إلى نفسِه وقودَ الغيظ والحفيظة حتى غلبَه طبعُه الجامحُ في أُخريات عُمره، فقدَّم كتبَه طُعمة للنار، حتى لا يكون بينه وبين العَالم وشِيجةٌ من عِلم أو أدبٍ أو دِين... وفي تلك الرسالة فقراتٌ مُرَّةٌ موجعةٌ تُثير العَطفَ على ذلك الرَّجل الذي شَقِي كلَّ الشقاء بما رُزق من رِقة الحس، ودِقة الفهم، وقوةِ الإدراك. ولقد صوَّر بلواه بالناس أصدق تصوير حين قال:

«فَإن قلتَ: ولِمَ تَسِمْهُم بِسوءِ الظَّنِّ، وتُقَرِّعْ جَمَاعَتَهم بهذا العَيبِ؟

فَجَوابي لكَ أنَّ عِياني مِنهُم في الحياة هو الذي يُحَقِّقُ ظَنِّي بهم بَعْدَ الممات، وكَيفَ أتركها لأناس جَاوَرْتُهُم عشرينَ سَنَةً فَمَا صَحَّ لي من أحَدِهِم وِدَادٌ؟! ولا ظَهَرَ لي من إنسانٍ منهم حِفاظٌ، ولَقَدِ اضطررت بينهم بَعْدَ الشُّهرةِ والمعْرِفَةِ في أوقات كثيرةٍ إلى أكلِ الخُضَرِ في الصَّحراءِ وإلى التَّكفُّفِ الفاضِحِ عند الخاصَّة والعامَّة، وإلى بَيْعِ الدِّينِ والمروءة، وإلى تعاطي الرِّياءِ بالسُّمْعَةِ والنِّفاقِ، وإلى ما لا يَحْسُنُ بالحرِّ أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألَمَ. وأحوال الزَّمانِ باديةٌ لعينيكَ، بارزةٌ بين مسائك وصباحِك، وليسَ ما قُلْتُهُ بخافٍ عليك، مع معرفتك وفطنتك وشِدَّةِ تَتَبُّعكَ وتفرُّغكَ، وما كان يجبُ أن ترتابَ في صوابِ ما فعلتُه وأتيتُه بِمَا قَدَّمْتُهُ ووصفتُهُ، وبِمَا أمسكتُ عنه وطويته؛ إمَّا هَرَبًا من التَّطويلِ، وإمَّا خَوْفًا من القَالِ والقيل.

وهذه الكلمةُ تعطينا صورة واضحة من النزاع الدائم الموصول الذي كانت تثور مخرجاته بلا انقطاع بين التوحيدي وبين معاصريه، فذلك رجلٌ يعرفُ ما هو الضميرُ، وما هي متانةُ الخلق، وما معنى الكرامةِ، وما مدلولُ الإباء، ولكنَّ أحداثَ دَهْره قهرته على المشي فوق تلك الأشواك؛ أشواك الملق والمداهنة والرياء، فمشى مجروح القلب، مقتول النفس، مطعون الوجدان، وكان اقترافه لمخزيات الضِّعَةِ والهوان والصغار مما يُضرم في نفسه ثورةَ الحقد على الرؤساء المسعودين الذين لا يُنال فيضُ ما لديهم بغير أسباب الخسة والدناءة والإسفاف[1].

هذا كان رأي زكي مبارك في (حرق أبي حيان لكتبه) ولكن يبقى تساؤل محيِّرٌ، وهو تساؤل محق: ما الذي أحرقه أبو حيان بالضبط؟ هل أحرق مؤلفاته ومصنفاته أم أحرق مكتبته ومقتنياته؟

أجاب عن هذا التساؤل أستاذنا الدكتور محمد عمارة إجابة مقنعة جدًّا- في رأيي- وتتبع هذا الخبر تتبعًا دقيقًا فقال:

«في رسالة جوابية، كتبها التوحيدي إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد- وحفظها ياقوت الحموي- تحدث أبو حيان عن إحراقه كتبه، وبرر هذا الإحراق، وهو يرد على اعتراضات القاضي أبي سهل. وتاريخ هذه الرسالة شهر رمضان سنة ٤٠٠ هـ - أبريل - مايو ١٠٠٩م.

ولقد فهم السيوطي - خطأً- أن هذه الكتب التي أحرقها التوحيدي هي (مؤلفاته.. ومصنفاته)، واجتهد للتوفيق بين هذا الفهم وبين وجود مؤلفات ومصنفات للتوحيدي، فقال: «ولعل النسخ الموجودة الآن من تصانيفه كُتبت عنه في حياته، وخرجت عنه قبل حرقها..» ومنذ ذلك التاريخ، ظل الذين يكتبون عن التوحيدي يسوقون هذا الفهم الخاطئ- بل الوهم الذي لا ظل له من الحقيقة- كدليل على إدانة عصر التوحيدي-

(١) انظر: النثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك، ص ٤٨٩ وما بعدها.

الذي ألجأ هذا المؤلف إلى إحراق ثمرات عقله- بل واتخذ نفر من منحرفي الهوية من هذا «الفهم- الوهم» دليل إدانة للحضارة التي ضاقت بعبقرية أبي حيان! مع أن الرجل قد عاش في عصر ازدهار الفكر الحر، والحرية الفكرية، التي جعلت مصنفاته «معرضًا لمختلف المذاهب والمقولات»!..

ولعلنا في هذا المقام نكون أول من يعرض لهذا «الفهم- الوهم» بالتحقيق والتفنيد..

إن الكتب التي أحرقها أبو حيان هي «مكتبته» وليست «مؤلفاته ومصنفاته».. «مكتبته» التي «جمعها» وليست كتبه التي «ألفها وصنفها» وهي مكتبات مرحلة من مراحل حياته، جمعها في العشرين عامًا التي سبقت سنة ٤٠٠ هـن أي بعد فشل تجاربه في طلب المكانة عند الوزراء، وهو قد أحرقها لأنه ليس له من الولد والأهل من يرث هذه المكتبة الجامعة، التي جمعها هذا «الناسخ- الورَّاق» العظيم، وأصحاب «المكتبات» يتركون مكتباتهم للورثة، أما مؤلفاتهم فإنهم يؤلفونها للناس، وليس للوارثين!

وقد اقتدى أبو حيان في إحراق كتبه بعدد من الذين سبقوه إلى هذا الصنيع- من علماء عصره- وليس منهم من ضاعت مؤلفاته بإحراقه لها، كما أن حديث التوحيدي عن صنيعهم هذا كما سنرى في نص رسالته، قاطع بأن الكلام إنما هو عن إحراق «المكتبات» وليس عن إحراق «المؤلفات والمصنفات».

ثم إن وجود مؤلفات ومصنفات التوحيدي والتي لم يُفقد منها إلا كتاب واحد شاهدٌ على صدق ما نقول.

يتحدث التوحيدي -في رسالته إلى القاضي أبي سهل- عن الكتب التي أحرقها، فيقول: «..إحراق كتبي النفيسة» .. والمرء لا يصف مؤلفاته بالنفاسة، وإنما يترك ذلك للآخرين. ويتحدث عن سبب هذا الإحراق فيقول: « وَمِمَّا شَحَذَ العزْمَ على ذلكَ،

ورفعَ الْحِجابَ عَنْهُ أَنِّي فَقَدْتُ وَلَدًا نَجيبًا، وصَديقًا حَبيبًا، وصاحِبًا قَريبًا، وتابعًا أديبًا، ورئيسًا مُثيبًا، فَشَقَّ عَليَّ أنْ أدَعَهَا لِقَوم يَتَلاعبُونَ بها، ويُدَنِّسُونَ عِرْضي إذا نظرُوا فيها، ويشْمتُونَ بِسَهْوي وغَلَطي إذا تَصَفَّحُوها، ويتراءون نَقْصي وعَيْبي منْ أجْلها». وليس هناك في الدنيا من يؤلف لابنه أو صديقه أو صاحبه.. وإنما يؤلف المؤلفون للناس، مطلق الناس، ولأنهم لا بد وأن يسطروا أفكارهم على الأوراق! فالرجل هنا يتحدث عن إحراق مكتبته النفيسة، لأنه لم يكن لديه وارث يورثه إياها.

ثم هو يضرب الأمثال بمن اقتدى بهم في هذا العمل، فيضع أيدينا على ما يؤكد أن المراد هو إحراق «المكتبات» لا إحراق «المؤلفات».. فيقول: «.. وبعدُ، فَلِي في إحْرَاقِ هذه الكُتُب أسوةٌ بأئِمَّةٍ يُقْتَدَى بِهِم...منهم: أبو عمرو بن العَلاء، وكانَ من كبارِ العُلَمَاءِ ... دَفَنَ كُتُبَهَ في بطنِ الأرضِ فَلَمْ يُوجَدْ لَها أثرٌ. وهذا داود الطائي وكان من خِيَارِ عِبادِ اللهِ زُهْدًا، وفِقْهًا، وعِبَادةً. ويقالُ له تاجُ الأمَّة، طَرَحَ كتبه في البَحْرِ وقال يناجيها: نِعْمَ الدَّليلُ كُنتِ، والوقوفُ مَعَ الدَّليلِ بَعْدَ الوصولِ عَناءٌ وذُهُولٌ، وبَلاءٌ وخُمُولٌ.

وهذا يوسف بن أسباط، حَمَلَ كتبه إلى غارٍ في جَبَلٍ وطَرَحَها فيه وَسَدَّ بابَهُ، فَلَمَّا عُوْتِبَ على ذلكَ قال: دَلَّنا العلمُ في الأوَّل ثُمَّ كادَ يُضِلُّنا في الثَّاني، فَهَجَرْناهُ لِوَجْهِ مَنْ وَصَلْنَاهُ، وَكَرِهْنَاهُ من أجْلِ ما أرَدْنَاهُ.

وهذا أبو سُليمان الدَّاراني جَمَعَ كتبه في تَنُّورٍ وسَجَرَها بالنَّار ثمَّ قال: والله ما أحرقتُك حَتَّى كِدْتُ أحْتَرِقُ بِكِ.

وهذا سُفيان الثَّوريُّ مَزَّقَ أَلْفَ جزءٍ وطيَّرَها في الرِّيحِ وقال: ليتَ يَدِي قُطِعَتْ مِن هاهنا، بل من هاهنا ولم أكتب حرفًا.

وهذا شَيْخُنا أبو سعيد السِّيرافي؛ سَيِّدُ العلماءِ قال لِوَلَدِهِ مُحَمَّد: قد تركتُ لكَ هذه الكتب تكتسبُ بِهَا خيرَ الأجَلِ، فإذا رأيتها تَخُونكَ فاجعلها طُعمةً للنَّار».

وجميع هؤلاء الأعلام، الذين اقتدى بهم التوحيدي في إحراق «مكتبته» قد أحرقوا أو دفنوا أو أغرقوا «مكتباتهم» وليس «مؤلفاتهم ومصنفاتهم».

فأبو عمر بن العلاء (٧٠هـ ١٥٤ هـ = ٦٨٩م - ٧٧٠ م) قد روى عن العرب الفصحاء كتبًا ملأت بيته إلى قرب السقف واتفق له أن تنسك، فأخرج هذه الكتب وأحرقها- أو دفنها في باطن الأرض- فما رجع إلى علمه الأول، لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه. ولقد ذكر له ابن النديم (في الفهرست) كتابًا في القراءات، وعدة كتب أُخذت عنه، منها (كتاب النوادر عن أبي عمرو بن العلاء) و(كتاب قراءة أبي عمرو، لابن مجاهد) و(كتاب ما خالف فيه ابن كثير أبا عمرو) لابن شنبوذ و(كتاب الفصل بين أبي عمرو والكسائي) لأبي طاهر عبد الواحد البغدادي.. وله متفرقات، في الشعر والشعراء واللغة والنحو، متفرقة في كتب الأدب والطبقات.

فالذي أحرقه أبو عمرو بن العلاء هي «المكتبة التي ملأت بيتًا إلى قريب السقف» وليست المؤلفات والمصنفات.

وتاج الأمة، داود الطائي، قد طرح في البحر عندما تنسك وتصوف الكتب التي اتخذها دليلًا فكريًّا له، وذلك بعد أن «وصل» إلى «الحق»- سبحانه وتعالى- ولم تعد له حاجة إلى «الدليل».. وعنى هذا أن الحديث إنما كان عن الكتب التي كان يستدل بها ويرجع إليها وليس عن المؤلفات والمصنفات.

وما تخلص منه يوسف بن أسباط كان «مكتبته» التي احتاجت إلى «غار في جبل طرحها فيه وسد بابه» وليس هذا بالوصف لمؤلفاته ومصنفاته، ثم هو عندما عوتب في ذلك تحدث عن أنه إنما دفن «الدليل» أي المراجع والمصادر، وليس المؤلفات التي ألفها.

والذي مزقه سفيان الثوري وطيَّره في الريح هو «مكتبته» التي بلغت عدة أجزاء كتبها ألف جزء، ولم يقل عاقل: إن هذا هو رقم المؤلفات التي صنفها الفقيه.

فحديث التوحيدي إنما هو عن إحراق «مكتبته» لافتقاره لوارث يرثها ويحافظ عليها، وليس عن مؤلفاته ومصنفاته، والشواهد التي ساقها قاطعة بأن هذا هو المراد.

ثم يسوق الدكتور محمد عمارة دليلًا آخر أنجع وأوضح على أن التوحيدي لم يحرق مؤلفاته وإنما أحرق مكتبته، وهو هذه الكتب التي بين أيدينا الآن والتي يستمتع الناس بقراءتها حتى يومنا هذا. يقول: «إن عناوين هذه المؤلفات قد بلغت خمسة وعشرين عنوانًا المحفوظ بين أيدينا الآن اثنا عشر كتابًا، هي أهم وأكبر مؤلفاته اطلع عليها المؤرخون وكتاب التراجم بعد عصر التوحيدي، وأثبتوا في كتبهم الكثير من صفحاتها، وليس مفقودًا من عناوين هذه المؤلفات إلا كتاب (النوادر) الذي ذكره التوحيدي في (المقابسات)[1].

فمؤلفات الرجل لم تُحرق، وكانت سعيدة الحظ عندما نجا معظمها من عاديات الدهر، وما فُقد منها كان فقده في عصور متأخرة بعد أن اطلع عليها عدد من الكتاب والمؤرخين،ولعل بعض هذه المصنفات «المفقودة» أن يكون ضمن ما لم يفهرس ولم ينشر من ملايين المخطوطات»[2].

❊ ❊ ❊

(١) في الحقيقة إن هناك كتبًا ورسائل عديدة منسوبة لأبي حيان التوحيدي، ومفقودة، وقد أشرنا إليها في مقدمة الكتاب، منها: كتاب الإقناع، وكتاب التذكرة التوحيدي، وكتاب الزلفى، وبعض الرسائل.

(٢) انظر: أبو حيان التوحيدي بين الزندقة والإبداع، ص ٣٠- ٣٤.

المراجع

- إبراهيم كيلاني، ثلاث رسائل للتوحيدي، المعهد الفرنسي بدمشق، ١٩٥١.
- ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط١، ١٩٨٦.
- ابن النَّديم: الفهرست ، مكتبة خيَّاط، بيروت ، د. ت.
- ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨.
- أبو البقاء العكبري: ديوان أَبي الطِّيِّب المتنبِّي، ضبطه وصحَّحه السَّقَّا والأَبياري وشبلي، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧١م.
- أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد الأول. دار الكتب المصرية، ١٩٢٢.
- أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين، دار آفاق، القاهرة. ط ١، ٢٠١٨.
- أبو حيان التوحيدي، كتاب البصائر والذخائر.
- أبو حيان التوحيدي، كتاب المقابسات، دار سعاد الصباح، الكويت، ط ٢، ١٩٩٢.

- إخوان الصفاء، رسائل إخوان الصفاء وخِلَّان الوفاء (الجزء الأول، مراجعة خير الدين الزركلي، مؤسسة هنداوي، د. ت.
- الإمام الحافظ أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد الدولابي: الكنى والأسماء، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تحقيق د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠١.
- السَّمعاني: الأَنساب، تحقيق الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر- .١٩٧٧
- الشريف المرتضى، أمالي المرتضى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط١، ١٩٥٤.
- أيمن علي عبد اللطيف – عبقرية النثر العربي، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، مصر، ٢٠٠٨.
- جمال الدِّين القفطي: إنباه الرُّواة على أَنباه النُّحاة، تحقيق محمد أَبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة/ مؤسسة الكتب الثَّقافيَّة ، بيروت، ١٩٨٦م.
- حسن السندوبي، مقدمة تحقيق كتاب المقابسات، دار سعاد الصباح، الكويت، ط ٢، ١٩٩٢.
- زكريا إبراهيم: أبو حيان التوحيدي: أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، الدار المصرية للتأليف والترجمة. د. ت
- زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٢.
- زين الدين قاسم بن قطلوبغا بن عبد الله المصري الحنفي: الثقات ممن لم يقع في الكتب الستة، ، تحقيق حامد عبد الله المحلاوي، جـ ٥، الدار العلمية، بيروت.

- شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيقه شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط ١١، ١٩٩٦.
- صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط، دار التراث العربي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠.
- عبد السلام المسدي، التوحيدي وسؤال اللغة، فصول- مجلة النقد الأدبي، العدد الرابع، خريف ١٩٩٥.
- غانم جواد رضا الحسن،الرسائل الأدبية النثرية في القرن الرابع، رسالة دكتوراه، جامعة بغداد، إشراف د. يونس أحمد السامرائي، ٢٠٠٥.
- فؤاد معصوم: إخوان الصفا: فلسفتهم وغايتهم، دار المدى، مصر.
- محمد عمارة: أبو حيان التوحيدي بين الزندقة والإبداع، سلسلة في التنوير الإسلامي، ص ٤١، نهضة مصر، ١٩٩٧.
- مصطفى الشكعة، معالم الحضارة الإسلامية، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨٨.
- ياقوت الحموي: معجم الأُدباء، دار إحياء التُّراث العربي، بيروت ، د. ت.

❊ ❊ ❊

فهارس الكتاب

أولًا: فهرس الآيات القرآنية

الآية	السورة	الصفحة
﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾	آل عمران	١٣٧
﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾	الأنعام	٢٠٨
﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾	هود	١٦٨
﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾	يوسف	٢١٩
﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾	القصص	٢١٥
﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ ﴾	لقمان	١٥٥
﴿ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ ﴾	فاطر	١١٤
﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ ﴾	الصافات	١٣٦
﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ ﴾	محمد	١٧٨
﴿ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾	الذاريات	١٥٢
﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾	الرحمن	٢١٥
﴿ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾	المعارج	١٠٦

ثانيًا: فهرس الأحاديث

إني لأكره لفاطمة مَيْعة شبابه، وحداثة سنِّه: ٦٩
يا أبا بكر! هو لمن قيل له: هو لك، لا لمن يقول: هو لي،
ولمن ينقادُ إليه لا لمن يَتَنَفَّجُ إليه: ٦٨

ثالثًا: فهرس القوافي

قافية الهمزة

القافية	الشاعر	عدد الأبيات	الصفحة
أشْياءُ	أبو نواس	١	١٣٠
افتراء		٧	١٥١
أكفاء		٢	١٧٥

قافية الباء

الشباب	محمود الوراق	٣	١٥٦
بالمرتاب	الكلابي	١	١٧٨
واجب		٢	١٥٨
عواقبه		١	٢١٢
ومذهب		١	١٦٢
العرب	الجماز	٢	١٧١
ذنوب	الجاحظ	٧	١٨٠
المصيب	الجاحظ	٣	١٧٧
شحوب		١	١٩١

القافية	الشاعر	عدد الأبيات	الصفحة
مشيب	الورد الجعدي	١	٢١٧
قافية الثاء			
مَحْثُوْثُ		١	١٣١
قافية الحاء			
انتحى	امرؤ القيس	١	١٣٦
قافية الدال			
الولائد		٣	١٥٠
الوجد	بشار بن برد	٣	١٧٩
مجد		١	١٩١
بعيد		٣	١٥٨
قافية الراء			
بداره	محمود الوراق	٢	١٥٦
الصدر	الجاحظ	٣	١٧٩
عمري		٢	١٥٩
الدهر		٢	٢٠٩
الدهر		٢	٢٢٠
مستور	الجاحظ	٥	١٦٩
تسير	الجاحظ	٥	١٦٩- ١٧٠

القافية	الشاعر	عدد الأبيات	الصفحة
قافية السين			
حبسها		٣	٥٥، ٥٦
بالتَّعريسِ		١	٧٦
قافية العين			
مستمتع	الجاحظ	٢	١٧٧
قافية القاف			
رزقا	العباس بن الأحنف	١	٩٦
المخترق	رؤبة بن العجاج	١	١٣٦
تائقه	الجماز	٢	١٧١
قافية الفاء			
ينتف		٢	١٥٩
قافية الكاف			
تعبك		١٠	١٦٠
قافية اللام			
حالي	أبو بكر محمد بن زكريا الرازي	٢	٥٧
عقنقل	امرؤ القيس	١	١٣٦
الثقل		٧	١٥٣
مختالا		٢	١٦١، ١٦٢
الماحل	ابن العميد	١	١٦٢
الشغل		١	١٩٧

القافية	الشاعر	عدد الأبيات	الصفحة
قافية الميم			
العدم		٤	١٧٠
عقم	أبو دهبل الجمحي	١	١٨١
مظلم		١	١٩٧
تدوم		١	١٩١
يتكلما	ابن العميد	١	١٦٢
قافية النون			
نضاختان		١	١٩١
وزنا	مالك بن أسماء الفزاري	٢	١٧٧، ١٧٨
زمانه		١	٢٠٧
قافية الهاء			
قيلها	ابن العميد	٢	١٦٢
حاطبه	ابن العميد	٢	١٦٢
منتهاه	الجاحظ	٢	١٧٢
قافية الواو			
نغدو		١	٢١٧
قافية الياء			
بقيَّه	زهير بن جناب الكلبي	٢	٣٢
الفلسفي		٤	٥٣، ٥٤

رابعًا: فهرس الأعلام

(أ)

إبراهيم بن جَبَلَةَ: ١١٨
إبراهيم بن رباح: ١٧٠، ١٧٩
إبراهيم بن سيار النظام: ١٨٣
إبراهيم بن العباس الصولي: ١١٣، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٢٤: ١٧٣
إبراهيم كيلاني: ٨١، ٨٢، ٨٣
إبراهيم بن المدبِّر: ١٧٩، ١٨٠
إبراهيم بن المرزباني: ١١٣
أحمد أمين: ٩٤
أحمد بن بشْرِ المَرْوَرُّوذِيّ (أبو حامد): ٦١، ٨٣، ٢٠٦
أحمد بن أبي خالد: ١١٣، ١١٨
أحمد بن الخطيب: ١٢٥
أحمد بن أبي دؤاد: ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠
أَحْمَدُ بْنُ سَهْلٍ الْبَلْخِيُّ: ١٦٦
أحمد الطويل: ٢٠٥
أحمد بن محمد الأخباري: ١٧٩
أبو أحمد بن مردك: ١٥٠
أبو أحمد بن الهيثم: ٢٠٥
أحمدُ بن يوسف: ١١٦
ابنُ الأخشادِ: ١٢٨، ١٨٥

أرسطوطاليس: ١٢٠، ١٣٣
ابن أبي إسحق: ١٨٣
أبو إسحق الصابي: ١١٢، ٢٠٥
أبو إسحاق المدائني: ١٥٨
إسحاق الموصلي: ١٦٧
الإسكندر: ١٢٠
إسماعيلُ بن صبيح الثَّقفيُّ: ١١٦، ١١٩
الأصمعي: ١٧٧
أفلاطون: ٤٤، ٤٥، ١٢٠
إقليدس: ١١٩
الأندلسي: ٥٠
انكاساغورس: ٤٧
أوميروس (هوميروس): ٤١، ١٢٠
أبو أيُّوب المورياني: ١٢٣

(ب)

البُخاريّ أبو العَبّاس: ٨٨، ٩١
البربري أبي محمَّد: ١٠٧، ١٠٨
ابن أبي بشر: ١٢٨
بِشرُ بنُ المعتمر: ١١٨
ابن البقال: ٢٠٦
أبو بكر الصديق: ٦٢، ٦٣، ٦٨، ٧٣، ٧٤، ٧٦، ٧٧، ٨١، ٨٣
بلیناس: ١٢٠
بنو بويه: ٨١

(ت)

أبو تمام الزينبي: ١١٤، ٢٠٦
ابن التوأم: ١١٥، ١٢٢
أبو التَّياح مولى أبي عُبَيْدَة بن الجرَّاح: ٦٣

(ث)

ثابت بن قرة: ١٨١، ١٨٤
ثمامة: ١١٧
ابن الثوابة: ١١٢، ١٢٢، ١٢٣

(ج)

الجاحظ (عمرو بن بحر): ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥
جالينوس: ١٢٠
جَبَلُ بنُ يَزِيدَ: ١١٦
الجريريّ غلام ابن طَرّارة: ٩٢
جعفرُ بنُ يحيى: ١١٦، ١١٨
الجماز: ١٧١
أبو الجمل: ١١٤

(ح)

الحجاج: ١٨٣
حذيفة بن بكر: ١٧٥
الحزامي: ١٨٥
ابن أبي الحديد: ٨٣، ٨٤

الحسن البصري: ١٥٠، ١٨٢، ١٨٤، ٢٠٧
الحسن بن القاسم بن مهرويه: ١٧٩
حسن السندوبي: ٨٤
أَبَوَ الحُسَنِ الأَعْسَر الخُطَّاطَ: ١١٠
أبو الحسن العامري: ١٦١
الحسن بن وهب: ١٢١، ١٢٣
ابن حفصٍ صاحبُ الدِّيوان: ٢٠٥
أبو حفص (عمر بن الخطاب): ٧٩، ٨٠، ١٨١، ١٨٤
حَمْزَةَ الورّاق: ٩٢
الحسين بن مردويه الفارسي: ١٤٩، ٢٠٦
حمدان بن أبان اللاحِقيُّ: ١٧٠
أبو حنيفة: ١٥٦

(خ)

الخزاعي: ٦٣
أبو الخطاب الصابئ: ٢٠٥
ابن الخلال الوراق: ١١١
الخلدي: ١٢٨
الخليل بن أحمد: ١٥٩
أبو الخير الخمَّار: ٤٩

(د)

داود الطائي: ٢١٨
ابن درستويه: ١٥٩، ٢٠٦
أَبو دُلَفَ العِجْلِيُّ: ١١٧، ١٦٧

دمقراطيس: ٤٦
دوفنطس: ٤٦
الدينوري (أبو حنيفة): ١٦٥، ١٦٦

(ذ)

ذو الرياستين: الفضل بن سهل: ١١٣

(ر)

ابن رباح: ١٢٨، ١٧٠
أبو الربيع الغنوي: ١٧٣
رسولُ ابنِ طغج: ١٢٨
الرشيد: ١١٩
ابن رشيد: ١٢٨

(ز)

أبو زكريا الصَّيْمري: ٤٨
زكي مبارك: ٩٣، ٩٤، ٢٢٣
ابن الزنجي: ١١٢، ١١٣
الزهري: ١٢٨، ٢٠٦
ابن الزهري: ١١٢
ابن الزيات الوزير: ١١٥، ١٦٨
زيد بن رفاعة: ٤٣، ٨٥

(س)

ابو السؤل الكردي: ١٩٧
ساسنكر: ٢٠٧

سحبان وائل: ١٨٣
السدري: ١٧٤
السري: ٢٠٦
سعد المعالمي: ١٩٧
ابن سعدان: ١٢٥
سعيد بن حميد: ١٢١، ١٢٣
أبو سعيد السيرافي: ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٤، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٥، ١٨١، ٢٠٦، ٢١٩
سقراط: ٣١، ٤٣،
أبو سليم: ١٢٤
سَلِيمُ الْحَرَّانيُّ: ١٢٢
ابو سليمان الداراني: ٢١٩
أبو سليمان السجستاني: ٤٣، ٤٨، ٥٠، ٥٢، ٥٣، ٥٧، ٨٧، ١١١، ١٤٥
سَهْلُ بنُ هارونَ: ١١٨، ١١٩، ١٢٣، ١٦٧
ابن سورين: ١١١، ٢٠٥، ٢٠٦
سويقلس (سوفوكليس): ٤٤
ابنُ سيرينَ: ١٢٤

(ش)

شاشنكير نصر الدَّولة: ١١٤
الشاشي: ١٥٢
الشافعي: ١٥٦
شُرحبيل بن يعقوب الخزرجي: ٧٩

(ص)

الصاحب بن عباد: ٨٢، ٨٣، ١٢٥
صاحب الطَّاق: ١١٧
صالح بن كَيْسان: ٦٣
صمصام الدولة: ٨٥

(ط)

الطائع: ١١١
أبو طالب: ٦٥

(ع)

عامر بن عبد قيس: ١٨٣
العبَّادانيُّ: ٦٢
عباس: ١١٥
أبو العباس: ١٤١
العباس بن الحسين أبو الفضل: ٢٠٥
العباس بن الأحنف: ٩٦
العباس بن الحسين الوزير: ٢٠٧
العباس بن رستم: ١٧٧
العبَّاس بن ماهان: ١٥٢
أبو العباس عبد الله بن المعتز: ١٠٤
عَبْدُ الْحَمِيدِ بنُ يَحْيَى: ١١٧، ١١٨، ١٢٣
عبدُ الرَّحمن بن محمَّد الكاتب: ١٧٢
ابنُ عبدِ العزيزِ الهاشميِّ: ١٢٨

أبو عبد الله البصري: ٢٠٦
عبد الله بنَ حَمُّودٍ الزُّبيدي: ١٦٥
عبد الله بن جعفر الوكيل: ١٧٩
عبد الله بن طاهر: ١١٩، ١٢٢، ١٢٣
أبو عبد الله العارض: ١٩٩، ٢٠٣
عبد الله بن عباس: ١٥٤
أبو عبد الله اليَفُرَنيّ: ٢٠٥
عبد الملك بن مروان: ٦٣
أبو عُبَيْدَة بن الجرَّاح: ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٧١، ٧٥، ٧٦، ٨٠
عُبَيدُ بنُ أبي رَافِع: ١٢٤
عُبَيدُ اللهِ بنُ الْحَسَنِ العَنْبَرِيُّ: ١٢٥
العتابي: ١٢٢
العسجدي: ١١٣
عَقيل بن زياد الخزرجيّ: ٧٩
أبو العلاء صاعد: ٢٠٥
أبو علي التنوخي: ١٧٩
علي بن جعفر: ١١١
علي بن أبي طالب: ٦٢، ٦٣، ٦٥، ٦٩، ٧١، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٩، ٨٠، ١٢٤، ١٧٥
عَليُّ بنُ عُبَيدَةَ: ١١٦
عليُّ بنُ عيسى الجرَّاح: ١٢٨
عليُّ بن عيسى الرماني: ١٢٨، ١٤٤، ١٦١، ١٨٥
علي بن المستنير: ١٦٠
علي بن هارون الزَّنْجانيّ (أبو الحسن): ٨٦
علي بن عيسى الوزير: ١٢٢

علي بن محمد: ٢٠٩، ٢١٥
علي بن يحيى: ١٧٨
عُمر بن الخطاب: ٦٤، ٧١، ٧٦، ٧٧، ٨٠، ٨٣، ١١٥، ١١٨، ١١٩، ١٢٤
عمرو بن العاص: ١١٨
عمرو بن عبيد: ١٨٣
أبو عمرو بن العلاء: ٢١٨
ابن العميد: ٨٢، ٨٣، ١٨٩
العوقي: ٨٦
عيسى عليه السلام: ٩٠
عيسى بن دأْب: ٦٣
عيسى بن زُرْعة: ٤٩
أبو العيناء (محمد بن القاسم): ١٦٧، ١٧٠، ١٧١، ١٧٧، ١٧٩

(ف)

ابن فارس: ١٦٢
ابن الفرات: ١٢٨، ١٣٦
الفتح بن خاقان: ١٧٢، ١٨٥
أبو الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات: ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٦٣
أبو الفتح القوَّاس: ١٥٩
أبو الفتح بن العميد: ١٦١
ابن فراس: ١٢٨
أبو الفرج الأصفهاني: ١٧٩
فرقد السبخي: ١٨٣

الفضل بن سهل السرخسي (ذو الرياستين): ١١٣
الفضل بن يحيى: ١١٩
فيثاغورس: ٤٦، ٤٧

(ق)

قتادة: ١١٤، ١٨٣
قدامة ابن جعفر: ١٢٨
ابن قريعة: ٢٠٦
قطرب: ١٦٠
القومسي: ٢٠٨، ٢١٢

(ك)

الكتبي: ١٢٨
كسج البقال: ١٩٧
ابن كعب: ١٢٨
الكندي: ١٤٣

(م)

المأمون: ١١٣، ١١٦، ١١٨، ١٢٢، ١٦٧
مالك بن أسماء الفزاري: ١٧٧
المبرد: ١٥٠، ١٧٤، ١٧٦، ١٧٧
المتوكل: ١٢٥
متى بن يونس القنائي: ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٧، ١٤٠
محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم: ٢٩، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨،٦٧، ٦٩، ٧٢، ٧٤، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٩٠، ١٥٦، ١٥٧

أبو محمد الأندلسي: ١٦٥
محمد بن إبراهيم: ٢١١
محمد بن بقية: ٢٠٨
محمد بن الجهم: ١٧٠
محمد بن منصور: ١٦٩
أبو بكر محمد بن زكريا الرازي: ٥٧، ٥٩
محمَّدُ بنُ عبد الملك الوزير: ١٢٣
محمد عمارة: ٨٢، ٢٢٤
محمد بن فُلَيح: ٦٣
أبو سليمان محمدُ بنُ مَعْشر البُسْتِيّ : ٨٦
محمود الوراق : ١٥٦
مروان: ١١٧
المرقش: ١٦٠
مزبد: ١٨٣
معبد بن فلان: ١١٩
ابن معروف القاضي: ٢٠٥، ٢٠٨
مودوطيس: ١٢٠
وأبو أحمد المِهْرَجانيّ: ٨٦
أبو محمد المهلبي: ٦٢
المرتضى: ٨٣
المرزباني: ١١٣، ١٢٨، ١٦٧، ١٧٣، ١٧٥
مسكويه: ١٩٦
ابن المشرف البغدادي: ١١٣
ابن المعتز: ١٠٤

ابن معروف: ١٥١
أبو معمر الكاتب: ١٨٥
المقدسي (محمدُ بنُ مَعْشر البُسْتِيّ): ٩٢
ابن مقسم: ١٨٤
ابن المقفَّع: ١١٧
ابن مقلة: ١٠٨، ١٠٩، ١١٢، ١١٤
أبو ملحم: ١٧٨
مَلِكُ يونان: ١٢٠
المنصور: ١٢٢
أبو المنصور العمري: ١٥٨
أبو موسى الأشعري: ١٢٤
ابن ميسرة: ٦٣
ميمون بن هارون: ١٧٦

(ن)

نصر بن سيار: ١١٥
نقوماخوس: ٤٧
النمري: ١١٦

(هـ)

هِشَامُ بْنُ الْحَكَم: ١١٧
هشامُ بنُ سالم: ١١٧
هشامُ بنُ عبد الملك: ١١٧
هشام بن عروة: ٦٣
أبو هفان: ١٨٤

(و)

واصل بن عطاء: ١٨٣
أبو الوفاء المهندس: ١٢٥، ١٩٥، ٢١٢
وهب: ١١٥

(ي)

ياقوت: ١٠٨
يحيى بن خالد: ١٢٠
ابنُ يحيى العلويِّ: ١٢٨
يحيى بن علي بن المنجِّم: ١٧٧
يزيد بن رُومان: ٦٣
يزيد بن المهلب: ١٧٥
يموت بن المزرع: ١٧١
يوسف بن أسباط: ٢١٨

خامسًا: فهرس البلدان والأمكنة

آمد: ١٥١
أذربيجان: ١١٣
باب الشام: ١٥٨
باب الطاق: ١١١
البصرة: ٨٦، ١٩٧
البطائح: ١٩٧
بغداد: ١٥٠،١٠٧، ١٦١
الجبل: ١١٤
درب الحاجب: ١٩٥، ١٩٧

درب الرواسين: ١٩٥
ساوة: ١٥٠
السلام: ٢١١
دار ابن حبشان: ٦١
السقيفة: ٦٢، ٨١
شارع الماذبان: ٦١
الشام: ١٩٧
العراق: ١١٤، ١٥٣
قرميسين: ١٩٦
مصر: ١٢٨
مكة: ٦٣، ١١٨
فارس: ٧٣
النهروان: ١٥٤
نيسابور: ٢١١
همذان: ٢١١

سادسًا: فهرس الشعوب والقبائل والمذاهب

أعصر: ١٧٤
الترك: ١٣٠
الديلم: ٢٠٦
الخراسانيون: ١٥٦
الخوارج: ٩٠
آل سامان: ١٢٨
السنية: ٩٠

الشيعة: ٩٠
الصابئون: ١٤٤، ١٨١
بنو العباس: ٢٠٦
العجم: ١٨٠
العرب: ١٣٠، ١٣٣، ١٤٧، ١٧٤
الفرس: ١٣٠
قيس: ١٧٤
الكوفيون: ١٥٢
المرجئة: ٩٠
المعتزلة: ٩٠
النصارى: ٤٩، ٩٠، ١٨٥
بنو هاشم: ١٧٣
مضر: ١٧٤
يونان: ١٣٠، ١٣١، ١٣٥

الفهرس العام

مقدمة	٥
القسم الأول: أبو حيان التوحيدي (حياته ورسائله)	٩
١- أبو حيان التوحيدي	
أ- مولده ونسبه ونشأته	١١
ب - عصره	١٥
جـ - مكانته وثقافته	١٧
د- آثاره العلمية	١٧
٢- رسائل أبي حيان	٢٠
القسم الثاني: منتخبات من رسائل التَّوحيدي	٢٧
رسالة الحياة	٢٩
أصناف الحياة	٣٣
الحيوات عند الفلاسفة	٤١
عند أوميرُس	٤١
عند سقراط	٤٣
عند زيد بن رفاعة	٤٣
عند سويقلس	٤٤
عند أفلاطون	٤٤

عند دمقراطيس	٤٦
غفلة القلوب	٥٠
رسالة السقيفة	٦١
تعقيب على رسالة السقيفة	٨١
رسالة إخوان الصفاء	٨٥
تعقيب على رسالة إخوان الصفاء	٩٣
رسالة في العلوم	٩٥
رسالة في علم الكتابة	١٠٧
مناظرة بين أبي سعيد السِّيرافي ومتى بن يونس القُنَّائي النَّحْوِ العربي والمْنطِقِ اليُونَانِيِّ	١٢٧
في ما بين المنطق والنحو من المناسبة	١٤٥
من محاورات السيرافي	١٤٩
مقتطفات من رسالة أبي حيان في تقريظ الجاحظ	١٦٥
أوَّلًا: من ترجمة الدِّينوري	١٦٥
ثانيًا: من ترجمة الجاحظ	١٦٧
مفاخر العرب ثلاثة	١٨١
رسالة إلى أبي الفتح بن العميد	١٨٩
رسالة إلى أبي الوفاء المهندس البوزجاني يشكو فيها حاله	١٩٥
رسالة إلى الوزير أبي عبد الله العارض يوجه إليه بعض نصائحه	١٩٩
رسالة أخرى إلى الوزير أبي عبد الله العارض	٢٠٣
رسالة إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد يبرر فيها إحراق كتبه	٢١٥

تعقيب	٢٢٣
المراجع	٢٢٩
فهارس الكتاب	
أولًا: فهرس الآيات القرآنية	٢٣٣
ثانيًا: فهرس الأحاديث	٢٣٤
ثالثًا: فهرس القوافي	٢٣٤
رابعًا: فهرس الأعلام	٢٣٨
خامسًا: فهرس البلدان والأمكنة	٢٥٠
سادسًا: فهرس الشعوب والقبائل والمذاهب	٢٥١